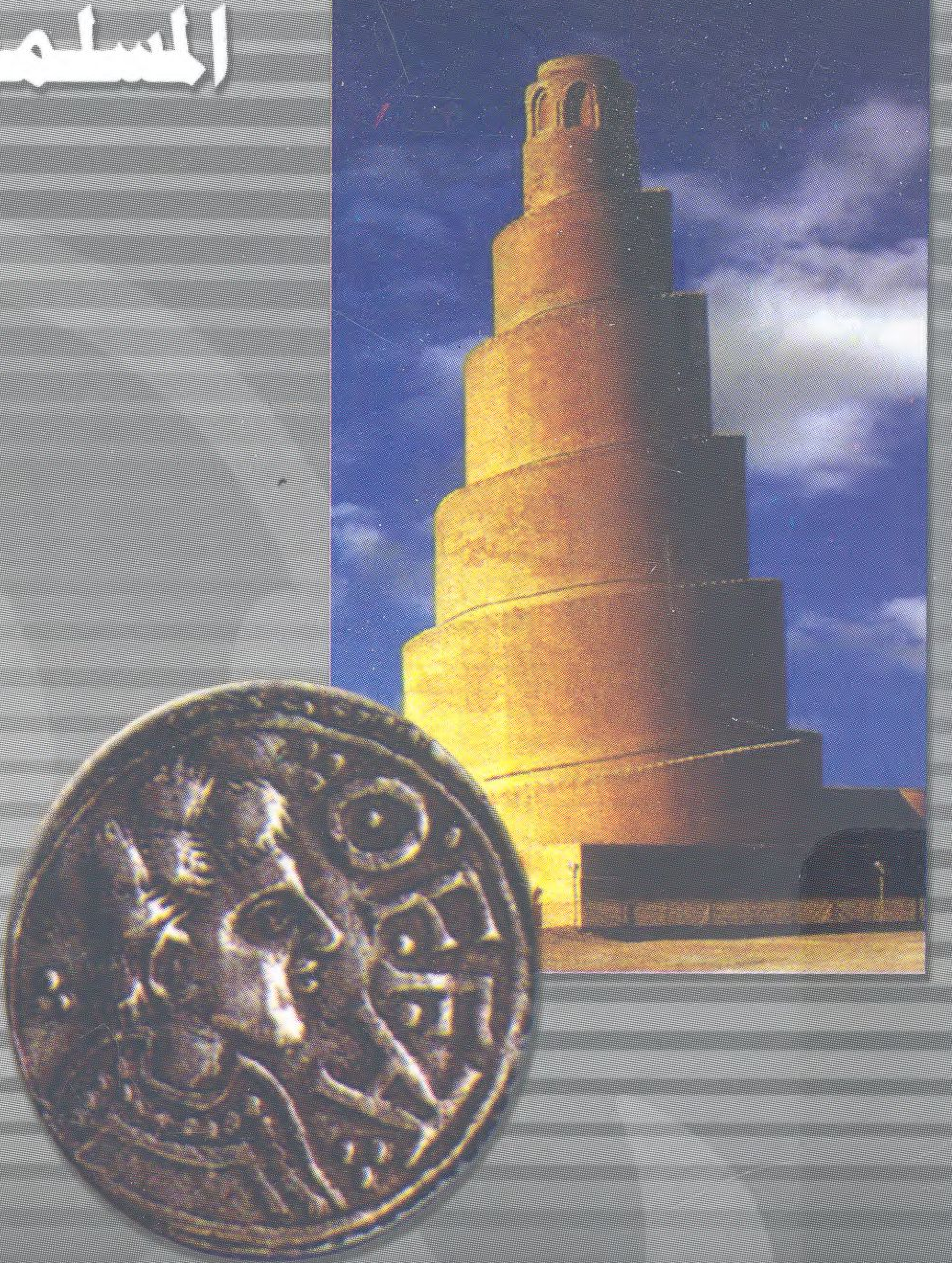
موسوعة

الثقافة التاريخية

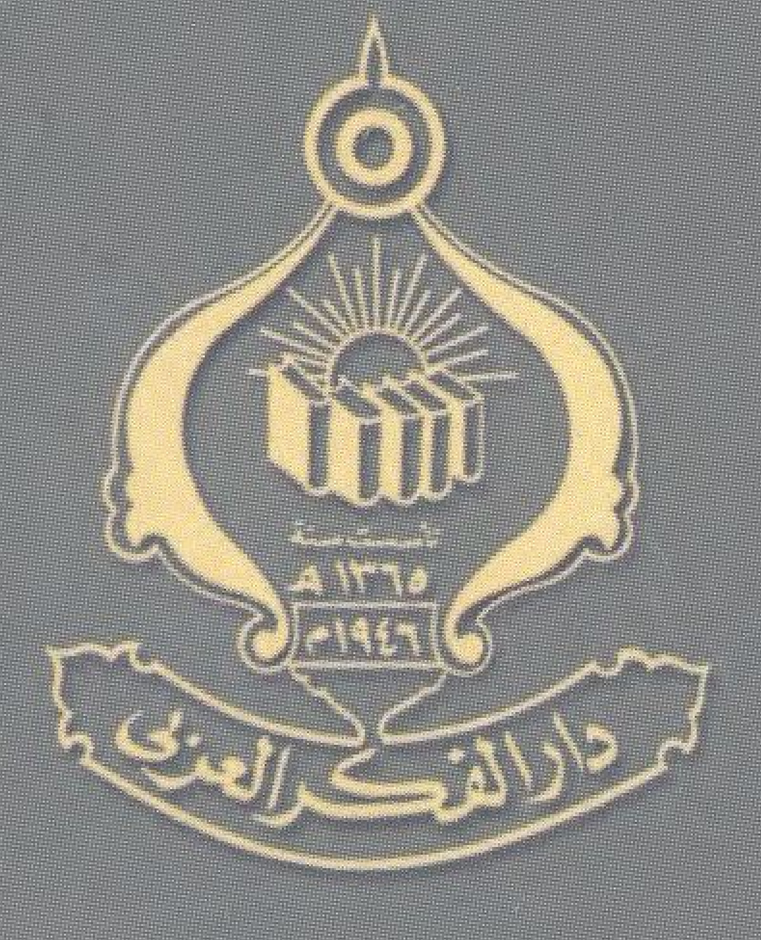
والأثرية والحضارية

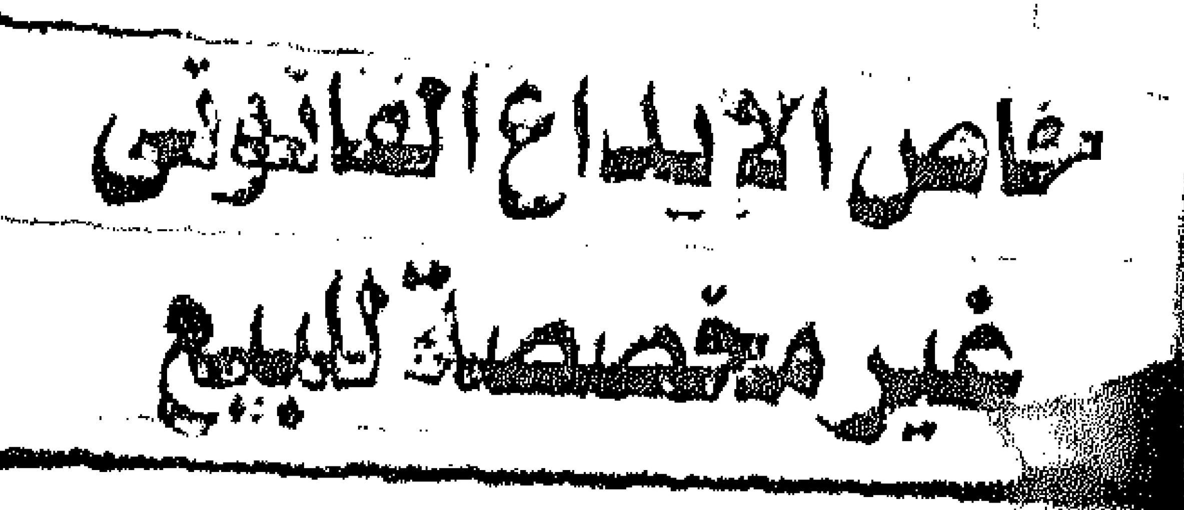


المسلمون و دولة الروم



أ.د. طارق منصور





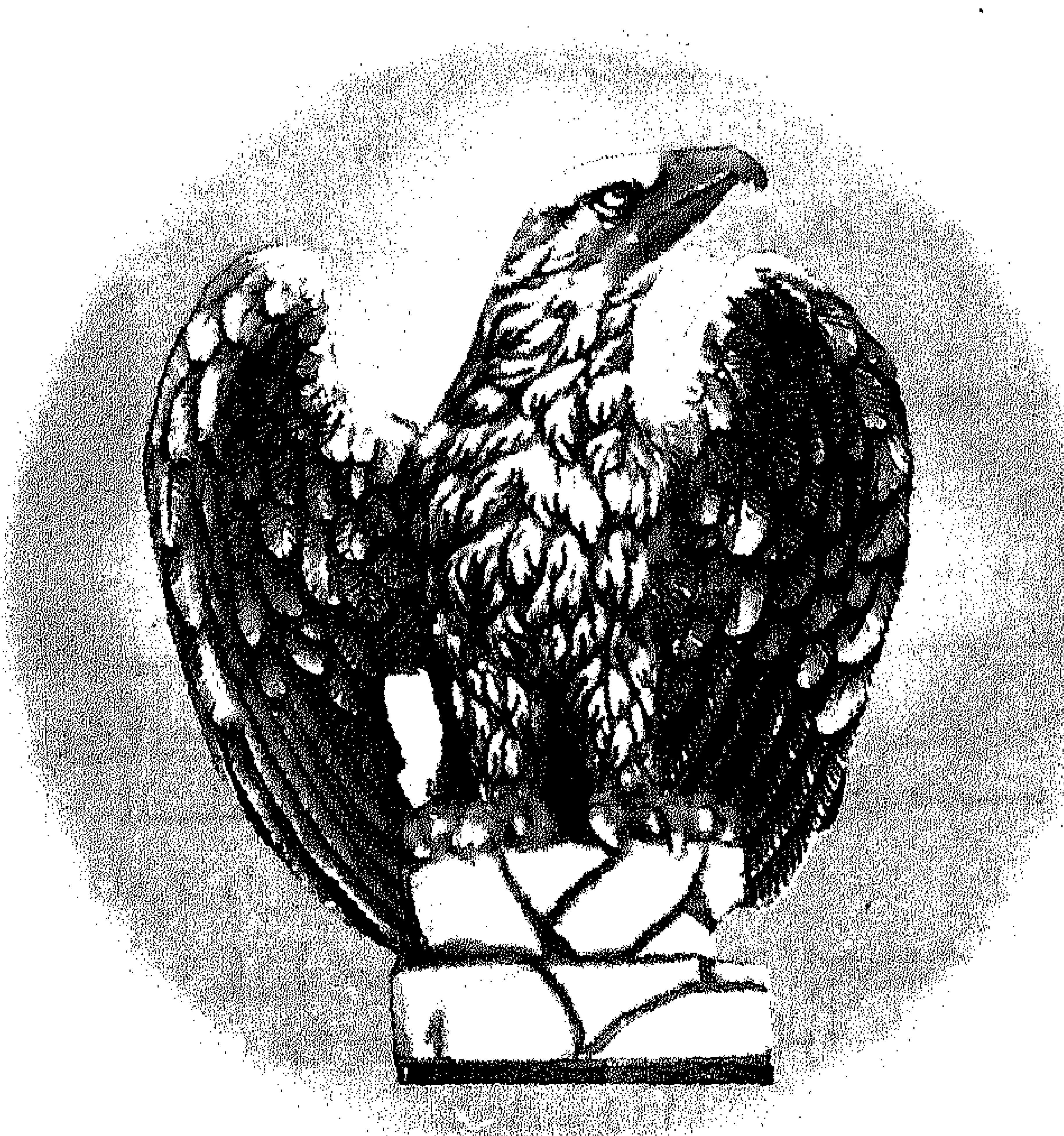
موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

التاريخ الوسيط

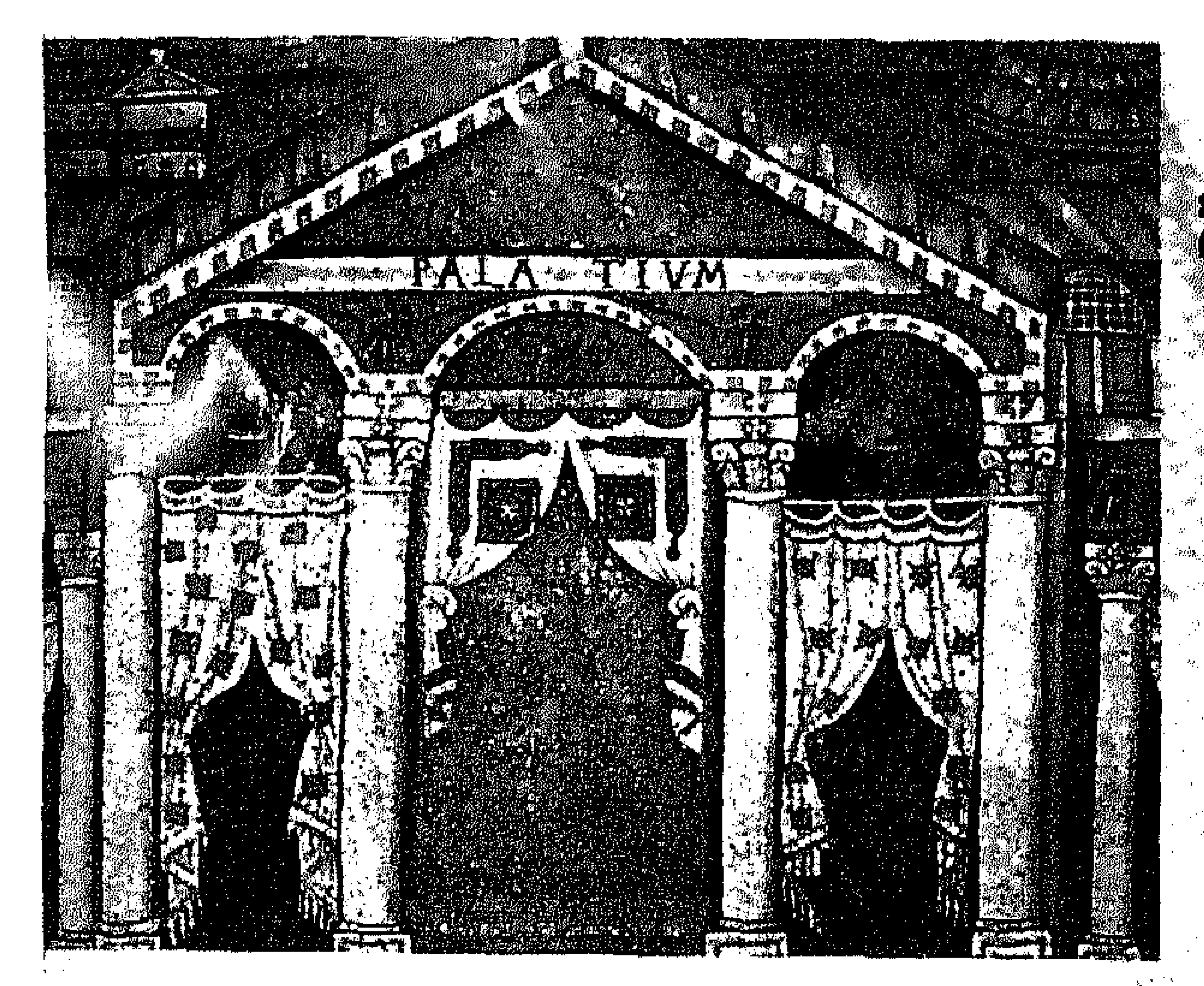


المسلمون ودولة الروم

تأليف
أ.د. طارق منصور
كلية الآداب - جامعة عين شمس



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٢٢٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



قصر الحكم البيزنطى فى روفينا - إيطاليا

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

الإشراف الفنى
محيى الدين فتحى الشلودى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
منى حامد عمارة

٩٣٧,٠٦ طارق منصور.
طادو المسلمون ودولة الروم/ تأليف طارق منصور. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٨م.
أ-د ١٠٤ ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الوسيط؛ ١٠).
ببليوجرافية: ص١٠٢ -١٠٤ .
تدمك: ٠ - ٢١٢٣ - ١٠ - ٩٧٧.
١ - الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام. ٢- دولة الروم قبل ظهور الإسلام. ٣- دولة الروم والدولة الإسلامية . أ- العنوان. ب- السلسلة.

دار الفكر العربى

رقم الإيداع: ٨٣٦٨ / ٢٠٠٦

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

اللجنة الاستشارية

لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

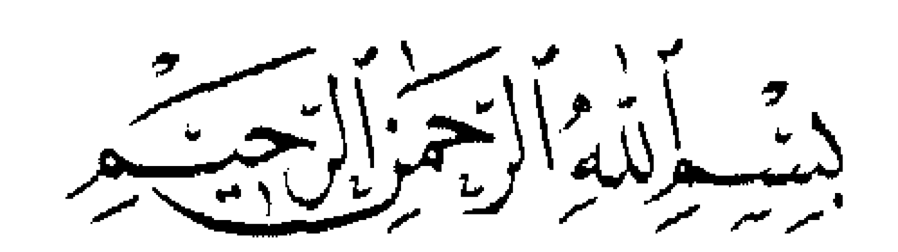
موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

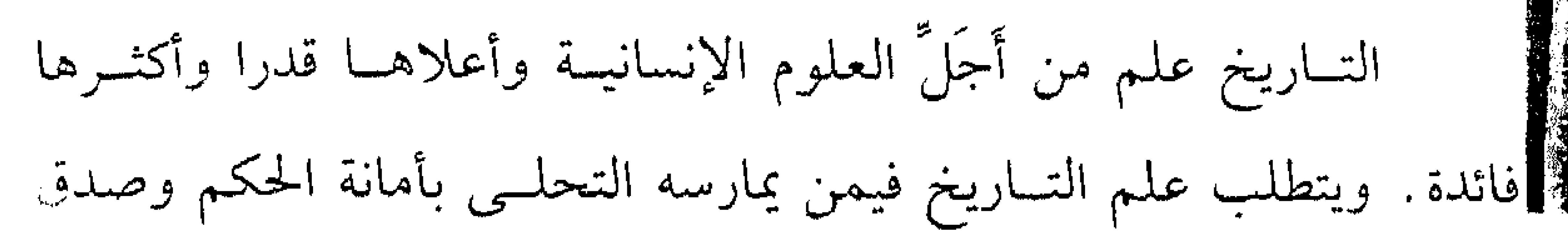
ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com



تقديم السلسلة



التـاريخ علم من أَجَلِّ العلوم الإنسانيـة وأعلاهـا قدرا وأكثـرها فائدة. ويتطلب علم التـاريخ فيمن يمارسه التحلـى بأمانة الحكم وصدق الكلمـة وبُعْـد النظر والقـدرة على الإفادة من دروس المـاضى لمواجهـة صعاب الحاضر والاستعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

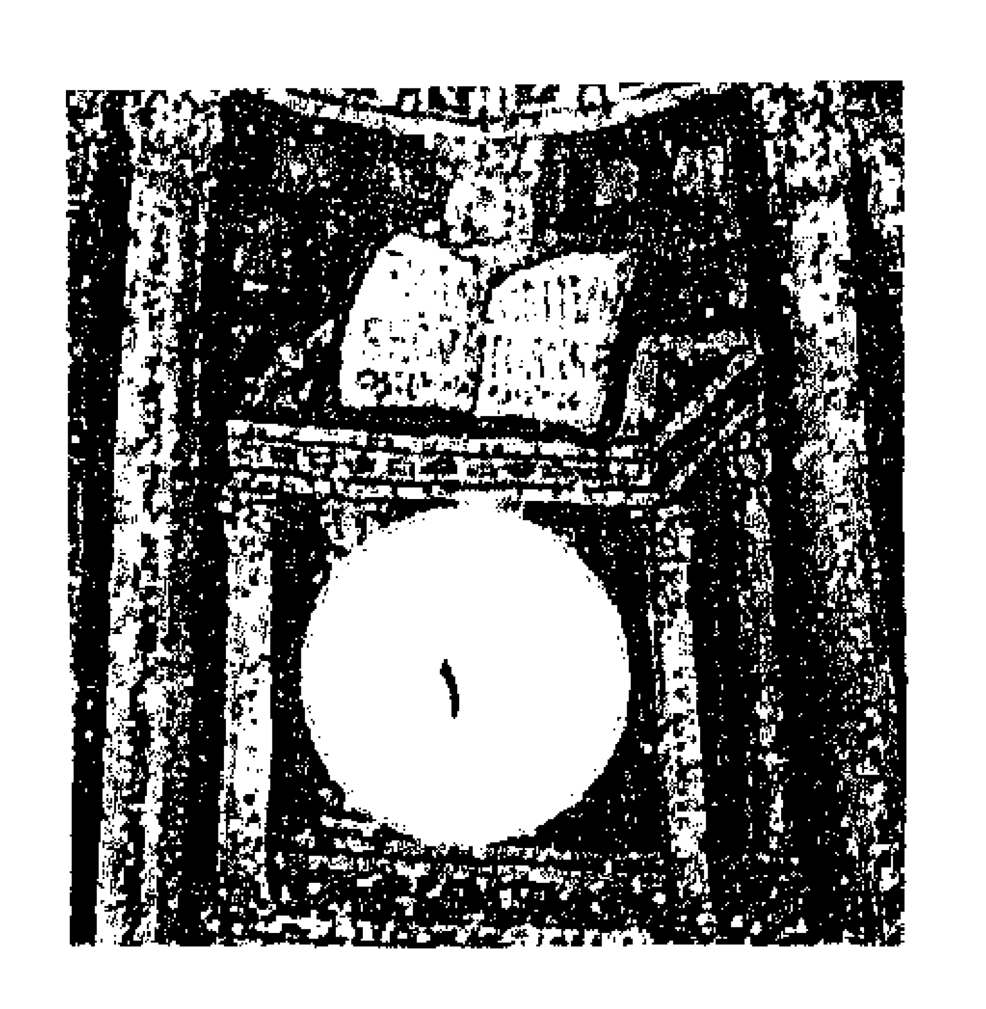
إن الروايات التاريخـية قد تـتشابه فى بعض أجـزائها على مدى الدهـور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسيـة وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبَّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

وقد أدرك هذه الحـقيقـة كثير من الـهيئات الثـقافيـة، فجعلوا للتـاريخ حقه من الاهتـمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسهـا الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجـال خدمة الثقافة العربيـة. والتى وضعت مشروعا للثقافـة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لـهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخـصصين داخل الجامعات العربية وخارجهـا. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميـمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التـاريخية ليسعدها أن تقـدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور



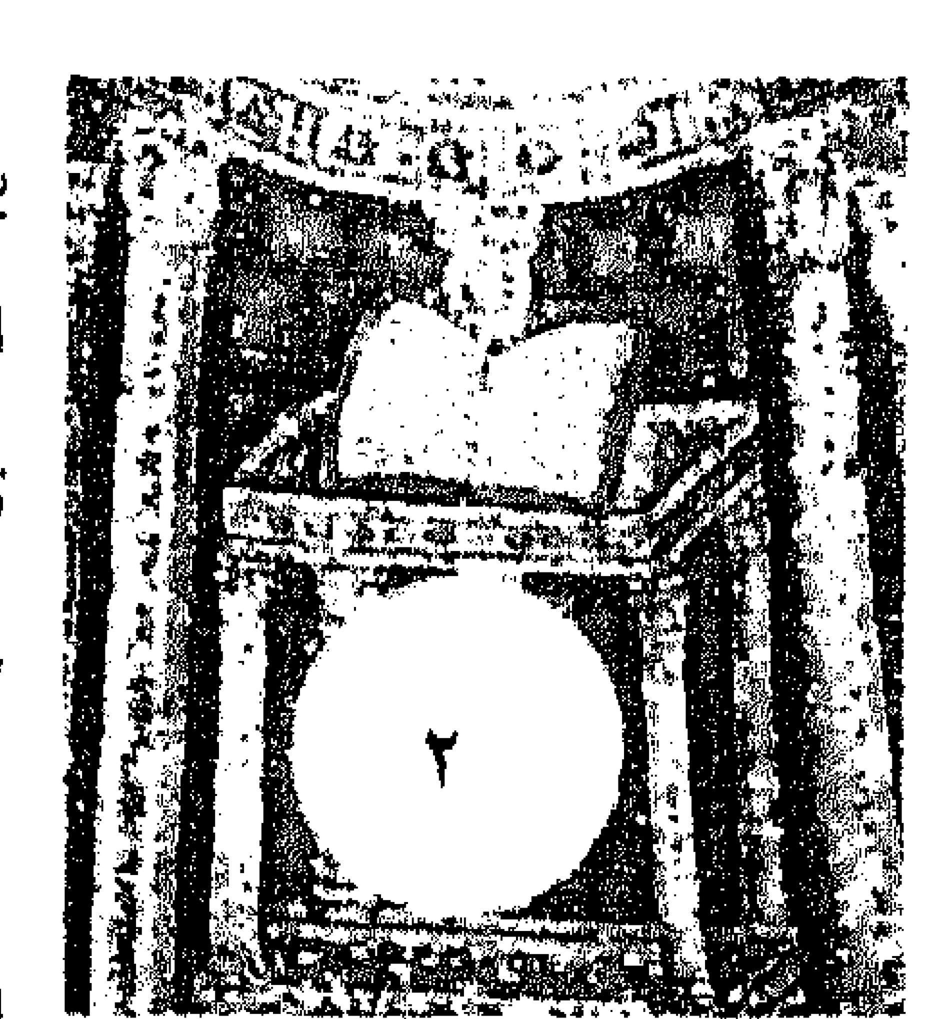


مقدمة

على مدى أحد عشر قرنا، هى عمر الإمبراطورية البيزنطية، أو دولة الروم كما أطلق عليها العرب، لم تر الأخيرة قوة مثل قوة المسلمين؛ الذين أثخنوا القسطنطينية بالجراح مرارا، حتى سال دم الروم فى نهاية المطاف على أيدى السلطان العثمانى محمد الفاتح عام ١٤٥٣م عندما دكت المدفعية التركية أسوارها، لتهوى الشخصية البيزنطية إلى الثرى، بعد أن عاشت فى عليين ما لا يقل عن ألف عام أو يزيد قليلا.

لقد دشّن الإمبراطور قسطنطين الأول عاصمته القسطنطينية فى عام ٣٣٠م لتكون "روما الجديدة"، وأحاطها بالأسوار والأبراج الشاهقة، التى كفلت لها الصمود فى وجه الغزاة، الذين جاءوها من كل حدب وصوب، وعادوا جميعا بخفى حنين؛ ولم تفتح أبوابها إلا على أيدى الصليبيين عام ١٢٠٤م عنوة. وبرغم الحصانة الطبيعية والصناعية لتلك المدينة، وشهرتها الواسعة فى عالم العصور الوسطى، إلا أن المسلمين وجهوا جيوشهم شطر العاصمة البيزنطية، القسطنطينية، فى محاولات ثلاث لإسقاط هذه العاصمة، زمن الخلافة الأموية، إلا أن هذه الحملات فشلت جميعا. ومنذ تلك اللحظة بدأ البيزنطيون يدركون أن المسلمين قد تخطوا مرحلة تهديد الأطراف البيزنطية، لاسيما بعد أن استولوا على بلاد الشام وفلسطين ومصر وإفريقية، وبدأوا فى السير نحو إسقاط القلب أو العاصمة البيزنطية ذاتها فى محاولة منهم لفتح بيزنطة كما سبق وفتحوا فارس من قبل، وقد قَوَّى هذا الشعور لدى البيزنطيين، إنشاء المسلمين لأساطيل إسلامية فى ترسانات بلاد الشام ومصر، استطاعوا بفضلها انتزاع السيادة البيزنطية على حوض البحر المتوسط، الأمر الذى دفع البيزنطيين إلى القيام بمحاولات يائسة لاسترداد السيادة الضائعة على البر والبحر، فقاموا بشن هجمات عدة على سواحل مصر وبلاد الشام، إلا أن معظمها باء بالفشل، ولم تفتّ فى عضد المسلمين، بل على العكس زادتهم حماسة وقوة لاستكمال حركة الفتح والجهاد ضد البيزنطيين.

وفى هذا العمل الفكرى المتواضع، الذى نقدمه للقارئ العربى والمثقف فى المقام الأول، وليس للأكاديميين المتخصصين فى تلك الحقبة التاريخية، نحاول رصد العلاقة بين القوتين العظمتين فى العصور الوسطى قوة الدولة الإسلامية وقوة دولة الروم، أو الإمبراطورية البيزنطية



بالمفهوم الحديث. وقد آثرنا عدم حشو صفحات العمل بالهوامش الأكاديمية التي قد تثقل على القارئ العام، وحاولنا قدر الإمكان تبسيط المعلومة التاريخية حتى يسهل على القارئ تصفح الكتاب فى سهولة ويسر، دون الإخلال بالمعنى أو الحقيقة التاريخية.

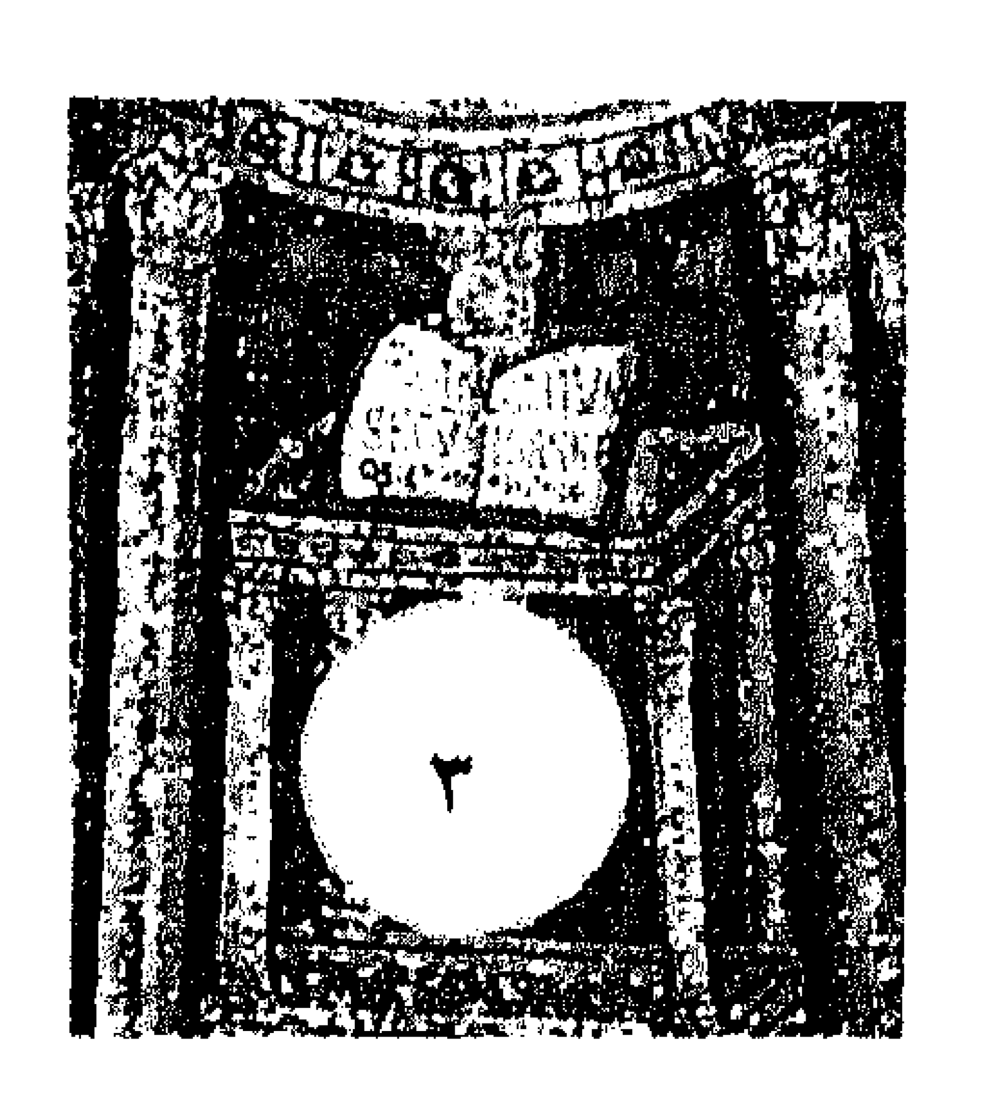
لقد حاول المؤلف بقدر الإمكان، وبأقل قدر من تفاصيل الأحداث، أن يقدم عرضا مبسطا لتاريخ العلاقات بين الروم والمسلمين، فى الفترة منذ ظهور الإسلام وحتى انهيار الخلافة العباسية فى العصر العباسى الثانى، الذى سادت فيه روح الاستقلال فى الولايات التابعة لبغداد، ثم شهدت فيه قيام خلافة أخرى شيعية بمصر وإفريقية، هى الخلافة الفاطمية؛ ويمكن القول أنه فى تلك الفترة لعب الحمدانيون الدور الرئيسى فى صد المد البيزنطى تجاه العالم الإسلامى، ولولاهم لتمكن الروم من استعادة بلاد الشام وفلسطين ثانية من أيدى المسلمين، فى فترة تولى حكم بيزنطة فيها أباطرة أكفاء عرف عنهم البطولة والشجاعة أمثال نقفور فوقاس، ويوحنا تزيمسكس، وباسيل الثانى.

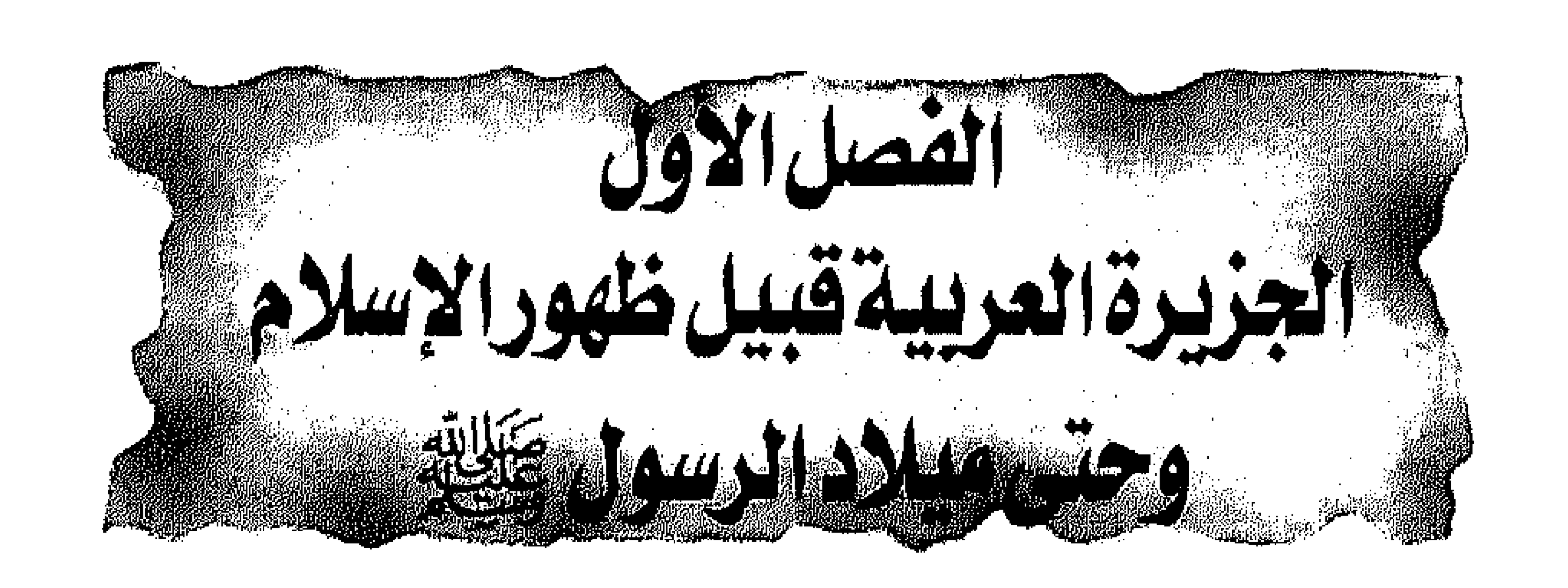
وفى الختام تبقى كلمة شكر إلى أستاذى المرحوم ا.د. رأفت عبد الحميد لثقته الغالية فى واحد من أبنائه الباحثين وقيامه بتكليفى بهذا العمل، فله منى خالص الشكر والتقدير. كما أتقدم بخالص الشكر إلى القائمين على أمر إصدار هذه الموسوعة التاريخية بمؤسسة دار الفكر العربى، لتبنيهم هذا العمل الشاق وإصرارهم على إخراجه إلى النور عسى أن يفيد منه القراء والمثقفين من أبناء أمتنا العربية، فلهم كل الشكر والتقدير.

المؤلف

د. طارق منصور

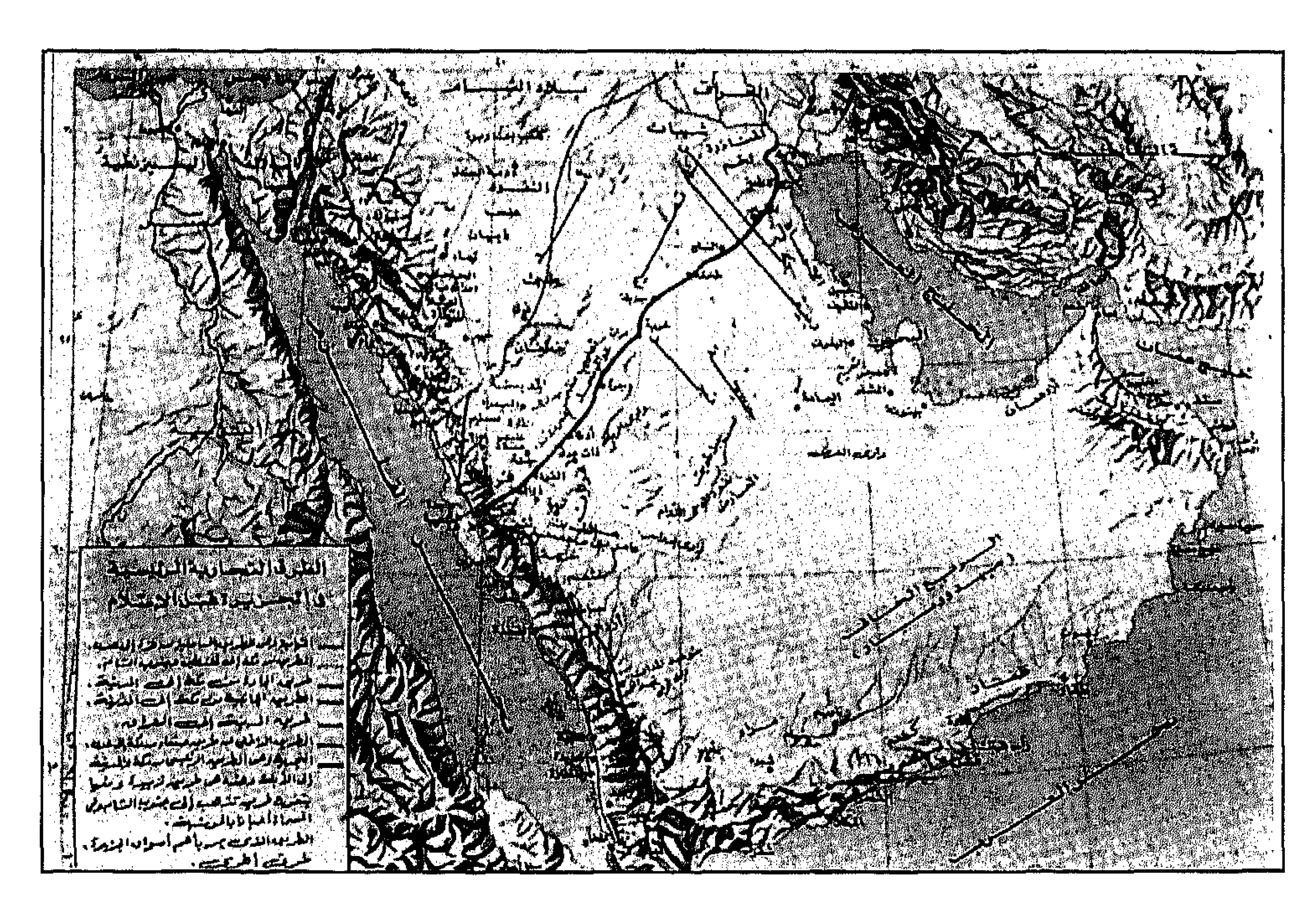
مدينة نصر - القاهرة



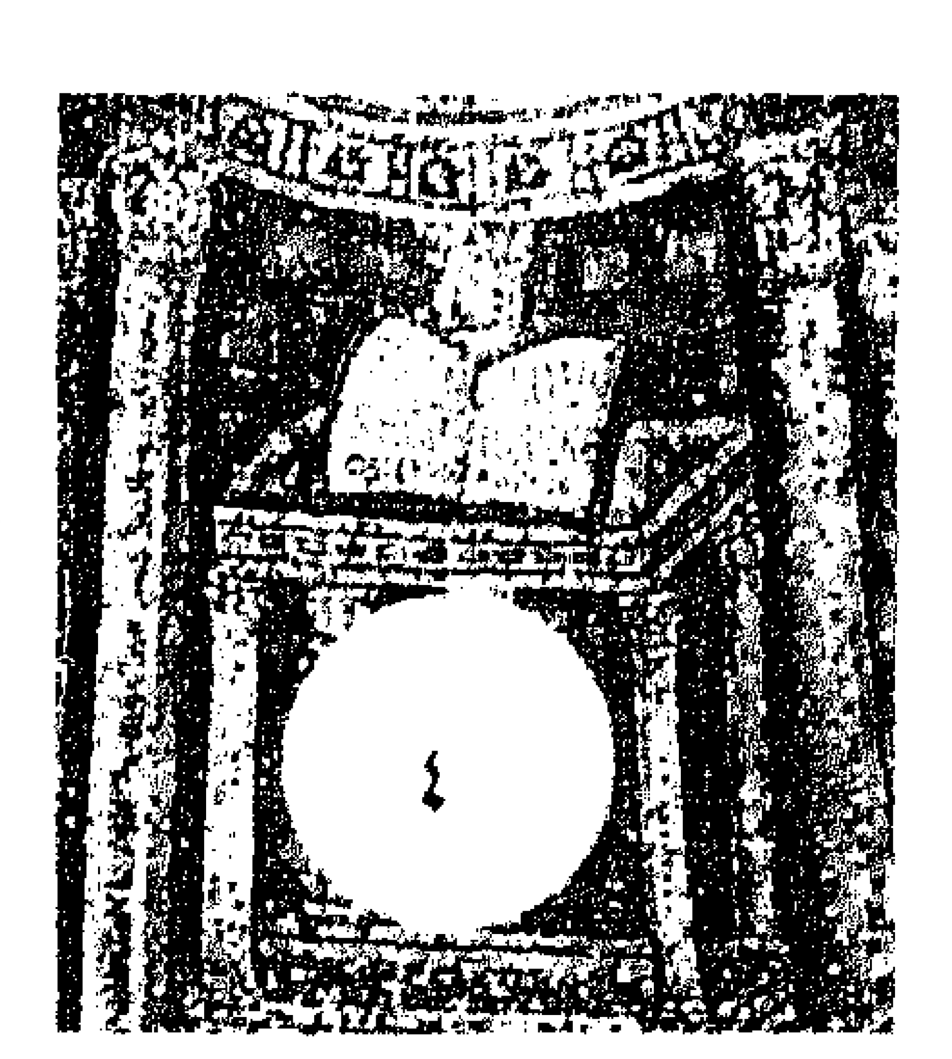


الفصل الأول
الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام وحتى ميلاد الرسول ﷺ

احتلت شبه الجزيرة العربية موقعا جغرافيا ممتازا جعلها مركزا للصراعات السياسية والدينية آنذاك، فهى تحيطها المياه من شرقها وغربها وجنوبها فضلا عن اتساع مساحتها، ولكن بالرغم من هذا فقد كانت شبه جزيرة صحراوية أو شبه صحراوية بمعنى أصح، فقد اعتمد سكانها على الأمطار التى نادرا ما تسقط هناك، لوقوعها فى المنطقة المدارية شديدة الحرارة صيفا معتدلة شتاء. كذلك لم تنشط الحياة الزراعية هناك بعكس وادى النيل أو بلاد ما بين النهرين. كان لكل هذا أثره على سكان الجزيرة العربية فعمل البعض منهم بالتجارة، حيث كانت تخرج كل عام رحلتا الشتاء والصيف، أما الغالبية منهم فقد عملت بالرعى. كذلك لم يكن للعرب نوع من الحكومات المعروفة الآن، ولم يكن لهم قضاة نظاميون يحتكمون إليهم، بل كان الجميع يدين بالسلطان إلى زعيم



طرق التجارة فى الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام



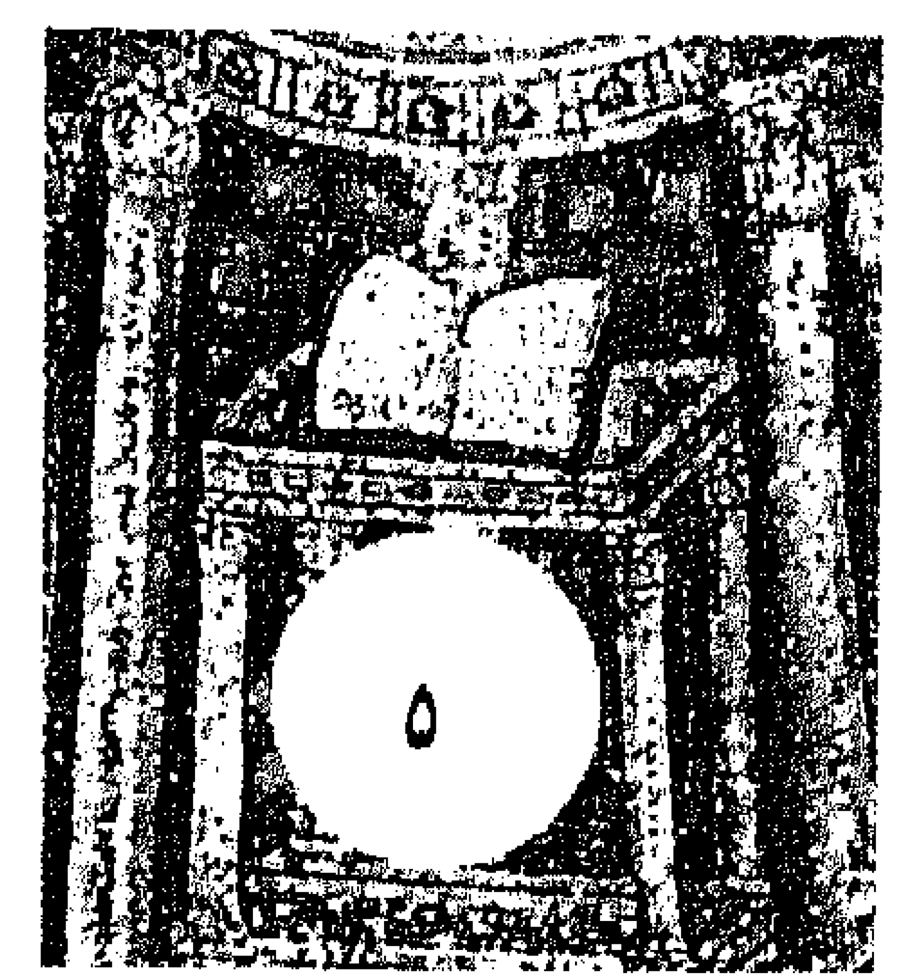
القبيلة؛ كذلك لم يكن لهم جيش يدرأ عنهم الأخطار الخارجية التى حاقت بهم مرارا، ولم يكلفوا أيضا بدفع الضرائب لعدم وجود حكومة تقبض على زمام السلطة التنفيذية وتضرب على أيدى المعتدى وتوقع عليه العقاب المتناسب مع جرمه وإنما كان واجبا على الشخص المعتدى عليه أن يثأر لنفسه بنفسه وعلى قبيلته أن تشد أزره.

وقد يسقط هذا الثأر طالما دفع المعتدى الجزية أو تعويضا مناسبا تقدره القبيلة المعتدى عليها. وكانت كل قبيلة تعتبر وحدة سياسية قائمة بذاتها لها كيانها المستقل؛ وكثيرا ما كانت تقوم المنازعات بين إحدى القبائل والأخرى أو تغير واحدة منها على الأخرى، فكان يخرج أفراد القبيلة الذكور حاملين أسلحتهم ليكونوا جيشا على قدر قبيلتهم، يهاجمون به القبيلة الأخرى؛ وبعد عودتهم ينصرف كل فرد إلى عمله تاركا سلاحه قيد غارة أخرى. هكذا كانت الجيوش قائمة على العصبية القبلية آنذاك، وكانت معظم إغاراتهم إما بهدف الثأر أو النزاع على الكلأ والمراعى، التى كانت سببا فى كثير من إغاراتهم على أراضى الروم. وقد صنعت القبائل من انتصاراتها ملاحم شعرية تغنى بها الشعراء آنذاك فى الجاهلية، ومن أشهر تلك المعارك التى قامت بين العرب آنذاك يوم داحس والغبراء، وحرب البسوس، وأيام الفجار. وكان الأحرار من العرب يحاربون تحت إمرة سيدهم فى وقت الحرب، أما فى وقت السلم فقد كانت الأسرة هى الشىء الوحيد المنظم.

وقد أقامت القوى العظمى آنذاك ممالك عديدة لها فى المنطقة كان أشهرها إمارتى الحيرة والغساسنة، الأولى أقامها الفرس، أما الثانية فأقامها الروم.

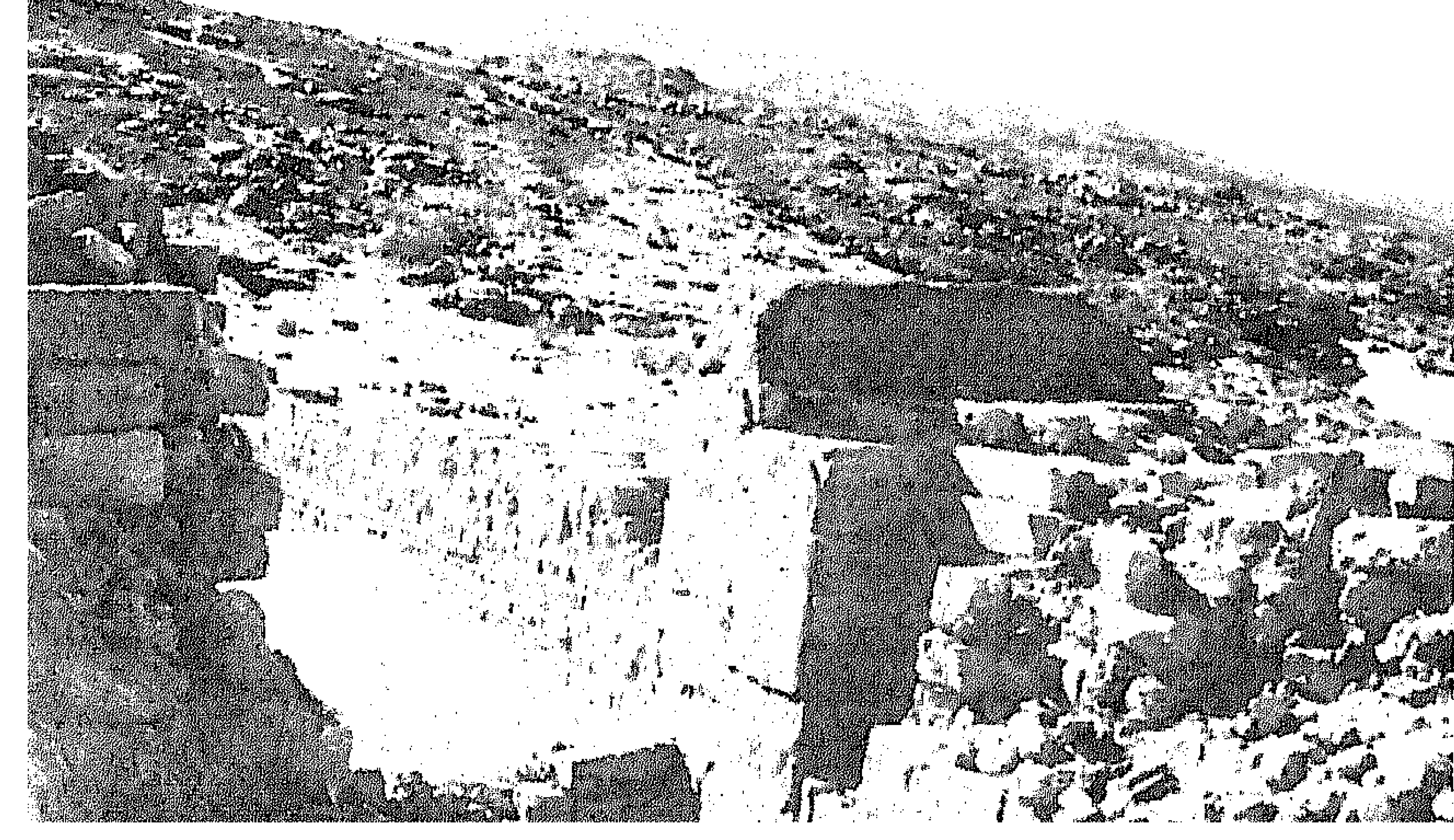
إمارة غسان:

كان من نتيجة الصراع الذى نشب بين الفرس والبيزنطيين وكذلك إغارات العرب على أملاك الدولة البيزنطية، أن أقامت الدولة البيزنطية إمارة تابعة لها هى إمارة غسان، والتى يعود تاريخها إلى الفترة التى خرب القادة الرومان فيها مدينة تدمر فى عهد الإمبراطور أورليانوس Au-relianus سنة ٢٠٢م وفوض الرومان أمورهم فى هذه المناطق إلى الأمراء التنوخيين ثم إلى السليحيين الذين أزالت قبيلة غسان ملكهم عام ٢٩٩م. ولما كانت بلاد الشام تؤلف منطقة الحدود الجنوبية الشرقية فى الإمبراطورية البيزنطية، كان على أباطرة الروم أن يهتموا بهذه المنطقة ويعطوها من عنايتهم النصيب الأوفر؛ ولذلك أغدقوا الأموال على بعض القبائل العربية حتى استطاعوا اتخاذهم صنائع لهم على تخوم البادية، يستعينون بهم فى صد غارات البدو الذين كانوا يغزون المناطق المتحضرة وينهبونها.

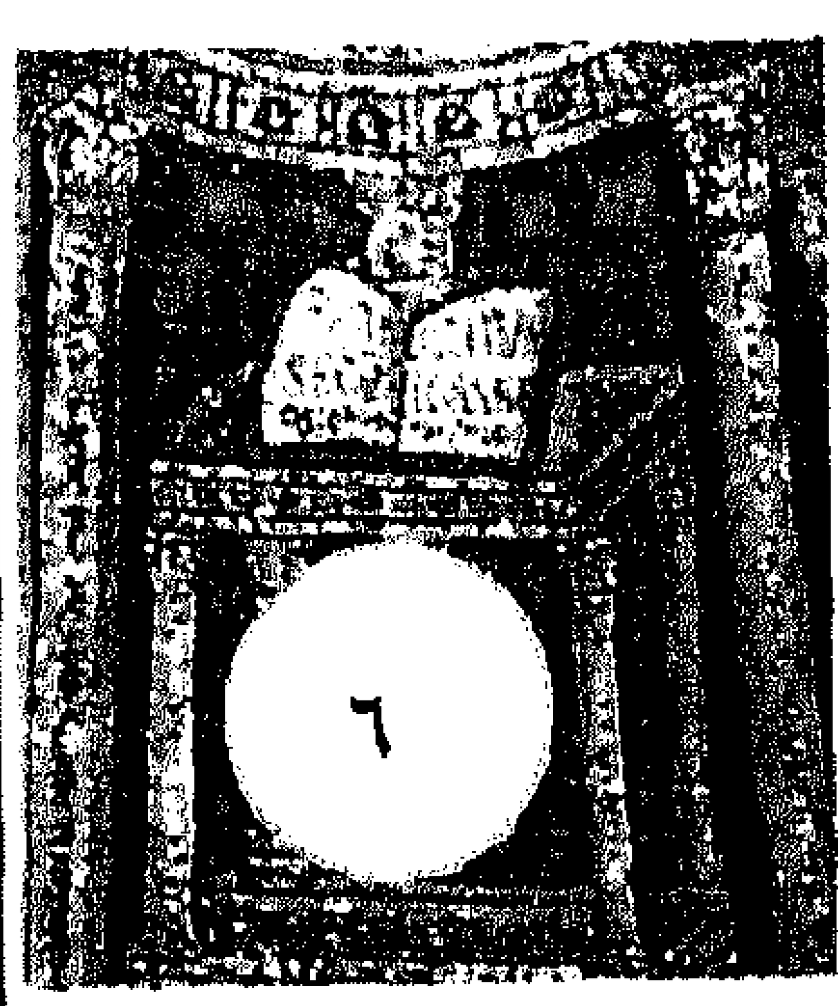


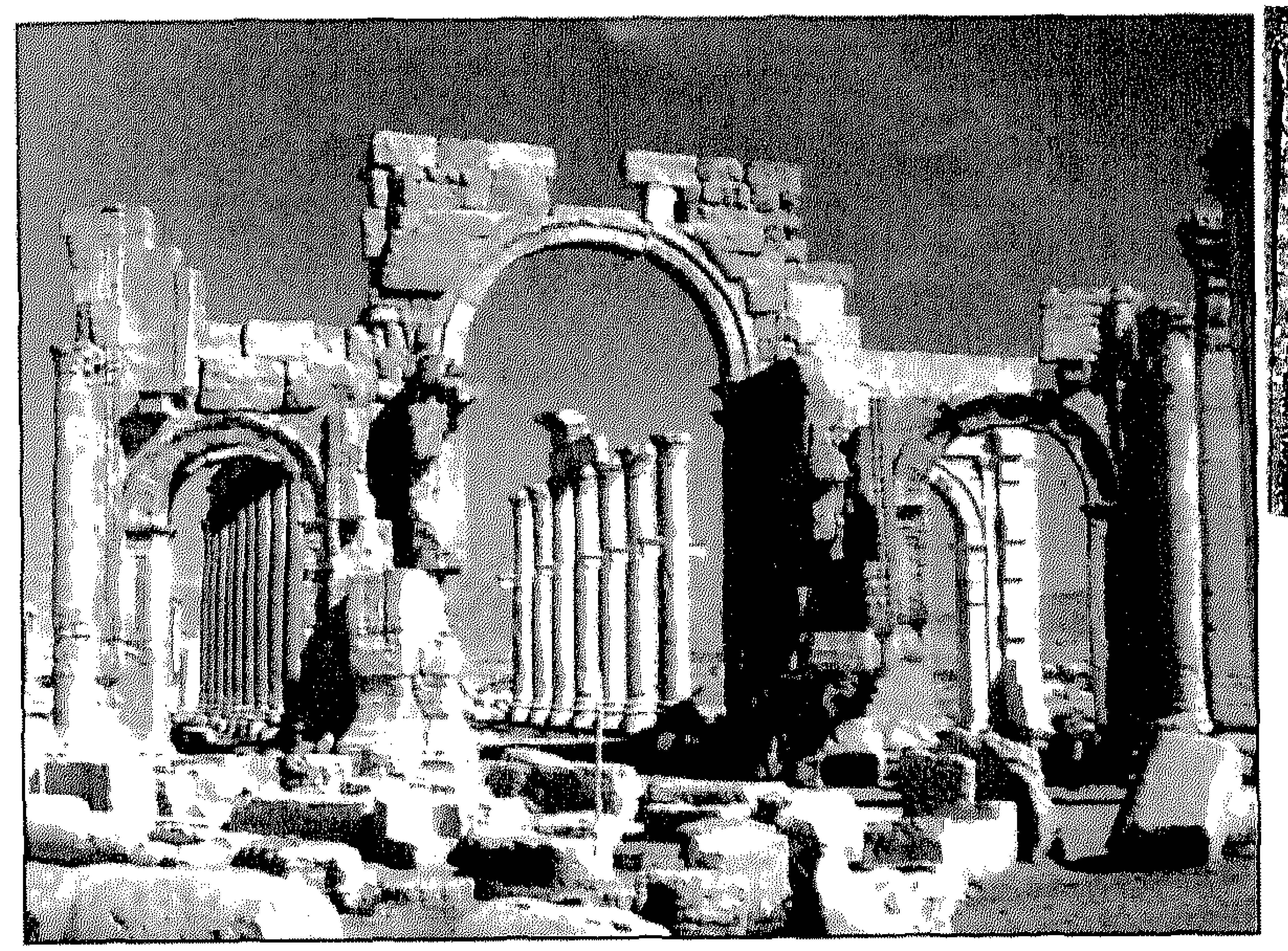
وكان قبيـلة قضاعة أول من قدم من العرب فى صـحبة ملكهم مالك بن فـهيم بن تيم اللّه، وقيل أن الرومـان قد ملكوا القضاعـيين على من ببلاد الشام من العرب بعد أن دخلوا فى النـصرانية وأصبحوا صنائعـهم، ولم يـلبث أن انتـقل الملك إلى بنى سلـيح بن حلوان بن عمـران بن الحاف بن قضـاعة. وفى نفس الآونة تحركت قـبائل الأزد اليمنية على أثر انهيار سد مأرب إلى شـمال الجزيرة العربية فسار بطن منها إلى الشام وأقاموا على ماء هناك يقال له غـسان، ولما نزلت غسان بجوار سليم فرضت عليهم الإتاوة وظل الغسـاسنة يؤدونها حـتى قامت الحرب بـينهم وانتصرت غـسان فى النهـاية وانفردت بالسلطة دونها، ويقول الأصفهانى، "إن أول من ملك من غسان، جفنة بن عمرو مزيتيا ابن عامر ماء السماء وكـان الذى ملكه على عرب الشام ملكا يقال له نسطورس فلمـا ملك جفنة قتل ملوك قضاعة من سليح من الذين كـانوا يدعون الفجاعمة ودانت له قـضاعة ومن بالشام من الروم وبنى جلق والقرية وعدة مصانع".

وكان الحارث بن جبلة أول أمراء بنى جفنة وأعظمهم شأنا بلا منازع وقد اختاره الإمبراطور جستنيان حوالى عام ٥٢٩م ليكون بجانبه ضد المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة. وقد رفع جستنيان ٥٢٧-٥٦٥م الحارث إلى مرتبة الملوك وبسط سـيادته على كثير من قبائل العـرب بالشام حتى يقيم خصما قويا فى وجه المنذر ملك الحيرة. ويستبعد أن يكون الحارث أو أحد خلفائه قد حمل رسميا لـقب مـلك لأن هـذا اللقب كـان خـاصـا بالإمبـراطور البيـزنطى وحده، كـما أن الوثائق التى تمثل لغـة الحكومة الرسـميـة أطلقت على الحـارث وخلفـائه لقب بـطـريـق Patricus أو رئيس قبيلة Phalarch.



بقايا سد مأرب فى اليمن

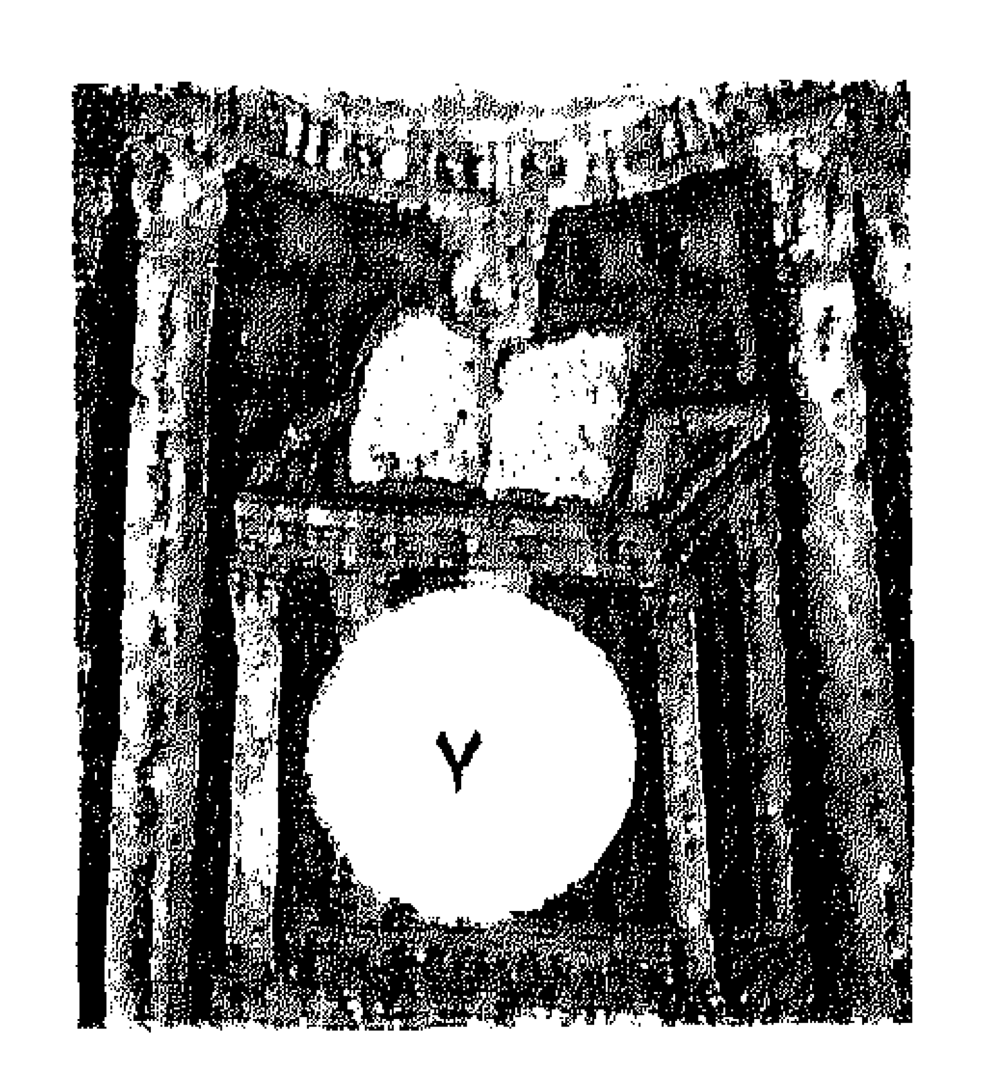


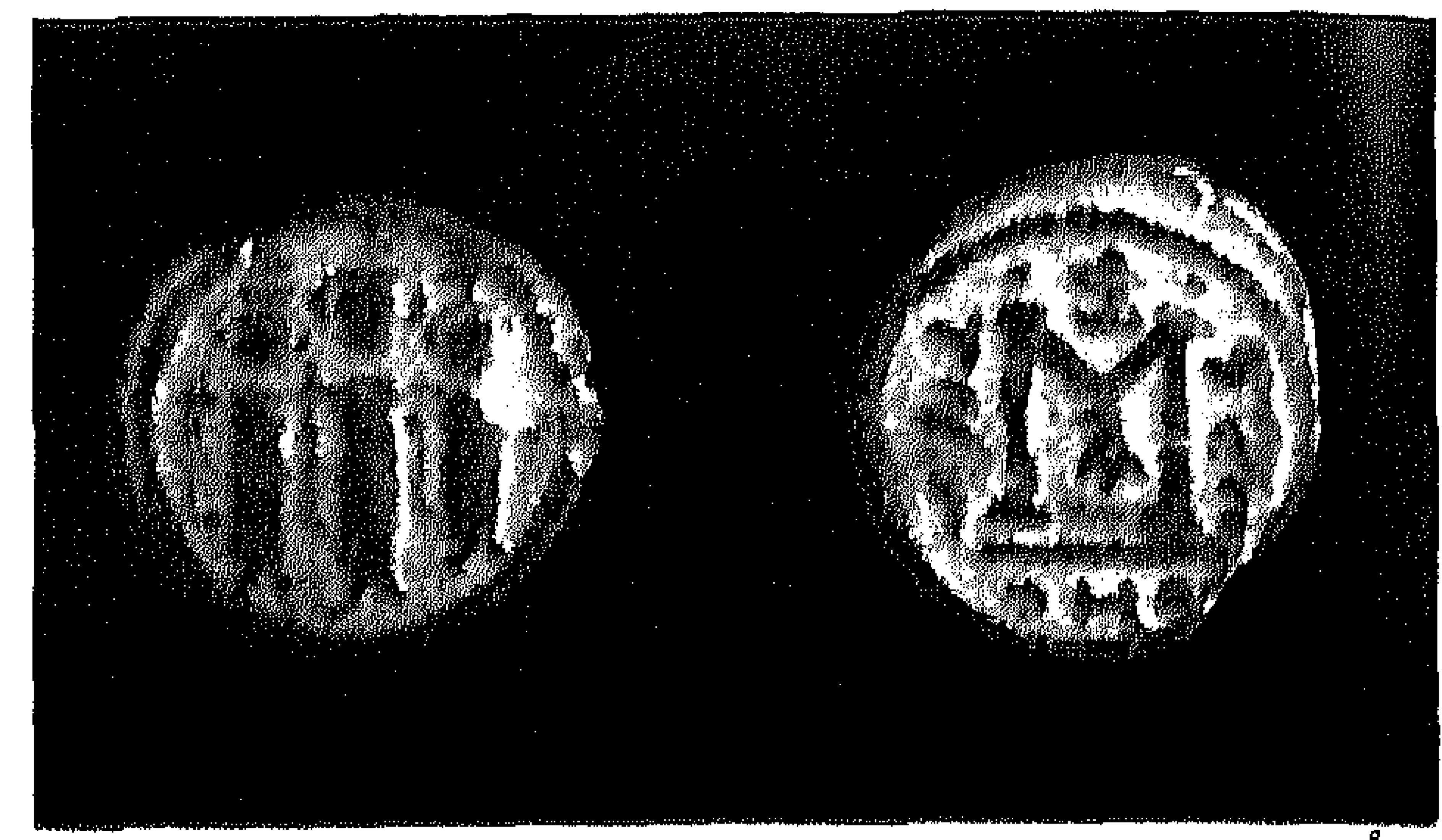


مدينة تدمر- قوس الشارع الرئيسى

وحالف الغساسنة الروم محالفة الند للند ضد الفرس والعرب المغيرين على أطراف مملكتهم واشترطوا أن يمدوهم بثلاثين أو أربعين ألفا إذا حاربهم العرب، وأن يمدوا الروم بعشرين ألفا من المقاتلين إذا تحاربوا مع الفرس، ولقد شقت إمارة غسان عصا الطاعة مرات عديدة على الروم، حسب

مدينة الرصاغة فى بادية سوريا





عُملة هرقل كانت تداول فى الشام فى بداية ظهور الإسلام

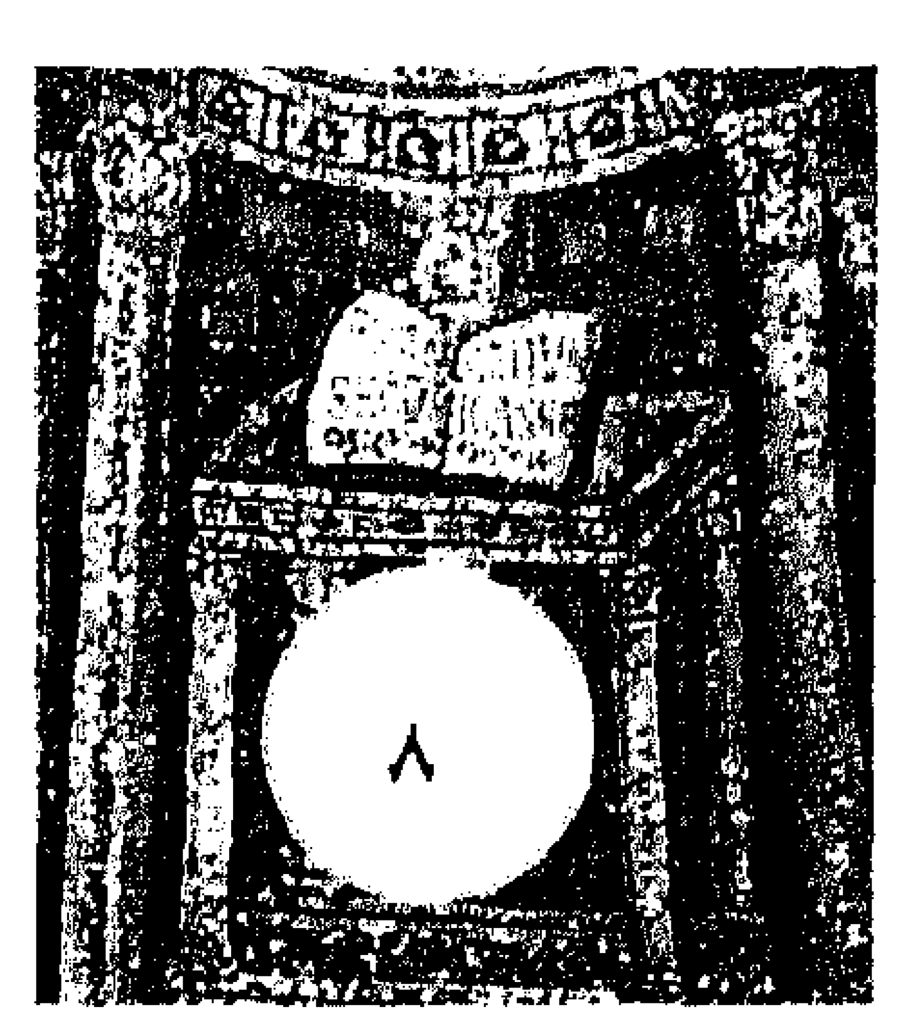
رواية يوحنا الإفسوسى، ولكن الظروف العامة آنذاك كانت تحتم عودتها ثانية للسير فى فلك أباطرة الروم. وقد وقف الغساسنة بجانب الروم فى عهد الإمبراطور هرقل ٦١٠-٦٤١م فى حروبهم ضد الدولة الإسلامية إلى أن فتحت أراضيهم وأسلم معظمهم. وهكذا انتهت إمارة غسان التى كانت خير حليف للدولة البيزنطية فى بلاد الشام.

بقايا سور الطائف
وأحد حصونه

ونعود للحديث عن العرب وأحوالهم قبيل ظهور الإسلام ثانية بعد أن استعرضنا إمارة غسان، وهى الإمارة العربية التى حالفت الروم سنوات طوال. كان



الدرهم الفارسى مرسوما عليه الملك
الفارسى خسرو الثانى

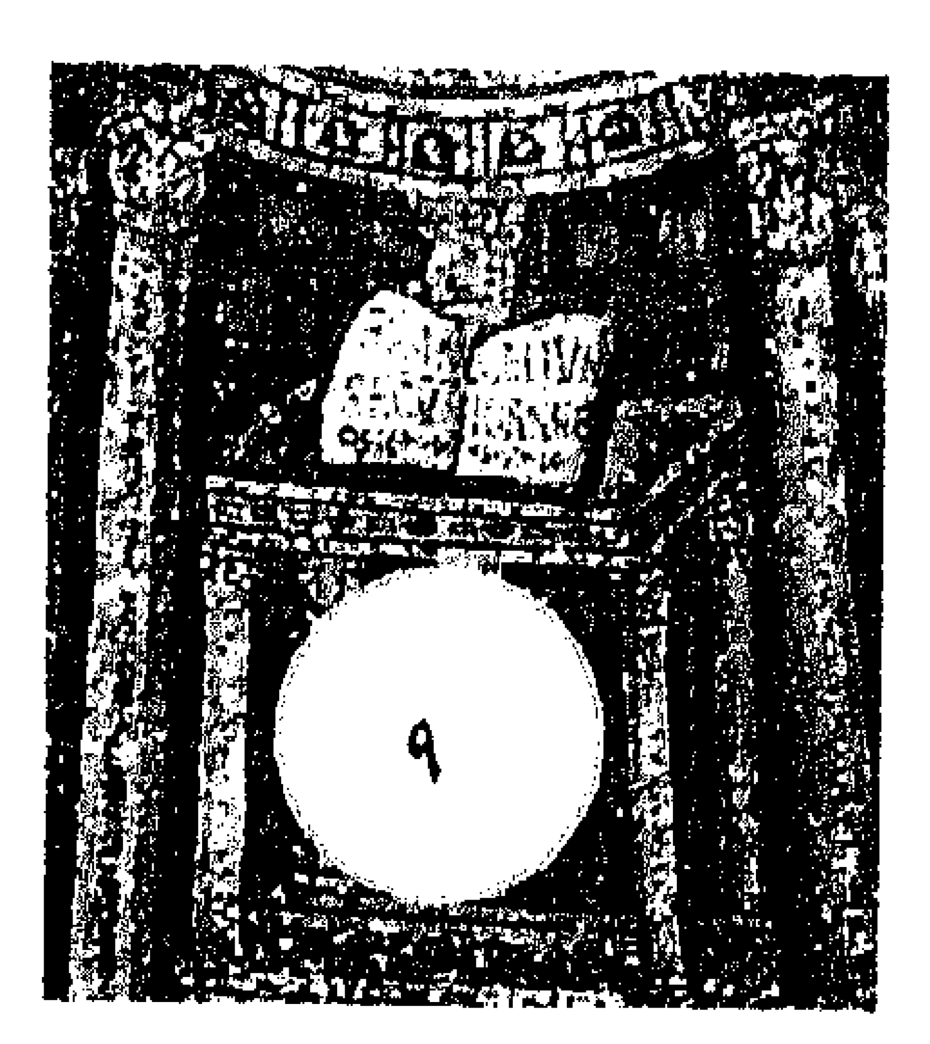


سكان الجزيرة العربية يعملون بالدرجة الأولى بالتجارة، التى مثلت عصب الحياة الاقتصادية هناك. فقد كانت الجزيرة العربية فقيرة المراعى والأرض الزراعية مما جعل سكانها يحترفون التجارة، وكانت قريش من أول القبائل العربية وأهمها، علاوة على ما لها من امتيازات فى مكة ؛ وكانت القبائل هناك تقوم برحلتين تجاريتين فى العام هما رحلة الصيف ورحلة الشتاء. وقد عقدوا المعاهدات مع البيزنطيين والغساسنة لتنظيم التجارة معهم، وكانوا يتعاملون بالدرهم الفارسى والدينار البيزنطى. وليس عسيرا علينا أن نعرف فضل التجارة أيا كان نوعها فى نقل الحضارة من منطقة لأخرى ومساهمتها فى تطور الشعوب، مما جعل العرب فى شبه الجزيرة العربية يملكون قدرا من الحضارة الإنسانية.

لقد كان العرب ينظرون إلى دولة الروم على أنها واحدة من القوى العظمى التى لا يمكن قهرها، لما كان لها من حضارة عريقة وانتصارات عسكرية سجلها التاريخ، وكنيسة منفردة اجتمع حولها الشرق، لقد امتدت الحضارة البيزنطية إلى المناطق المتاخمة للدولة البيزنطية وخاصة بلاد الشام ومصر وشمال إفريقية وهى ولايات تابعة لها. وكانت القسطنطينية هى العاصمة المركزية لها والتى كانت بالنسبة للعرب قلعة حصينة لا يجرؤ أحد ممن يقطنون جوارها أن يفكر فى اقتحام هذه العاصمة والنيل منها، وخاصة أن الأباطرة البيزنطيين أحسنوا اختيار موقعها، وتفوقوا فى تحصينها برا وبحرا.

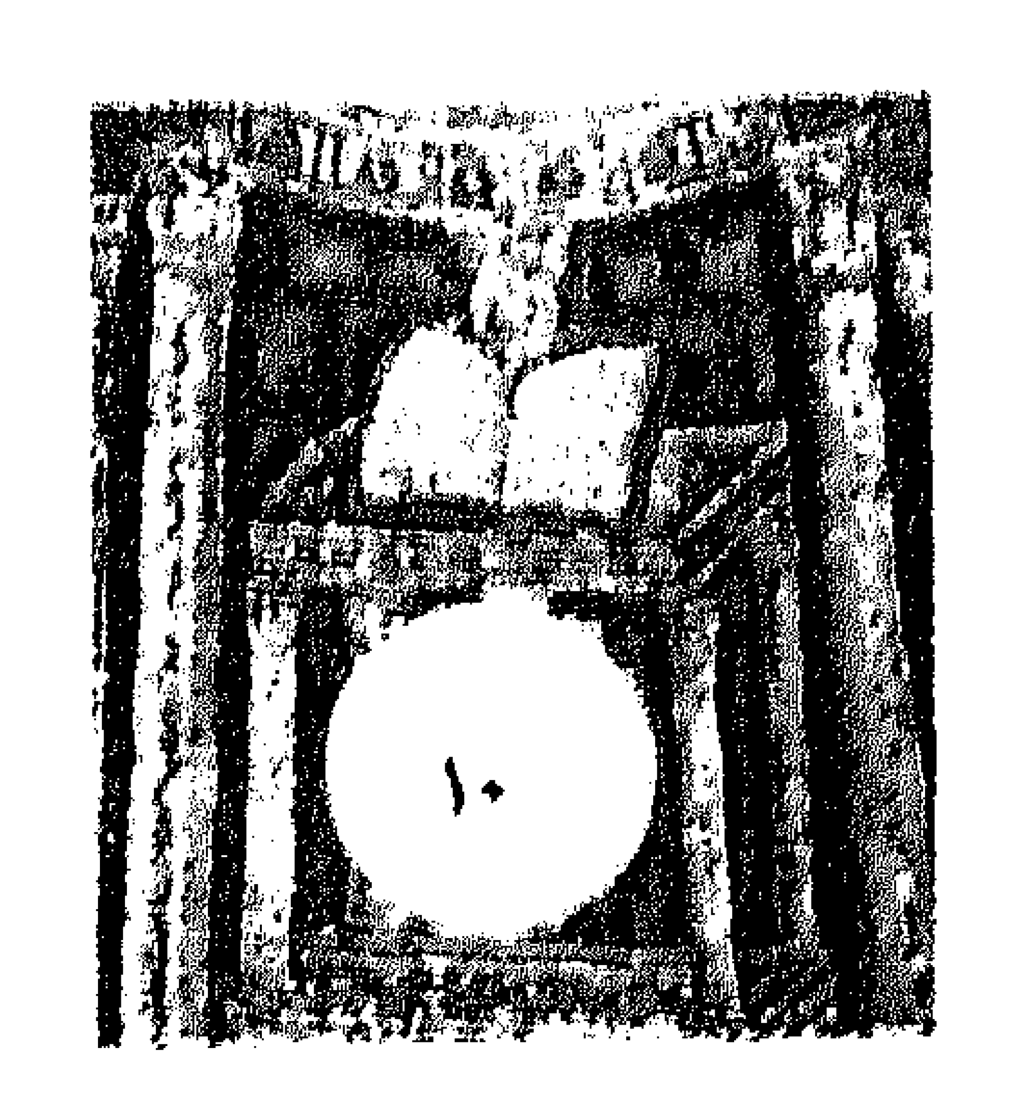
وكان البيزنطيون ينظرون إلى العرب نظرة دنيا، فقد رأوا فيهم مجرد بدو يغيرون على أراضيهم؛ لذا يجب إيقافهم عند حدهم. وكان انشغالهم الدائم أيضا بالصراع مع الفرس سببا فى عدم غض الطرف عن العرب القاطنين فى الجزيرة العربية، وقد بدا هذا فى اهتمامهم الملحوظ بالتجارة المارة عبر أراضى العرب، والتى انعكست بدورها فى صراعهم مع الفرس فى سبيل السيطرة عليها.

أما عن الحياة الدينية فى شبه الجزيرة العربية، فقد انتقلت عبادة الأصنام إليها عن طريق التجارة، وكانت الأصنام هى عبادة الدهماء العرب ومعظم سادتها، وهى ذات أشكال عديدة فمنها عبادة اللات، والعزى، وهبل، وكلها أصنام كان لهم فيها اعتقادات كبيرة ويتبركون بها. كذلك انتشرت اليهودية هناك قبل مجىء الإسلام ولاسيما فى اليمن كما انتشرت فى القرى وخيبر وتيماء



ويثرب حيث أقامت هناك العديد من القبائل اليهودية. ويذكر أحد المؤرخين أن هؤلاء اليهود كانوا من أهالى الجزيرة العربية ثم اعتنقوا اليهودية وكانوا شديدى التمسك بدينهم بينما يرى فريق آخر من المؤرخين أن اليهود العرب نزحوا إلى فلسطين حيث نشروا تعاليم التوراة أينما حلوا.

وانتشرت أيضا المسيحية هناك فى قبائل تغلب وغسان وقضاعة شمال الجزيرة العربية وفى بلاد اليمن، وكانت على مذهبى النسطورية، واليعقوبية، وكانت أهم مراكز النصرانية فى بلاد العرب نجران حيث يعمل أهلها بالزراعة والصناعات الحريرية والتجارة. هذا علاوة على انتشار بعض الديانات والمعتقدات الأخرى كالمجوسية والصابئة وعبادة الأشجار والحيوان وكلها عبادات فارسية الأصل.

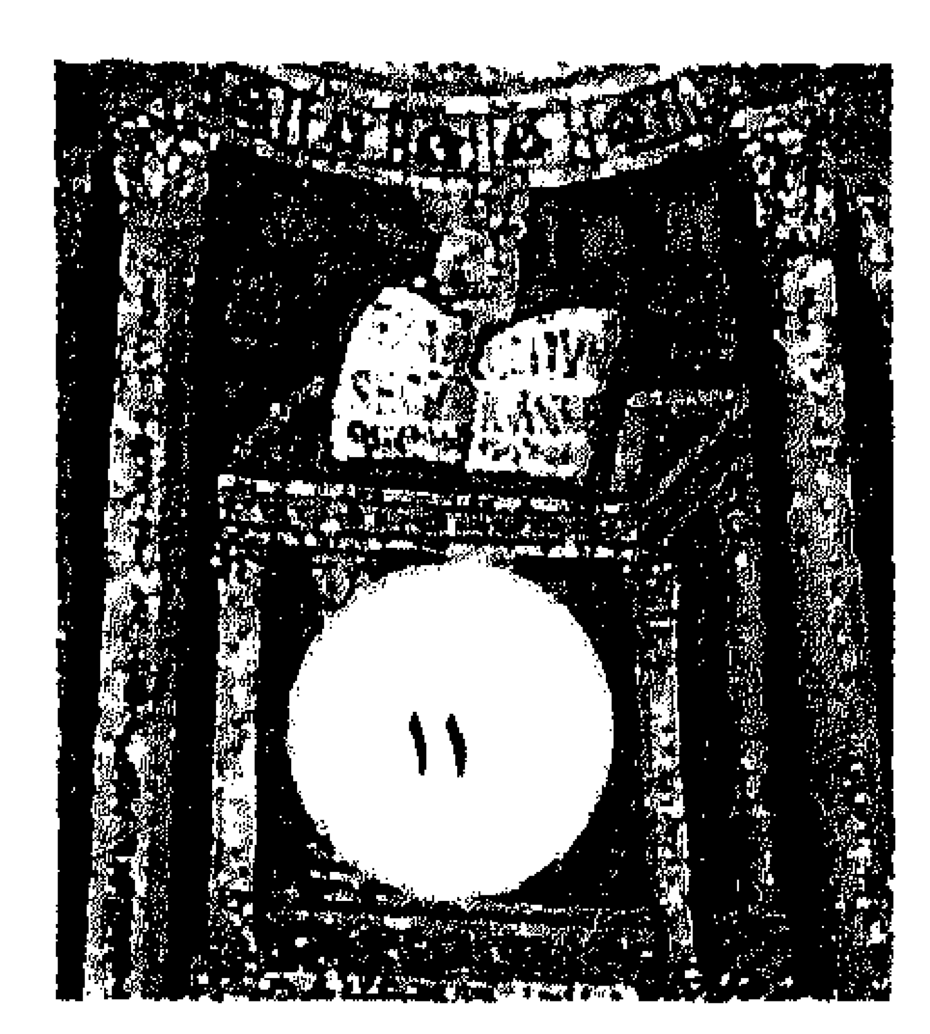


الفصل الثانى
دولة الروم قبيل ظهور الإسلام

كانت الإمبـراطورية البيزنطية بالنسـبة للعرب أيا كانت أجناسهـم ومنذ قديم الأزل الحصن المنيع الذى لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه؛ لذا كان الجميع ينظرون إليها برهبة خاصة، وأمل فى الدخول إلى أراضيها فاتحين منتصرين.

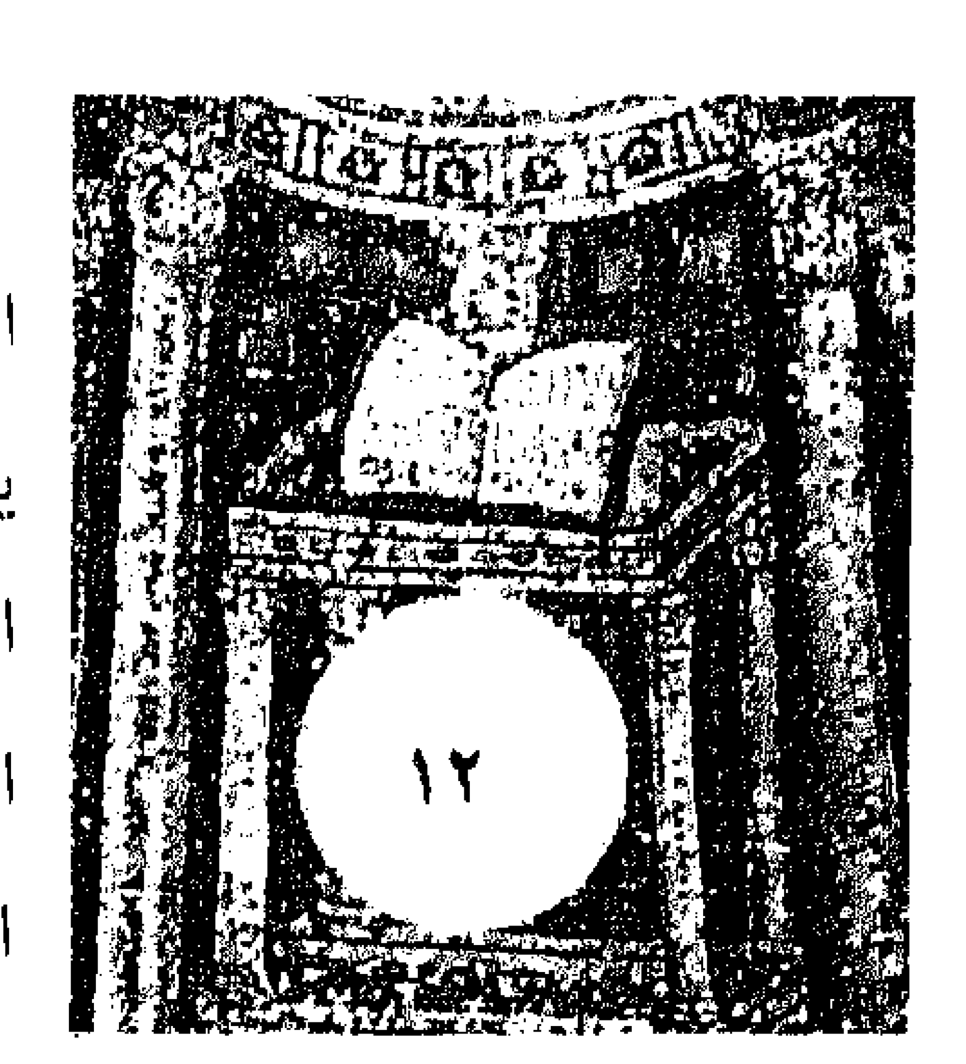
لقد كانت الإمبراطورية البيزنطية منهكة القوى وئيدة الحركة خاوية الوفاض قرابة نهاية القرن السادس الميـلادى وصاحب هذا اعتلاء هرقل عـرشها الإمبـراطورى سنة ٦١٠م ويرجع هذا لعدة أسبـاب منها القريب ومـنها البعـيد. أما عن السـبب القريب فيـتمثل فى الـثورة من أجل الحكم الإمبراطـورى وما صاحبه من فـوضى، فقد كان يحـلو للبعض أن يخطط ويدبر ويتحين الـفرصة ليقوم بانقلاب على الحكم يسانده فيه بعض أعوانه ورفاقـه ثم سرعان ما يستأثر بالسلطة لنفسه بعد ذلك ويعمل من أجل مصالحه الشخصية، وخير مثال لنا فوقاس Phocas ٦٠٢-٦١٠م الذى نادى

كنيسة آيا صوفيا بالقسطنطينية (مسجد السلطان محمد الفاتح الآن باستنبول)



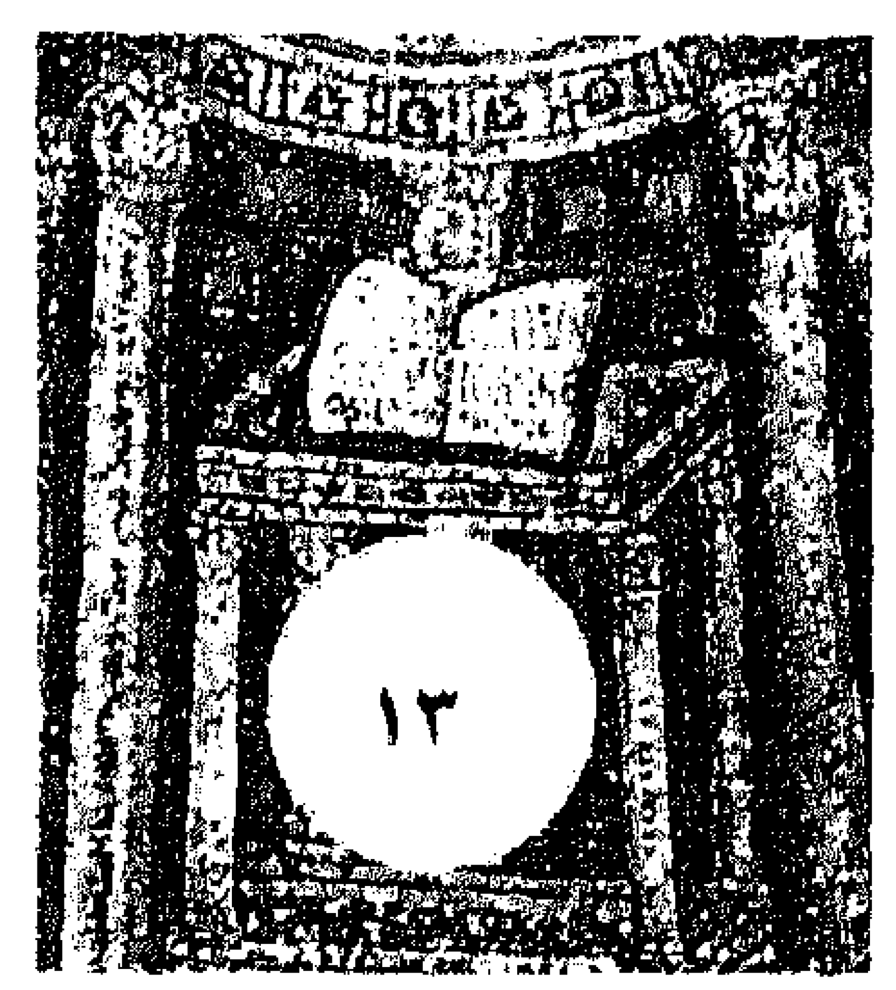
به الجيش إمبراطورا بعد أن استاء الجنود من بعض التغييرات التى أدخلها الإمبراطور موريس Maurice ٥٨٢-٦٠٢م على النظام المالى فى الجيش فما كان منهم إلا أن هبوا ثائرين على الإمبراطور موريس وانتهى الأمر باغتياله وتلا هذا تتويج ضابط شاب من بينهم يدعى فوقاس Phocas الذى استبد بالإمبراطورية وراعى مصالحه الشخصية قبل مصالح شعبه وزاد الطين بلة الكوارث التى حلت بالإمبراطورية فى عهده، والتى كان من المفروض أن يتخلص منها ويجد مخرجا للإمبراطورية منها. لقد بلغ الإمبراطور فوقاس ٦٠٢ - ٦١٠م درجة من سوء الأخلاق، جعلت المؤرخين البيزنطيين يطلقون عليه صفة الطاغية، فقد سخر البلاد لصالحه، واغتصب النساء والفتيات العذارى دون رحمة، حتى لم يعد الشعب البيزنطى قادرا على تحمله. أما على الصعيد الخارجى فقد بدأ الفرس يطالبون بالثأر لمقتل الإمبراطور موريس، صديقهم، وبدأوا يعدون العدة لغزو الأراضى البيزنطية. إزاء كل هذه الأحداث قرر السناتو فى القسطنطينية أن يرسل رسالة إلى هرقل حاكم ولاية أفريقية البيزنطية كى يهب ويحشد قواته ويأتى لنجدة البلاد من براثن فوقاس البغيض.

الإمبراطور [جستنيان] ٥٢٧ - ٥٦٥م يتوسط حاشيته فسيفساء
من كنيسة سان ڤيتال- رافنا



وقد قرر هـرقل الأب أن يهب لنجدة البلاد ملبيـا طلب رجال السناتو، حيث أرسل ابنه وسـميه هرقل إلى القسطنطينـية واستطاع أن يسـتـولى عـلى زمـام الأمـور هناك، حـيث توج إمـبـراطورا على الإمبراطورية البيزنطية بعد مـقتل فوقاس. كان هذا هو السبب القريب الذى ساهم فى تقييد حركـة الإمبراطورية بعض الشيء وجعلها منهكة القوى وئيدة الحـركة مبلبلة الفكر. أمـا السبب البعيد فـهو يرجع إلى عصر الإمبراطور جستنيان ٥٢٧ - ٥٦٥م الذى تملكته النزعة الرومانية القديمة فى توحيد شطرى الإمبراطورية الغربى والشـرقى، وأن يجعل من نفسه إمبراطورا رومانيا. فقام بشن سلسلة من الحروب التى لم تنقطع طوال فترة حكمه لـلإمبراطورية فتارة يعقد صلحا مع الفرس ويتوجـه للغرب اللاتينى ليخضعه لحكمـه وتارة يتجه لمحاربة الهراطقـة الآريوسيين ليكسب السلطة الدينية أيضا ويـضع البابوات فى صفه وليعبـأ نفوذهم وقواهم من أجل مشاريعـه الطموحة التى جنت على الإمبراطورية الدمار والخراب من بعده إلى أن جاء هرقل سنة ٦١٠م. وأبسط شيء لهذا هى تلك الخزانة الخاوية التى لم يستطع أحد الأباطرة من بعده أن يعيد إليها شبابها وحيويتها، ومثال آخر مـتمثل فى المدن التى قضى عليها وعلى أهـميتها والتى كان من الممكن أن يسـتفاد منها لصالح الإمـبراطورية مـثل روما Roma ورافنا Ravenna وغيرها من المدن الإيـطالية. بل عادت الإمبراطورية لتنهار تدريجيا بعد موته، حتى مـا إذا قدم هرقل تفرغ لمشاكلها خاصة الشرقية. ومنذ عهد هذا الإمـبراطور الشاب هرقل بدأت الإمـبراطورية تتخذ سـمات وملامح بيزنطيـة خاصة من حيث الشكل والمضمون. وبهذه الطريقة انتـهى حلم جستنيان الذى ظل يحلم به طويلا ومنى نفسه كثيـرا به. ولكن يبدو أن جستنيان كـان السبب فى هذه الأوضاع المتردية التى انتـابت الإمبراطورية البيزنطية من بعـده فقد أهمل الجيش بعد أن أنهك قواه فى الحـروب طيلة حكمه وبعد أن بدأ الملل يتطرق إلى جنوده، بل إن السكان أنفسـهم بدأوا يتأففون من سـوء أحوالهم، وقضى على اقـتصاد الدولة وجعله متذبذبا. وهكذا أمست الخزانة خـاوية تماما بعد أن بدد أموال الشعب من أجل تحقيق حلمه، ولم يكتف بهذا بل شـيد العديد من العمائر والمبـانى التى أرهقت الخزانة وأرهقت الشعب نفسه الذى عانى كثيرا من السياسة المالية المتشددة الصارمة فى نفس الوقت.

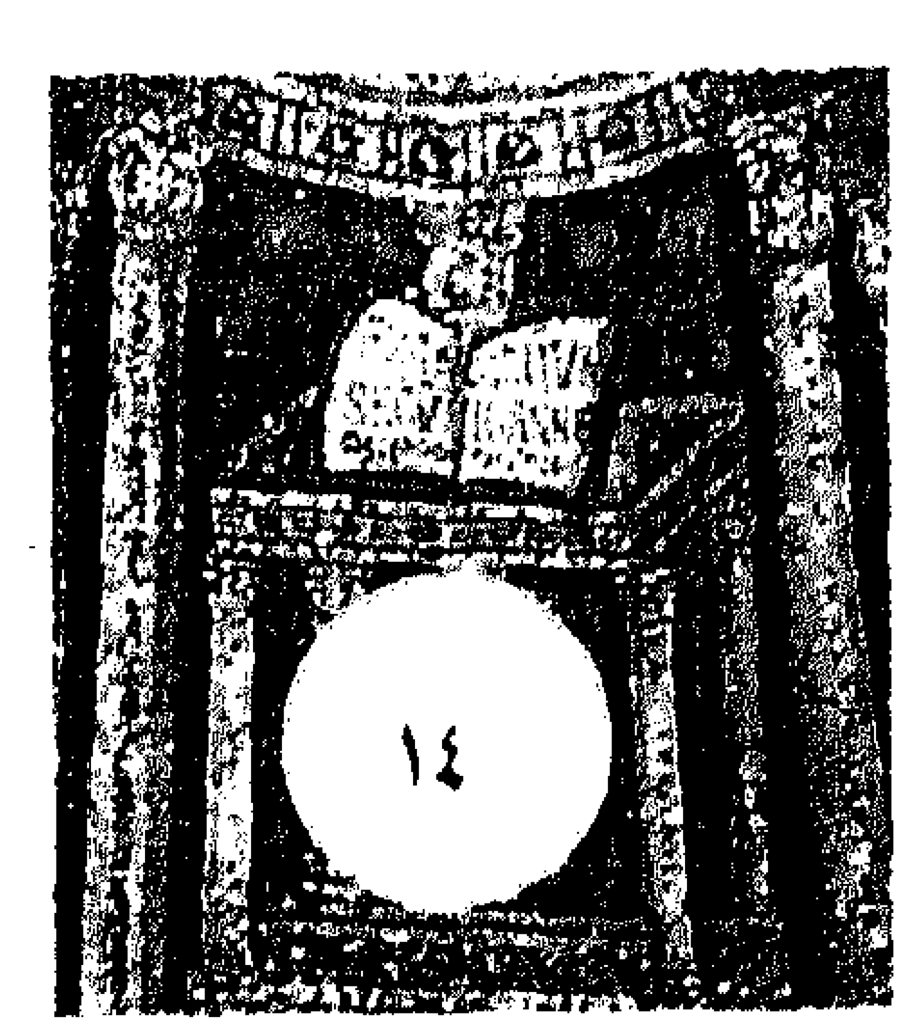
على أية حال، اعـتلى هرقل ٦١٠ -٦٤١م عرش الإمبـراطورية بعد أن استـطاع أن يقضى على فوقاس كما أسلفنا وكانت الأحوال العامة داخل الإمبراطورية لا تبشر بخير أبدا، فمن ناحية عاد الفرس لمحاربة الإمبـراطورية البيزنطية ثانية وخـاصة مع سياسة فوقـاس المتشددة والمتعجـرفة إزاء هذا الخصم اللدود، الذى ظل يترصدهم دائما، هذا من ناحـية. أما من الناحية الأخرى فقد عـاد الآفار لعبور نهر الدانوب واجتاحوا أقاليم تراقيا Thrace وإيلليريا، أما السلاف فقد انتشروا فى كل مكان من شبه جزيرة البلقان دون عناء أو أية مقـاومة. لقد استطاع فوقاس أن يـقضى على كل ما تبقى من معانى الاسـتقرار والاستمرار فى الحكومة البيزنطية ولم يكن فوقاس هذا أهلا للتحديات التى واجهت الإمبراطورية؛ لذا



سرعان ما خلص القدر الإمبراطورية منه . وقد كان على هرقل أن يعيد كل لسابقه وأن يقدم الاستقرار لدولته وخاصة لسكان عاصمتها القسطنطينية، كذلك كان عليه أن يملأ الخزانة البيزنطية ثانية، وأن يصلح من أحوال شعبه بعد أن ساهم بعض أسلافه فى أن يلقوا عليه بهذه التبعات .

لقد أدرك هرقل مدى صعوبة مهمته لدرجة أنه فكر فى العودة ثانية لشمال أفريقيا لولا اعتراض سكان العاصمة واعتراض البطريرك سرجيوس Sergius وكانت أحوال الإمبراطورية المتردية هى السبب فى أن تتطرق هذه الفكرة إلى ذهن الإمبراطور، لقد كانت إغارات الآفار مدمرة بمعنى الكلمة على أنهم اختلفوا عن غيرهم من العناصر البربرية الأخرى فى أنهم كانوا ينزلون المناطق ينهبونها ويسلبونها ثم يعودوا لمناطق استقرارهم ثانية، بعكس السلاف الذين كانوا يستقرون فى المناطق التى ينزلون بها بعد أن ينهبونها. وقد استطاعت هذه العناصر أن تستولى على شبه جزيرة البلقان، ولم يكتفوا بالمناطق الواقعة جنوبى الدانوب ومقدونيا، إذ اجتاحوا إقليم تراقيا ووصلوا فى إغاراتهم حتى أسوار القسطنطينية، كما هاجم السلاف أيضا إقليم دالماشيا Dalmatia. وفى نفس الوقت استمر ضغط الفرس على الجبهة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، ففى سنة ٦١١م بدأ هجوم الفرس على الشام حيث هزموا جيشا بيزنطيا بالقرب من أنطاكية عام ٦١٣م، أمام هذا كله وجب على هرقل أن ينهض بدولته من سباتها العميق ليواجه هذه الأخطار السابقة الذكر.

ومن الجدير بالذكر أن نذكر أن الفرس استطاعوا أن يسقطوا دمشق فى قبضتهم عام ٦١٤م ولم يلبث بيت المقدس أن سقط بعد ذلك بقليل، وحملوا الصليب المقدس، وهو أقدس آثار المسيحية إلى بلاد فارس؛ واستطاعوا دخول مصر أيضا، وأصبحت مصر ولاية فارسية مدة عشر سنوات. وكان سقوط مصر فى أيدى الفرس ضربة قاصمة للإمبراطورية البيزنطية؛ لأن مصر كانت البقرة الحلوب للإمبراطورية البيزنطية بغلالها الوفيرة وأموالها الكثيرة ومدنها العتيقة، وكان على بيزنطة أن تعد العدة لاستردادها مرة ثانية. وقد استطاعت القوات الفارسية أن تصل إلى أعماق آسيا الصغرى حتى مدينة خلقدونية وهو ما لم يحدث منذ عهد الملك دارا Dara، واكسركسيس Xerxes. وقد استبد اليأس بهرقل حتى أنه فكر فى نقل مقر حكومته إلى شمال إفريقيا ليدير دفة الحكم من هناك. وقد استطاع هرقل أن يرتب شئون دولته الإدارية من الداخل، فقد حاول التوفيق بين المذهب المينوفيزتى ومذهب الإمبراطورية فاستطاع أن يجد صيغة مشتركة من التوفيق يسوى بها ما كان من الاختلافات المذهبية التى عمت دولته، كما أن هرقل لجأ ـ وللمرة الأولى- إلى تجنيد عناصر الجيش من العناصر الوطنية، وبهذا وضع قاعدة جديدة للتجنيد فى الجيش، بدلا من الاعتماد على المرتزقة ؛ بل وصل أمر الاعتناء بالجيش إلى أنه قام بنفسه بالإشراف على تدريب القوات البيزنطية، كما قام بنسخ الكتب العسكرية البيزنطية التى تعنى بالجندية، وتوزيعها على الجند، ولم يكتف هرقل بتلك الإصلاحات، بل تعداها إلى ابتكار نظام إدارى جديد يسمى نظام



الثيمات أى "الأقاليم العسكرية". وقد بدأ هرقل فى عام ٦٢٢م سلسلة من الحروب ضد الإمبراطورية الفارسية، والتى انتهت بالنصر فى النهاية، ودخوله العاصمة الفارسية، وفرض وصايته على عرش فارس.

وقد صمم هرقل على ضرب الفرس فى عقر دارهم بدلا من استرداد مصر وبلاد الشام، وقد تمكن من تنفيذ مشروعه الطموح فى أقل من ست سنوات (٦٢٢ - ٦٢٨). وفى سنة ٦٢٢م خرج هرقل بجيوشه من القسطنطينية بعد أن تركها تحت إمرة البطريرك سرجيوس والبطريق بونوس كوصيان على ابنه الصغير. وقد تحرك هرقل على رأس جيشه إلى بلاد فارس بعد أن رفض كسرى أبارويز دعوة هرقل السلمية للصلح، وقد استطاع هرقل أن يلحق بجيوش كسرى هزيمة سريعة فى عام ٦٢٢م. وفى العام التالى ٦٢٣م نزل هرقل بجيوشه فى إسوس Esoss بآسيا الصغرى واستطاع أن يهزم القوات الفارسية أيضا فى هذا العام فى معركة فاصلة بينهما. وفى السنتين التاليتين ٦٢٤، ٦٢٥م استطاع هرقل، أن يحتل أرمينية، واتجه إلى زيادة أعداد جيشه بتجنيد قبائل الكولخيس والكرج الإيبرية. وفى عام ٦٢٦م استطاع كسرى أن يجمع جنوده من كل فج ويحشدهم للقيام

بقايا سد مأرب فى اليمن

بمعركة فاصلة يسحق فيها هرقل وجنوده. وكانت خطته أن يعرقل أحد جيوشه جيش هرقل بينما يتجه شطره الآخر لمحاصرة العاصمة البيزنطية ومهاجمتها ؛ وفى نفس الوقت اتفق معهم خاقان الآفار على أن تحاصر جيوشه القسطنطينية من الشمال أيضا، ولكن هرقل أفسد عليهم خطتهم بعد أن وجه شطرا من جيوشه للعاصمة للدفاع عنها فى الوقت الذى استبسل فيه البطريرك سرجيوس، وبونوس والسكان فى الدفاع عن مدينتهم. وسرعان ما انسحب الآفار وحلت الهزيمة بالجيش الفارسى الآخر. وفى هذه الأثناء أتم هرقل استعداداته ليوجه الضربة القاضية إلى فارس فى أواخر السنة التالية، إذ هبط إلى وادى دجلة وشتت شمل آخر جيش فارسى، ثم استولى على قصر كسرى بعد أن استولى على مدينة دستاجرد، وانسحب كسرى إلى المدائن. وفى ربيع سنة ٦٢٨م هب الفرس ثائرين على كسرى وانتهى الأمر بقتله وتولية ابنه مكانه، حيث عقد صلحا مع هرقل نتج عنه استرداد بيزنطة لجميع أراضيها التى فقدتها من قبل.

ومن الجدير بالذكر أن شيرويه بن كسرى السابق ذكره توفى بعد ذلك ببضعة أشهر وأعلن قبل وفاته أن يصبح هرقل وصيا على ابنه الصغير. ولا شك أن هذه الوصية قد أعطت هيبة وجلالا لهرقل وزادته نصرا على نصره ونالت من كرامة الفرس بقدر أعاد للروم كرامتهم ؛ وقد تمكن هرقل من إعادة الصليب المقدس ثانية. وبهذا النصر تحققت الآية الكريمة التى بشر بها اللّه المسلمين بانتصار الروم على الفرس والتى قال فيها :

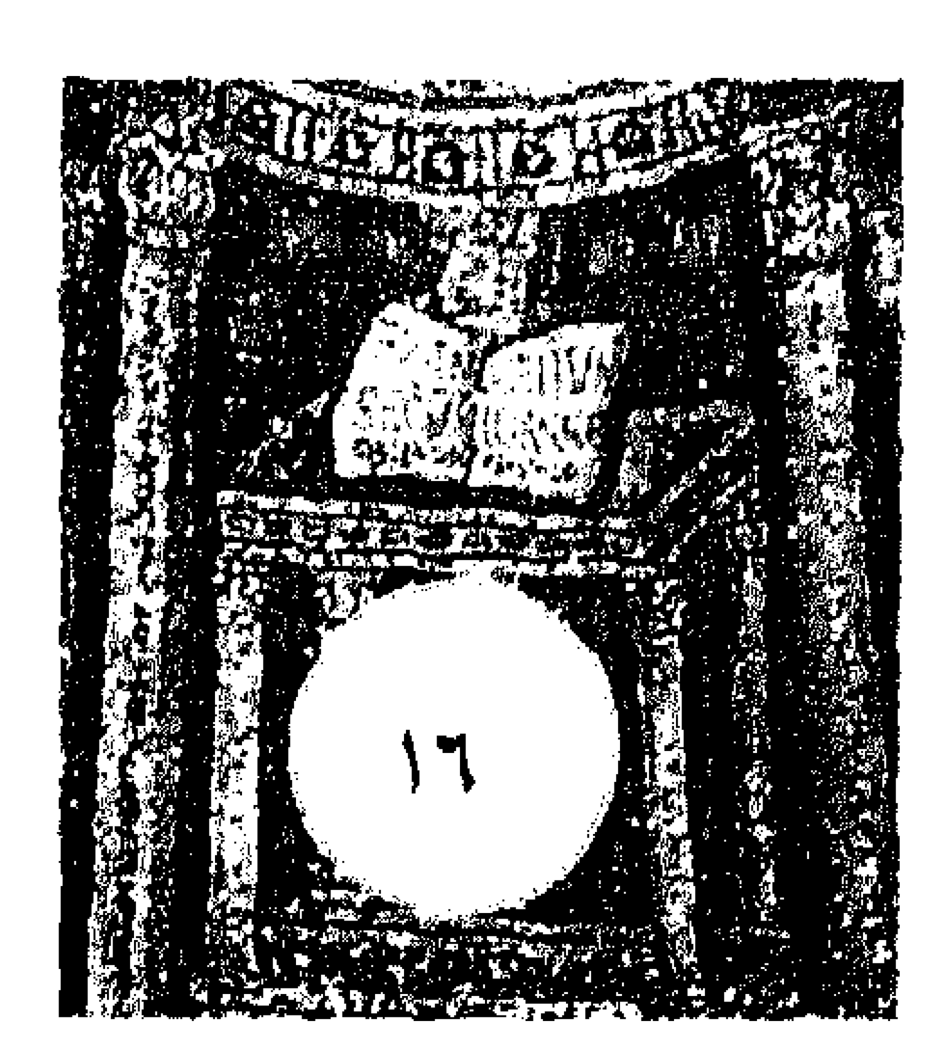
﴿ الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ ﴾ [الروم].

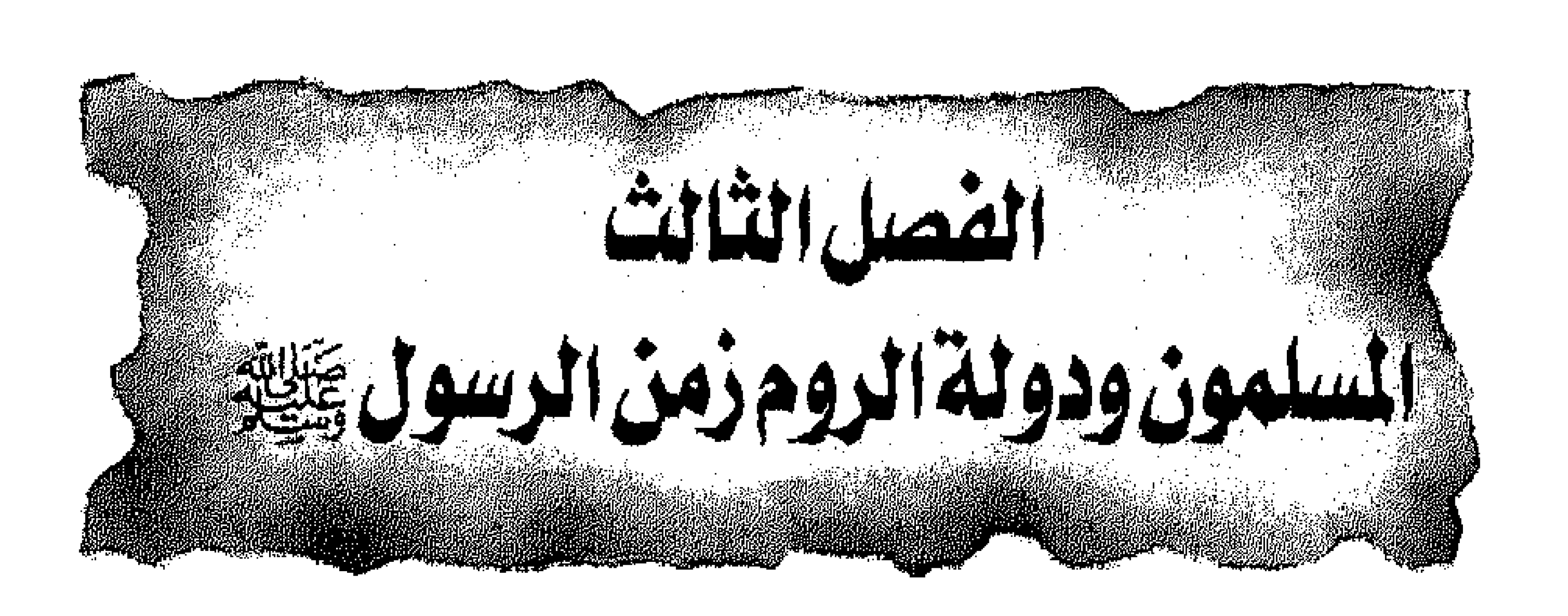
وبعد انتصارات هرقل وعودته إلى القسطنطينية فى عام ٦٢٨م جاءه وهو فى طريقه من الشام إلى عاصمته كتاب محمد ﷺ الذى بعث به فى العام السادس من هجرته الشريفة كما سيرد إن شاء اللّه.

وقد عاد هرقل إلى القسطنطينية بعد نصره العظيم الذى أحرزه على الفرس وسط مواكب النصر والتهليل التى أعادت للدولة البيزنطية شيئا من الانتعاش والثقة بالنفس.

أما عن الآفار فقد كانت هزيمتهم التى لحقت بهم حول أسوار القسطنطينية وهزيمة أسطولهم فى البحر أشد من الصاعقة عليهم، وكانت عاملا مهما فى تداعى نفوذهم، وسيطرتهم على ذمام الأمور بعد ذلك؛ حيث انقلب عليهم الصقالبة والبلغار وشهدت السنوات التالية قيام أول دولة صقلبية فى مورافيا Moravia وتلاها إنشاء إمارة فى دالماشيا Dalmatia وهى إمارة كرواتيا.

وهكذا أمن هرقل حدود دولته من كل جانب واتجه للإصلاحات الداخلية ولكن سرعان ما نهض لمحاربة عدو جديد له، ألا وهو المسلمون.





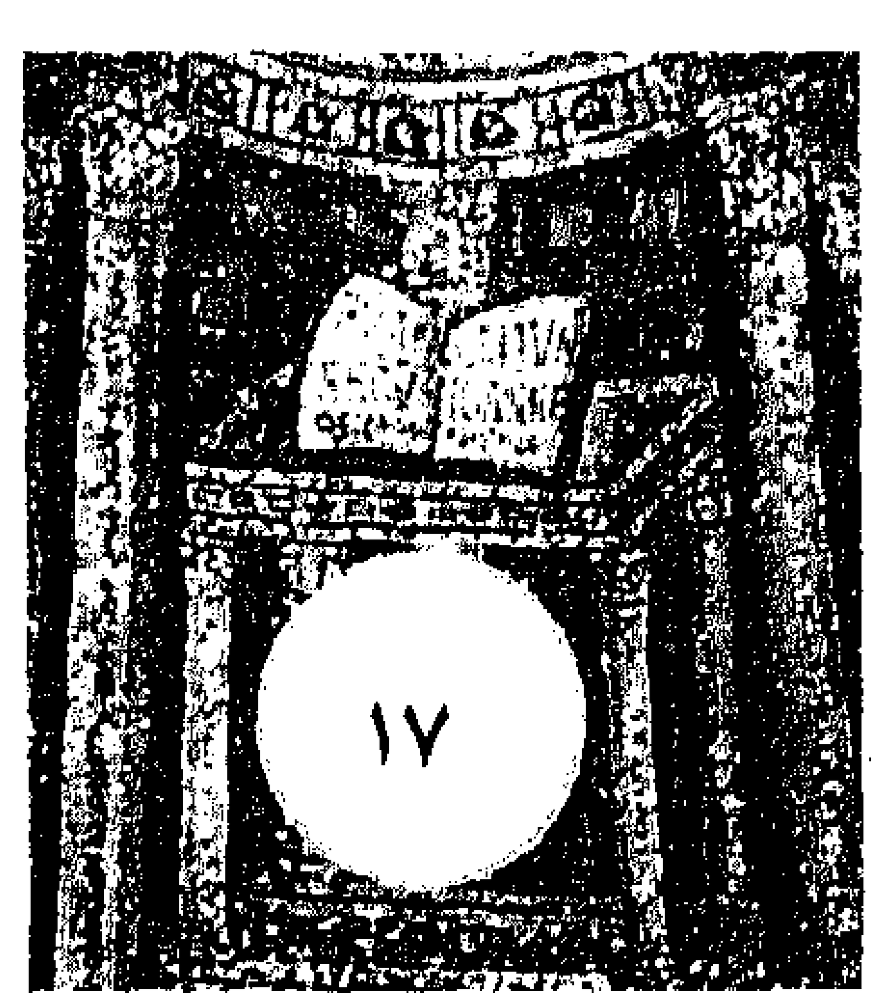
الفصل الثالث
المسلمون ودولة الروم زمن الرسول ﷺ

ولد محمد ﷺ بمكة سنة ٥٧٠م تقريبا، فى عام الفيل وينتمى إلى واحدة من أشرف قبائلها وهى قريش. وكان أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، تربى هناك وعمل بالرعى والتجارة وبلغ من حسن سيرته بين الناس فى مكة أن سمى باسم "الصادق الأمين" وكلنا يعلم قصة نزول الوحى عليه برسالة الإسلام والقرآن الكريم، وكيفية انتشاره فى مكة والمدينة. وقد دعى الرسول - ﷺ - العرب للدخول فى الإسلام فى كل بقاع شبه الجزيرة العربية واستطاع بالصبر والحزم والأخلاق الكريمة أن ينشره بين العرب أجمعين. وقد صار الإسلام على يديه عقيدة وثقافة وحضارة، وأصبح قوة عالمية لها وزنها على الصعيد الدولى فى العصور الوسطى.

بيد أن أهم مرحلة فى نشر الإسلام كانت هى الهجرة النبوية إلى المدينة والتى بدأ المسلمون يؤرخون لتاريخهم منذ وقتها وحتى الآن. ففيها استطاع الرسول ﷺ أن يدعم الدين الجديد وأن ينشره بين أهلها وزاد على ذلك انتصاره فى غزواته ضد الكفار والمشركين وفيها بنى أول مسجد للمسلمين، وأصبح الإسلام منذ يومها قوة قادرة على الرد على أعداء الإسلام فى الجزيرة العربية. وأثناء وجود المسلمين فى المدينة شرع اللّه الجهاد، وكان لزاما عليهم أن يخرجوا ليصدوا الكفار وينفذوا ما أمره اللّه بهم وهو القتال فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية وأذن للمسلمين بالقتال والجهاد فى سبيل اللّه دفاعا عن أنفسهم ضد إيذاء الكفار.



مسجد قباء [أول مسجد فى الإسلام]



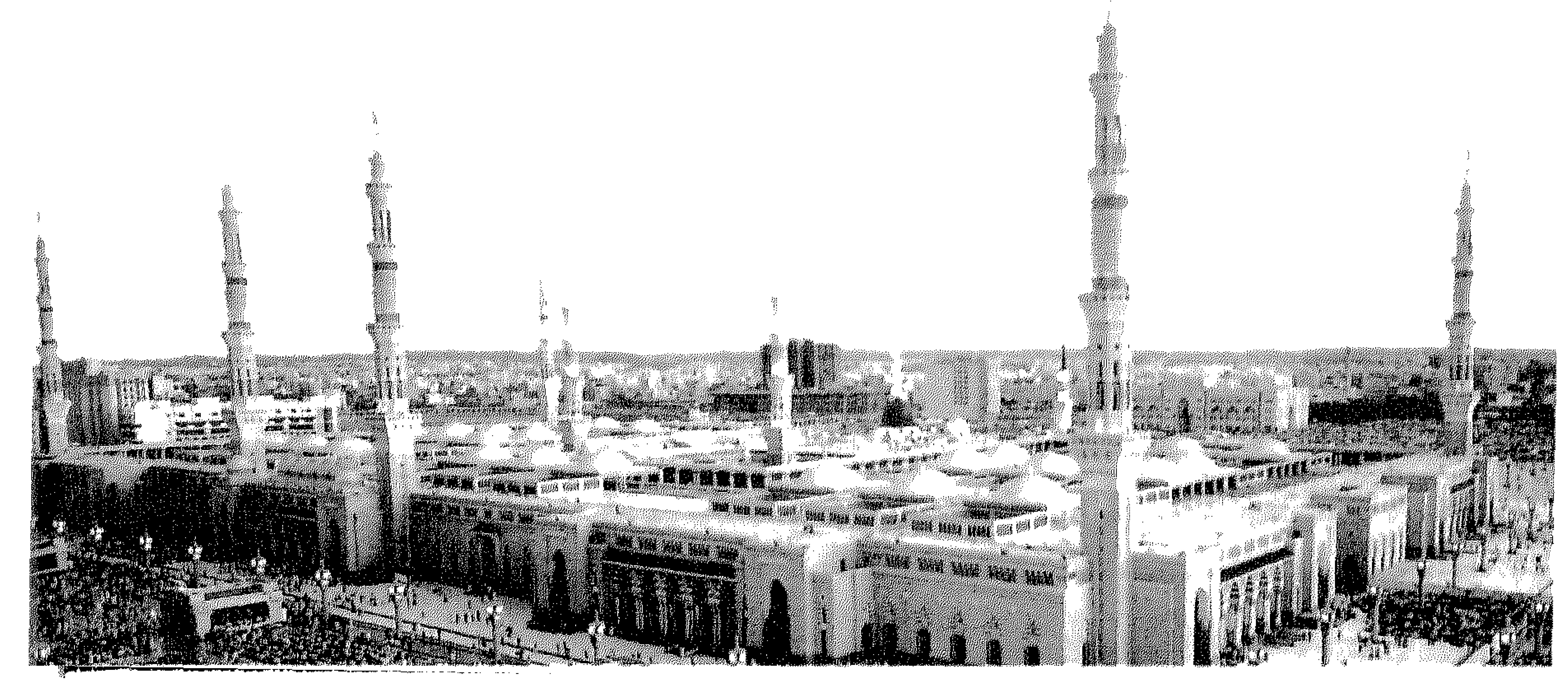
كان من نتيجة إيذاء الكفـار للمسلمين أن هاجروا إلى المدينة،إلا أنهم تعقبوهم أيضا هناك ولم يتركوهم حتى أفرغوا ما فى جعبتهم من حيل ومكائد وأذاقوهم شتى أنواع العذاب. وقد أحس الرسول - ﷺ - بما يدبره المشركـون للإسلام والمسلمـين، وبمحاولتهم بكل جـهدهم القضاء عليه وعلى أتباعه فكان على المسلمين أن يتخذوا الحيطة للدفاع عن أنفسهم وعن دينهم الجديد، ولم يكن هناك مفر من المواجهة بينهم وبين أعداء الإسلام. فـكان على الرسول - ﷺ- أن يستخـدم الحجة والبراهين إلى جـانب القتال ضـد الكفار، وقد نصر اللّه المسلـمين فى مواقع عدة بعـد أن أصبح الجهاد فريضة عليهم.

والجهـاد فى الإسلام هو دعوة لنظرة جـديدة فى الحياة تؤدى إلى بناء مـجتمع تتلاشى فـيه مفاهيم النظم القـبلية ويحل محلها نظم سامـية تكفل لاتباعها الطمأنينة والعـدالة والمساواة؛ لأنها تقوم على تعاليم جاءت من لدن عزيز حكيم، وللجهـاد آداب عدة. وقد دعم اللّه تشريعه للجهاد بآيات عدة منهـا قوله تعالى﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ** ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج]. وقد استطاع الإسلام أن يؤلف بين قلوب العرب آنذاك، وأن يجمعهم على عقيدة واحدة ولغة واحدة، وكان القرآن الكريم والسنة النبوية أسـاسا فى تشييد حـضارة عريقة عـاشت قرونا طويلة ؛ فمنه اسـتمد المسلمون عقـيدتهم الروحية، ومنه نظموا قوانينهم وآدابهم ومعاملاتهم.

لقد جعل الإسـلام العرب أمة واحدة، لهـا حكومة نظامية كان مـقرها المدينة، وعلى رأس الجهاز الحـكومى كان الرسول ﷺ وعمـاله على القرى والمدن الأخرى، واتخذ من المدينة مـقرا له وعاصمة مركزية للدولة الإسلامية.

كذلك خلق الإسلام تضامنا بين أجناس عدة تحت راية واحدة هى راية الإسلام ولغة واحدة هى اللغة الـعربية التى ارتقت بنـزول القرآن فيـها. وقد أصبـح المسجـد الحرام قبلة يتـوجه إليـها المسلمون فى شتى أنحاء الأرض، كذلك غدا المسجد النبوى بعد الهجرة دارا يجتمع فيها المسلمون بالرسول ﷺ يتشاورون فى أمور دينهم ودنياهم، وقد أقر الإسلام نظام الشورى فى الحكم من بعد الرسول ﷺ واسـتطاع أن يقضى على العـصبية القـبلية التى كـانت سائدة فى الجاهليـة، وأصبح للسلطة المركزية السيادة العليا التى يُرجع إليها، وألغى التباين بين الناس وأقر حقوقهم.

أما من ناحية التنظيم الـعسكرى فيمكن القول أنه فى ظل مبدأ الجـهاد الإسلامى خرج كل قادر على حمل السلاح للجهاد فى سبيل نشر الدعوة وصد الكفار. وكان الرسول ﷺ على رأس هذا الجيش ومعه الصحابة وبقية المسلمين واتخذ العديد من الأسلحة لتدعيمه، وقد عرف المسلمون

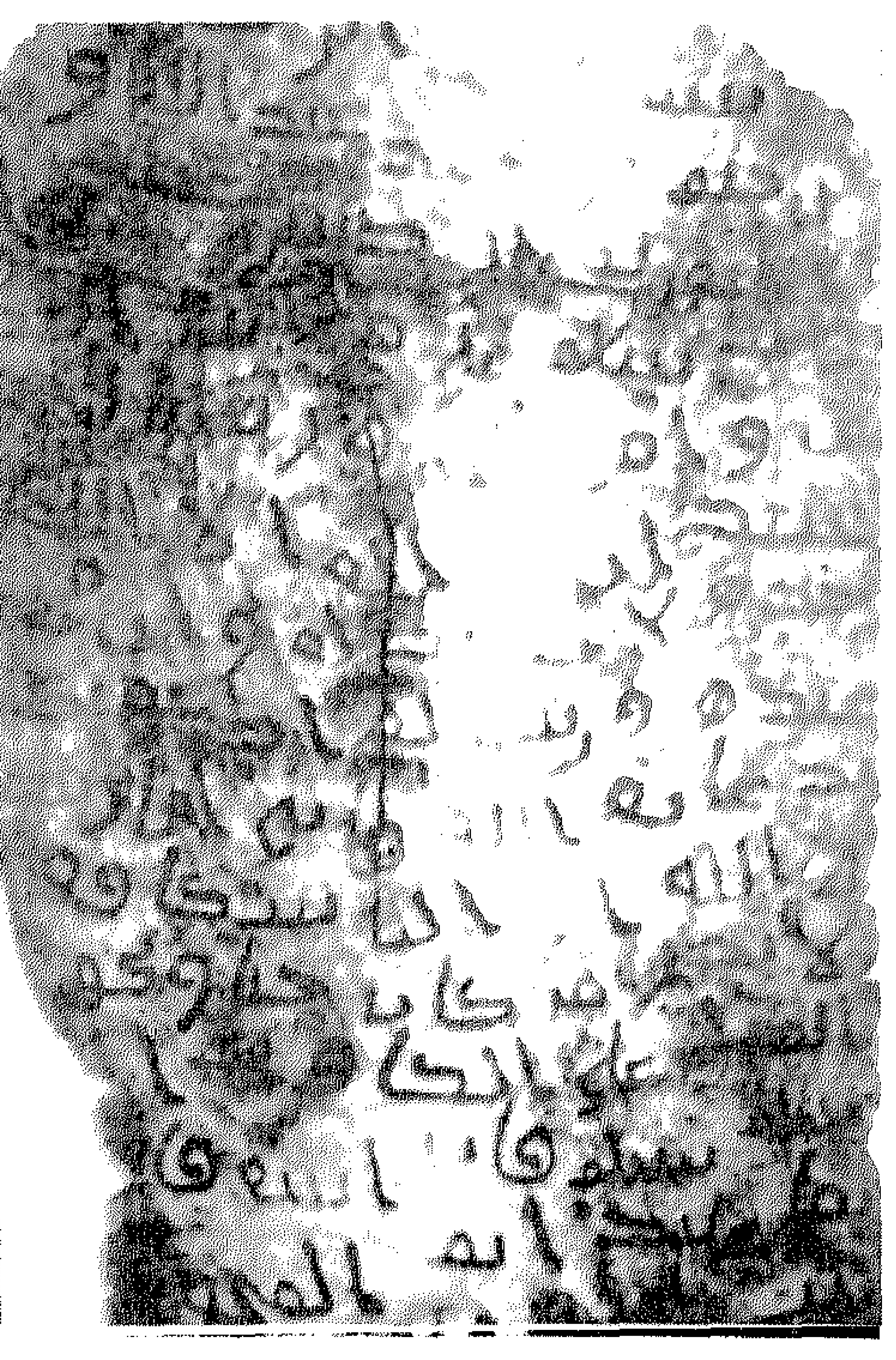


صورة حديثة للمسجد النبوى بالمدينة المنورة

نظام تعبئة الجند أسلوبا للقتال، ففى عهد الرسول ﷺ كان الفرسان يخرجون للحرب ومعهم المشاة مترجلين ومتراصين، أما فيما بعد فى العصر الأموى، فكانت الجيوش الإسلامية تقسم إلى خمس فرق، ميمنة وميسرة، والقلب ثم المقدمة ثم مؤخرة الجيش.

ويقول توماس أرنولد نقلا عن فرن كريمر: "وقد جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل فى نظام سياسى واحد، ذلك النظام الذى سرت مزاياه بسرعة مذهلة تبعث على الدهشة والإعجاب. وإن فكرة واحدة كبرى هى التى حققت هذه النتيجة". هكذا كان النظام

المسجد الحرام قبلة المسلمين



نموذج من رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء- [الرسالة التى أرسلت إلى كسرى]

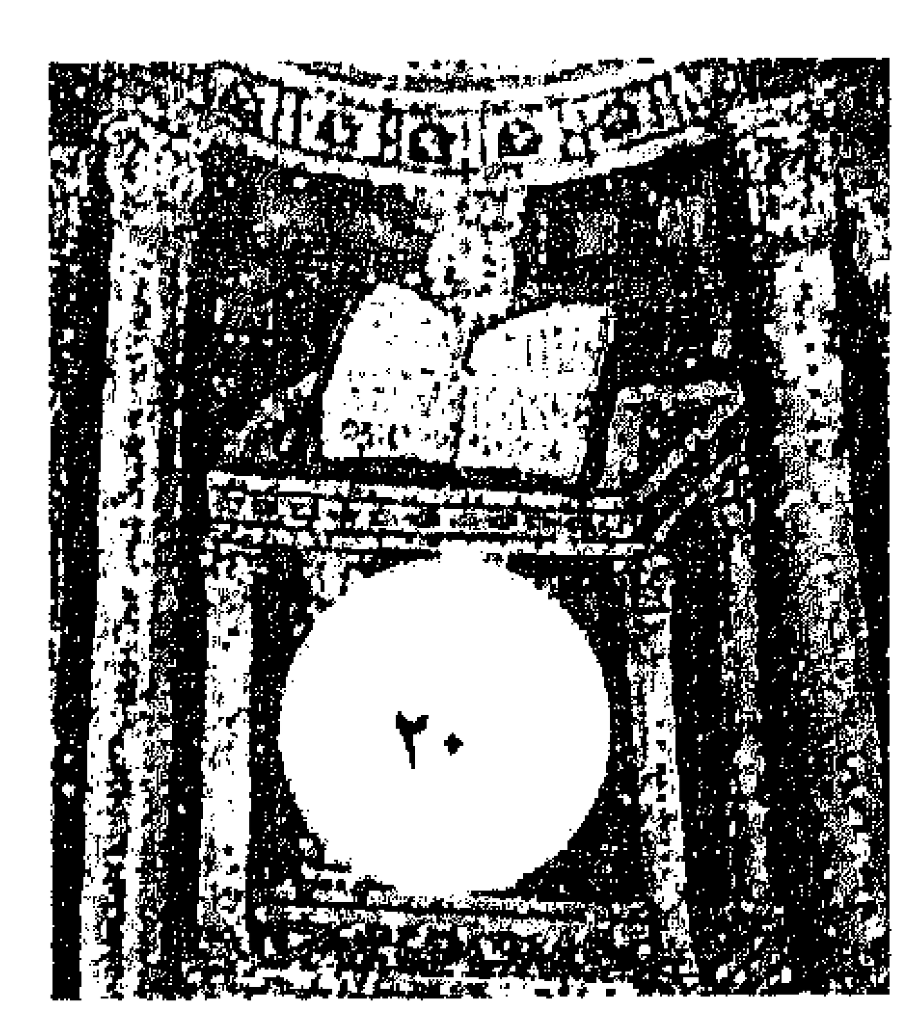


القبلى بين العرب لأول مـــرة، وإن لــم يقض عليه نهائيا، شيئا ثانويا بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية.

رسائل الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ... (٢٨) ﴾ [سبـأ]... هكذا كـان على الرسول ﷺقبل أن يفارق الدنيا أن يرسم الطريق أمام أصحابه للخروج بهذا الدين من حدود الجزيرة العربية وإبلاغه للناس أجمعين. وقد سلك الرسول الكريم فى سبيل هذا طريقين: الأول، وهو الطرق السلـمية التى اتبعـها مع الملوك والأباطرة بالـرسل والكتب التى أرسلهـا إليـهم ومـنهم هرقل إمـبـراطـور الروم فكان هذا الكتـاب الذى أرسله الرسول ﷺ إلى هرقل بـداية للعلاقـات الرسمـية بين الرسـول ﷺ وأباطرة الروم. أما الطريق الثانى، فهو الجهاد أو استخدام القوة العسكرية فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية. وقد راعى الرسول ﷺ أصح الطرق السياسيـة فى المعاملات بينه وبين الأمم الأخرى، أرسل كتابا إلى الإمبـراطور هرقل إمبـراطور الروم يدعوه فيـه إلى الإسلام وقد وصلنا نـص هذا الكتاب فى المصادر الأصلية كالطبرى وغيره، وهذا هو نص الرسالة:

(بسم اللّه الرحمن الرحيم: من محمد بن عبد اللّه ورسوله إلى هرقل قيصر الروم. السلام على من اتبع الهـدى: أما بعـد. أسلم تسلم وأسلم يؤتك اللّه أجرك مـرتين وإن تتولـى فإن إثم الآكاريين عليك ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** (٦٤) ﴾ [**آل عمران**]. هذا هو نص الرسالة كـما ورد فى المصـادر الأصلية والتى دعا فـيها الرسـول ﷺهرقل بكل سمـاحة الإسـلام إلى الدخول فى الديـن الجديد، ولا شك أن الرسـول ﷺ كـان على علم بأن هرقل هو عظيم الروم قـولا وفعلا، وبالتـالى له السطوة والغلبـة فى البلاد، وخاصـة بعد إعـادته للصليب المقـدس من أيدى الفرس. وكـما يقـال فإن الناس على دين مـلوكهم، ومن ثم لو اعـتنق هرقل

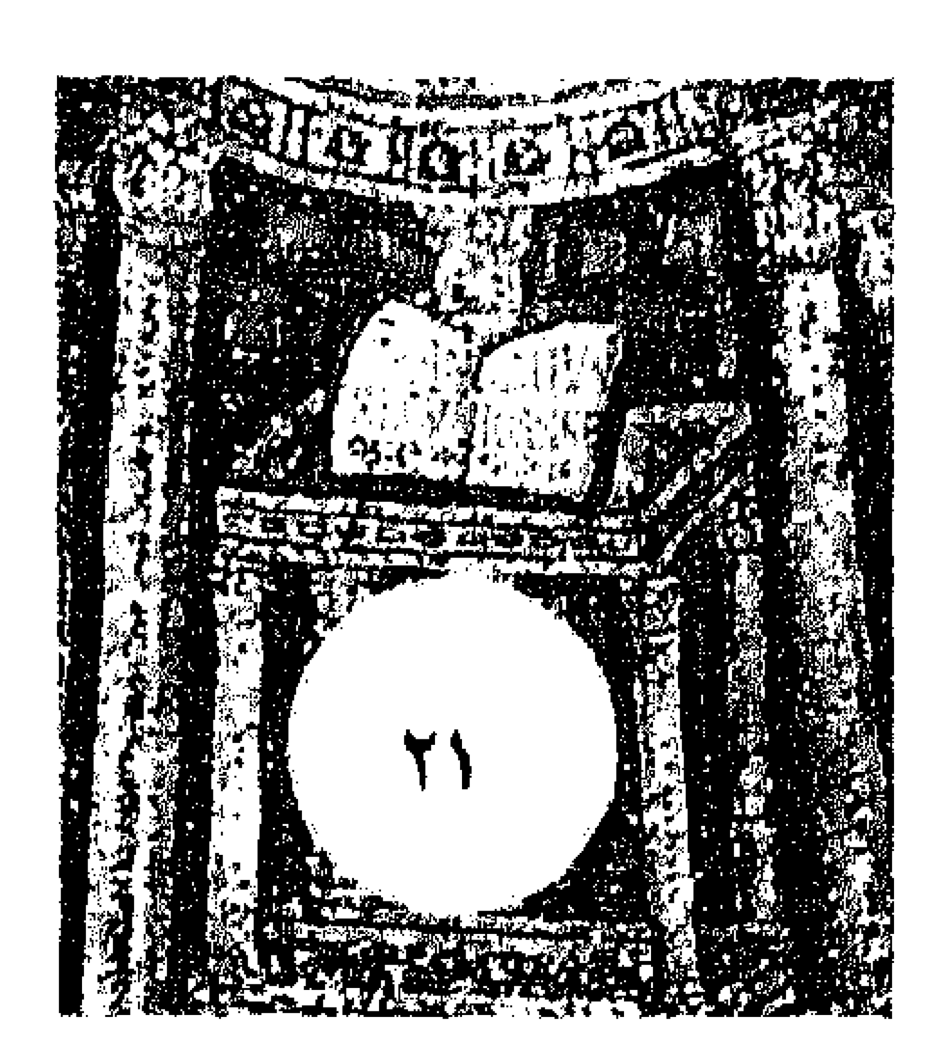


الإسلام لحذا الناس حذوه. وقد أرسل الرسول ﷺ الرسالة مع دحية بن خليفة الكلبى عام ٦هـ/٦٢٧م. وقد كان لهذه الرسالة أثرا كبيرا على هرقل نفسه. وينكر بعض المستشرقين إرسال الرسول ﷺ لهذه الكتب ومما يدعم هذا الادعاء من وجهة نظرهم أنهم لم يعثروا على أية وثائق أو مخلفات تدل على إرسالها عند هؤلاء الملوك والأمراء، ومن المحتمل أن نص هذه الرسائل قد فقد لسبب من الأسباب، علاوة على أن نص هذه الرسائل قد وصلنا فى المصادر الأصلية العربية.

ويقول البعض الآخر من المؤرخين أن الرسول ﷺ لم يخرج من الجزيرة العربية لذا لا يعلم شيئا بأحوال البلاد المجاورة له، ولكن يثبت التاريخ أن الرسول ﷺ كان يعمل بالتجارة بين الجزيرة العربية والبلاد المجاورة من قبل أن ينزل عليه الوحى لينبئه بالدعوة للدين الجديد وأنه كان على دراية بأحوال الدولة البيزنطية لكثرة سفره إلى الشام، وتدل كلمة الآكاريين التى وردت فى رسالته إلى هرقل على أنه كان على علم بالصراعات المذهبية فى الدولة البيزنطية.

وقد أرسل الرسول ﷺ أيضا كتابا إلى قيرس أو المقوقس بمصر وهو الذى كان يحكمها من قبل الدولة البيزنطية. وقد تقبل المقوقس كتاب الرسول ﷺ بكل الرحب والسعة لأنه كان يعلم بأنه سوف يجىء نبى جديد فى الأرض. وقد أكرم أعضاء بعثة رسول اللّه ﷺ وحملهم بالهدايا والأموال إلى الرسول ﷺ ورد عليه بقوله: «قد كنت أعلم أن نبيا قد بقى، وكنت أظن أن مخرجه الشام - وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله - فأراه قد خرج فى العرب فى أرض بؤس وجهد. والقبط لا تطاوعنى فى اتباعه ولا أحب أن يعلم بمحاورتى إياك». وقد كان لهذه البعثة أثر كبير، فقد أرسل المقوقس للنبى ﷺ ماريا القبطية كجارية ضمن هداياه، فتزوجها النبى وكانت وصيته الشريفة للمسلمين «**إن اللّه سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لهم فيكم صهرا وذمة**».

وسوف نتعرض الآن لأثر الرسالة التى أرسلها النبى ﷺ إلى هرقل عليه، فقد تقبل هرقل هذه الرسالة قبولا حسنا، وكان وقتها بالشام عائدا إلى القسطنطينية. وتروى المصادر العربية كالطبرى وصحيح البخارى عن أبى سفيان قوله: خرجنا فى نفر من قريش تجارا إلى الشام... والله إنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطة فقال أنتم من رهط هذا الرجل الذى بالحجاز؟ قلنا: نعم! قال: انطلقوا بنا إلى الملك. فانطلقنا معه. فلما انتهينا إليه قال: أبكم أمسى به رحما! قلت: أنا فقال: ادنه. فأقعدنى بين يديه وأقعد أصحابى خلفى، قال إنى سأسأله فإن كذب فردوا عليه، فواللّه لو كذبت ما ردوا على، ولكن كنت امرأ سيدا أتكرم عن الكذب، وعرفت أن أيسر ما فى ذلك إن أنا كذبته، أن يحفظوا ذلك على ثم يحدثوا به عنى، فلم أكذبه. وقال سألنى عن النبى ﷺ. فحاول أبو سفيان أن يصغر له شأنه (وكان ما زال كافرا) ويهون عليه أمره فلم يلتفت

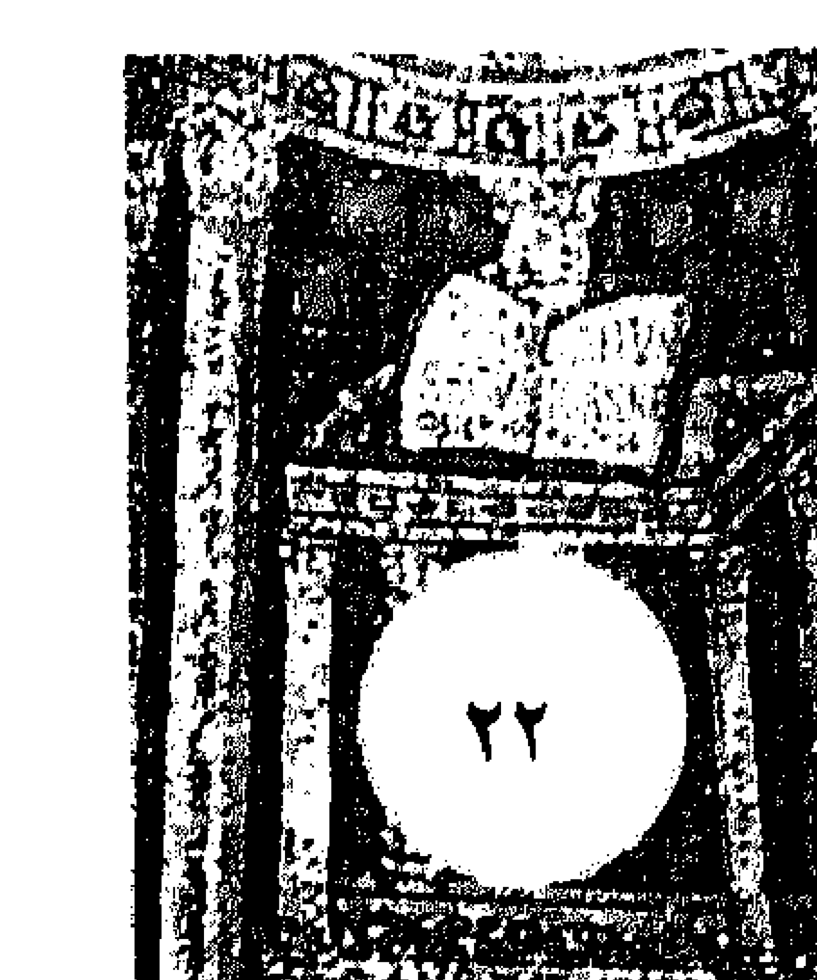


إليه. وقال له: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو أوسطنا نسبا، قال: هل كان من أهل بيته من يقول مثل قوله؟ قلت: لا، قال: فهل له فيكم ملك سلبتموه إياه؟ قالت: لا، قال: فمن اتبعه منكم؟ قلت: الضعفاء والمساكين، قال: فهل يحبه من يتبعه ويلزمه أم يبغضه ويفارقه؟ قلت: ما يتبعه رجل ففارقه، قال: هل يغدر؟ قال أبو سفيان: فلم أجد شيئا أعجز به غيرها قلت: لا ونحن فى هدنة ولا نأمن غدره قال أبو سفيان فما التفت إليها.

ويقول أبو سفيان: قال لى هرقل سألتك عن نسبه فزعمت أنه من أوسط الناس وكذلك الأنبياء وسألتك هل قال أحد من بيته مثل قوله فهو متشبه به فزعمت أن لا. وسألتك هل سلبتموه ملكه فجاء بهذا الأمر لتردوا عليه ملكه فزعمت أن لا، وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم من الضعفاء والمساكين وكذلك أتباع الرسل. وسألتك عمن يتبعه أيحبه أم يفارقه فزعمت أنهم يحبونه ولا يفارقونه وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلبا فتخرج منه، وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أن لا، ولئن صدقتنى ليسيرن على ما تحت قدمى هاتين ولوددت أنى عنده فأغسل قدميه. انطلق وشأنك".

ثم جمع هرقل بطارقة دولته وأشرف عليهم من مكان عال خوفا على نفسه وأغلق الأبواب خلفهم ثم قال لهم: "قد أتانى كتاب هذا الرجل يدعونى إلى دينه، وأنه والله النبى الذى نجده فى كتابنا فهلم فلنتبعه ونصدقه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا فنفروا منه، ثم ابتدروا الأبواب ليخرجوا فقال ردوهم على وخافهم على نفسه، وقال إنما قلت لكم ما قلت لأنظر كيف صلابتكم فى دينكم وقد رأيت منكم ما سرنى فسجدوا له.

وتجمع الروايات العربية على أن هرقل كان يميل للاستجابة للإسلام، وكان من أهم أسباب رفضه هو اتباعه لهذا الدين هو أنهم استكثروا على العرب أن يخرج من بينهم نبى، حيث كانوا ينظرون إليهم على أنهم مجرد بدو فى الصحراء، وأن ما يدعونه هو مجرد هرطقة. إذ كيف يخضعون بما لهم من حضارة وملك وجبروت لهذا النبى الذى خرج من الصحارى يدعوهم للتخلى عن دينهم، صاحب السيادة العليا آنذاك فى عالم العصور الوسطى، والدخول إلى الإسلام. وقد غضب هرقل حين علم أن المقوقس دخل مع المسلمين فى صلح بعد محاصرتهم لحصن بابليون Bablyon واستدعاه إلى القسطنطينية ثم نفاه وأرسل قواده لمحاربة العرب فى مصر. وهذه الرواية تقلل من قيمة الروايات العربية التى أجمعت على أن هرقل كان راغبا فى دخول الإسلام وخاصة أن العرب كانوا قد داهموه قبل ذلك فى الشام فى غزوتى مؤتة وتبوك. وإذا كانت الروايات العربية صحيحة فهذا لأن هرقل أراد أن يتجنب العداء مع القوة العربية الصاعدة ليتفرغ إلى تأمين حدود دولته مع الفرس.



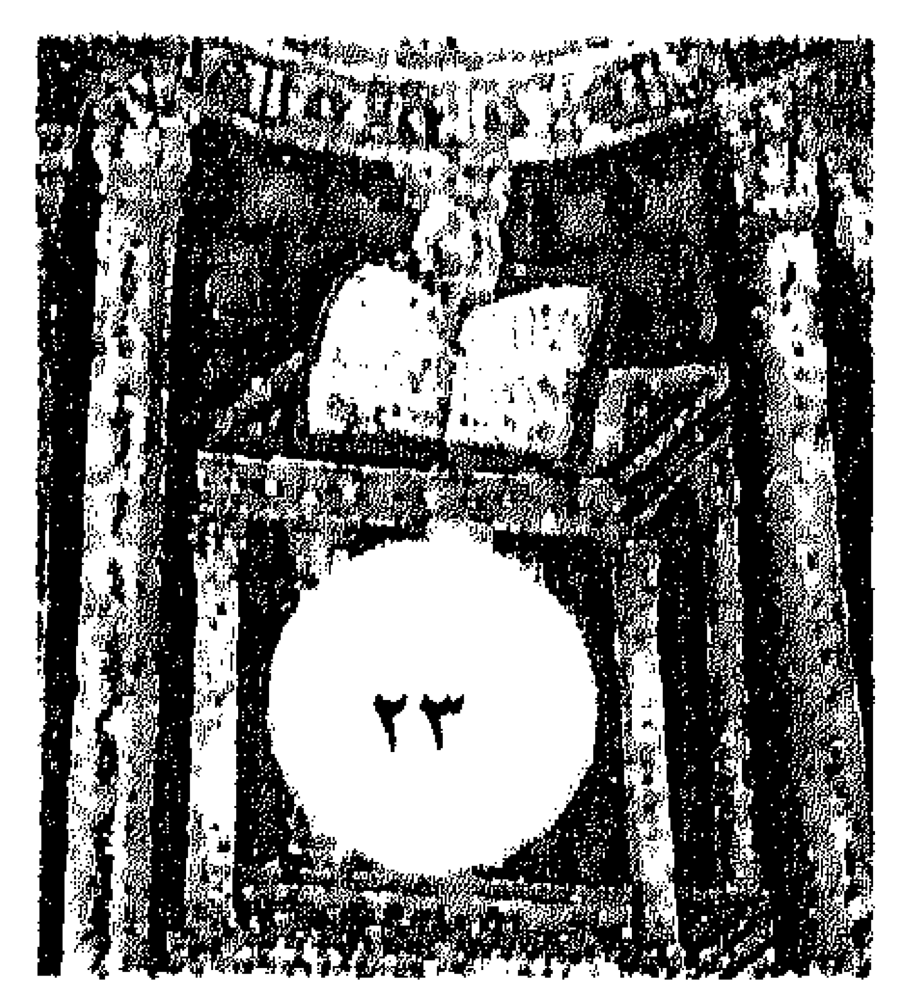


سرية مؤتة:

لما اشتد ساعد الرسول ﷺ وأعوانه وانتشر الإسلام فى شبه الجزيرة العربية بدرجة أهلته كى يقوم بحملات خارجية فى سبيل نشر الدين الجديد، كانت أولى حملاته على بلاد الروم سنة ٨هـ / ٦٢٩م وخاصة بعد أن رفض هرقل دعوته السلمية للدخول فى الإسلام، فوجه الرسول ﷺ قوة إسلامية تتألف من ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين إلى مؤتة على رأس هذه الحملة زيد بن حارثة، وكان بهذه الحملة خالد بن الوليد متطوعا وجعفر بن أبى طالب. ولما علمت قوات الروم بمسيرة هذا الجيش الإسلامى نحو أراضيهم خرجت له عند مؤتة، وهى قرية صغيرة من قرى البلقاء على حدود الشام، واستشهد فى هذه الغزوة زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب، وكاد المسلمون أن يفنوا لولا أن حمل خالد بن الوليد لواء القيادة من بعدهما واستطاع أن ينجو بقوات المسلمين ويعود بهم إلى المدينة ثانية بعد أن أبلى المسلمون فيها بلاء حسنا؛ ومنذ هذه الموقعة أطلق على خالد بن الوليد لقب سيف اللّه المسلول.

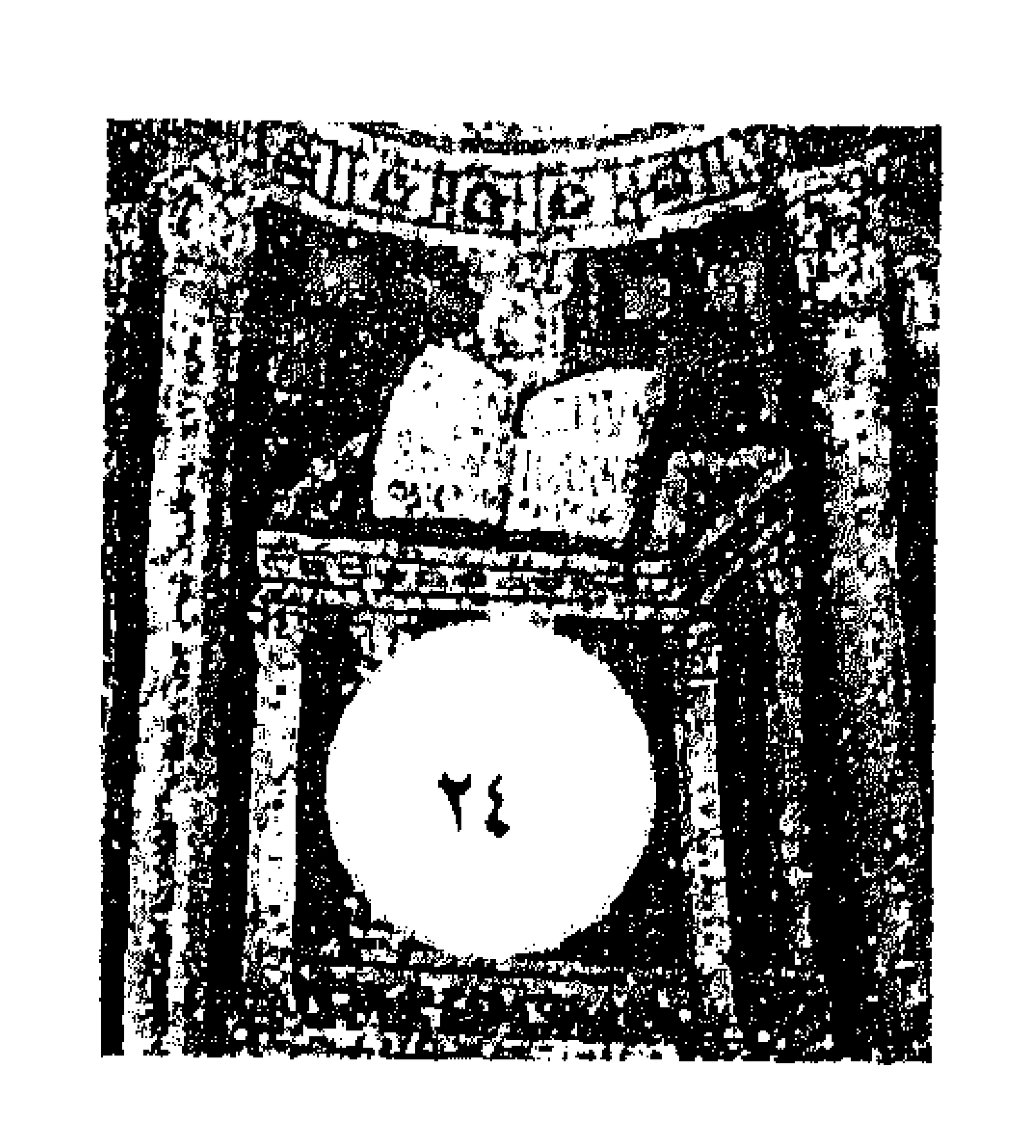
وقد يتساءل البعض عن الدافع الذى أدى إلى هذه الغزوة؟ كان السبب الرئيسى وراء هذه الغزوة أن رسول اللّه ﷺ أرسل رسولا من قبله إلى العرب الضاربين على حدود الشام يدعوهم للإسلام فقتلوه، فأخرج لهم الرسول هذه الحملة؛

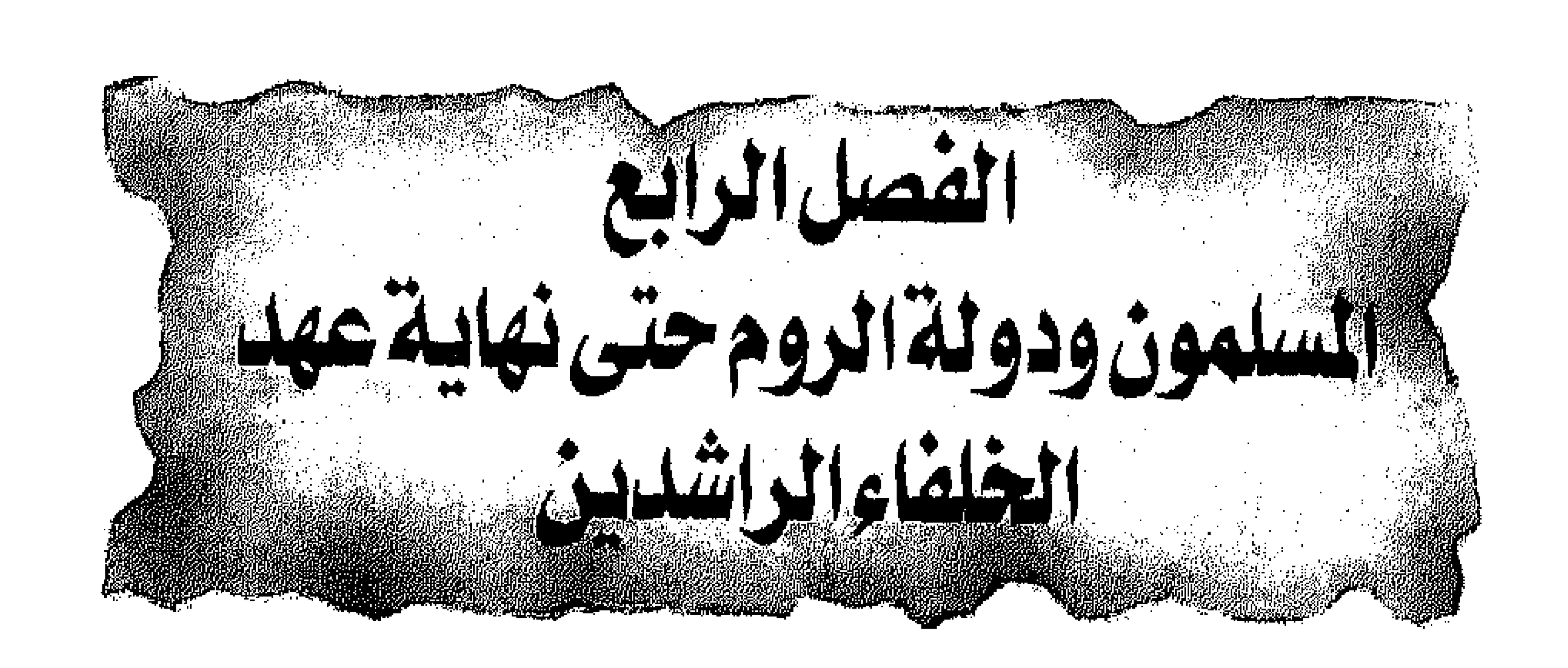
وثمة هدف آخر هو نشر الإسلام فى هذه المناطق، ومن الجدير بالذكر أن ننوه عن أن البيزنطيين نظروا إلى هذه الحملة على أنها مجرد غارة عربية كالتى اعتادوا عليها من قبل حيث ينهب العرب المناطق التى يغيرون عليها ثم يعودون بعدها إلى بلادهم ثانية هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى اعتقدوا أنهم جاءوا ليأخذوا بالثأر لرسولهم الذى قتل على أيدى العرب الموالين للبيزنطيين على حدود الشام.



غزوة تبوك :

كانت هذه الغـزوة فى عام ٩هـ / ٦٣٠م وكان من أسبـابها أن بلغ الرسـول ﷺ أن قـوات الروم قد تجـمـعت على حـدود فلسطين ومعـهم بعض القبائل العربيـة لقتال المسلمـين. ولما علم الرسول ﷺ بصحـة هذا دعى المسلمين إلى الجهـاد وخرج بالجيش إلى الشـام فلما وصل إلى تبوك أقام فيها أياما فـصالحه أهلها، وجاءت الوفود من أيله وغيرها وصالحوه على دفع الجزية له، كما بعث بخـالد بن الوليد إلى دومة الجندل ومعه مجموعة من الجند فأسر صاحبها واستولى عليها ثم عاد الرسول إلى المدينة، وكانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول ﷺ حـيث وافته المنيـة بعد ذلك ومات فى يوم الإثنين ١٣ ربـيع الأول سنة ١١هـ، يونية سنة ٦٣٢م، بعد أن نشر الدعوة الإسـلامية ووطد أركانها فى الجزيرة العـربية كلها، وبعد أن ألف بين قلوب العرب وجمعهم على كتاب واحد ولغة واحدة وقبلة واحدة.





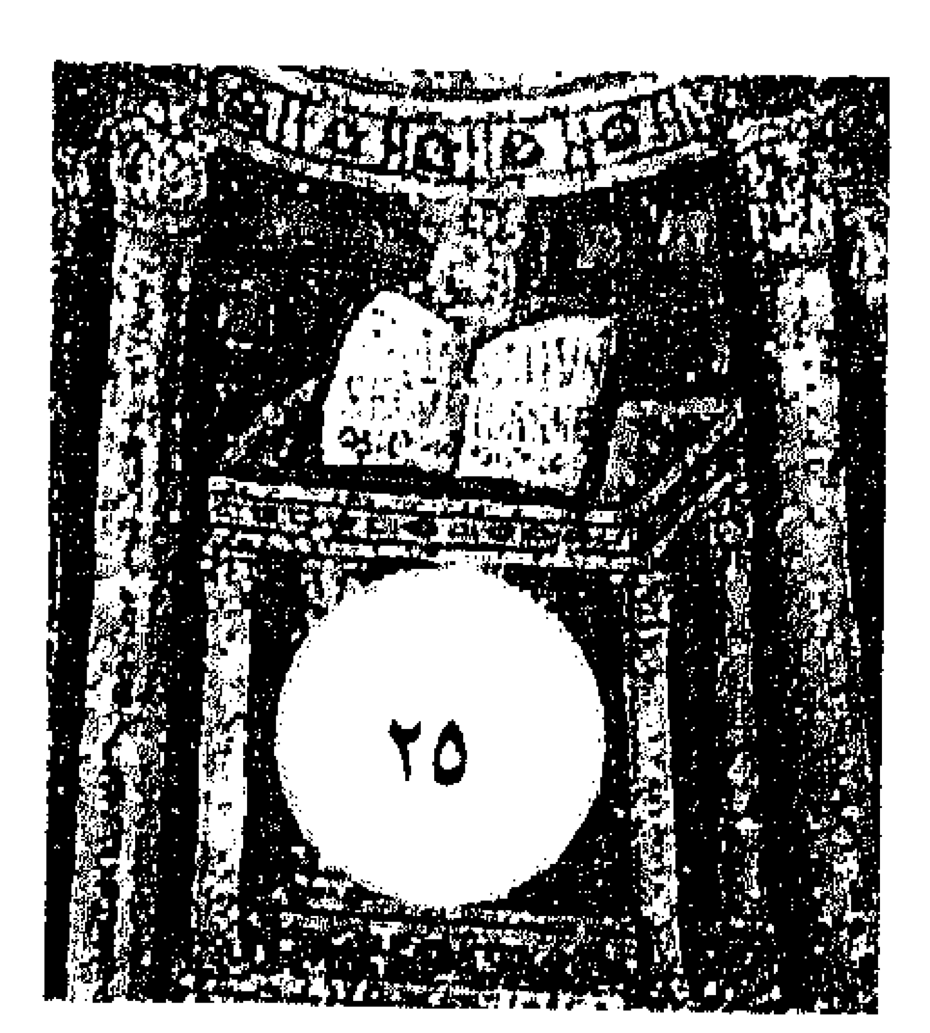
انتهى عهد الرسول ﷺ بانتقاله إلى الرفيق الأعلى عام ١١هـ/ ٦٣٢م وقبيل وفاته كان قد أعد حملة عسكرية بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة، الذى استشهد أباه فى موقعة مؤتة، وكان أسامة هذا صبيا ما زال فى مقتبل العمر ومع هذا ولاه الرسول ﷺ إمرة هذا الجيش الذى كان يحوى العديد من قادة المسلمين؛ وكانت هذه الحملة موجهة إلى أراضى الروم. وقد توفى الرسول ﷺ قبل أن يشهد خروج هذه الحملة وقدر لخليفته أبو بكر الصديق أن يشهد ذلك بل ويسيرها كما كان يريد لها الرسول ﷺ. وقد أبى أبو بكر إلا أن ينفذ رغبة رسول اللّه ﷺ ويبعث بهذه الحملة كما أعدها الرسول ﷺ إلى مشارف الشام؛ وذلك لأنه رأى فيها مناورة حربية وسياسية تشعر الروم بقوة المسلمين وثبات مركزهم.

ومن الجدير بالذكر أن الرسول ﷺ قد أسند قيادة هذا الجيش إلى أسامة بن زيد وكان فى مقتبل العمر، مما جعل بعض الصحابة يتأففون من قيادته، ولكن بفضل حزم أبى بكر الصديق استطاع أن يقنعهم ويثنيهم عن هواهم لينضووا قادة أكفاء فى هذا الجيش. ولما تحرك الجيش، خرج أبو بكر ماشيا لتوديعه بينما كان أسامة راكبا وتحدث إليه أبو بكر الصديق حديثا ألهب حماسة أسامة بن زيد بن حارثة.

وهكذا قدر لأبى بكر أن يشغل العرب فى الفتوح الخارجية، ليخمد الفتن الداخلية؛ وكذلك قدر للإمبراطور هرقل أن يشهد انتصاراته التى أحرزها على الدولة الفارسية واسترد بفضلها أملاكه ثانية وهى تتحول إلى هزائم على أيدى المسلمين.

وقد نزل أسامة بجيشه فى منطقة البلقاء بعد مسيرة عشرين يوما حيث تقع مؤتة وقضى على كل من وقف فى وجهه من أعداء الإسلام، وأحرق المدن التى قاومت، المسلمين، ولما سمع هرقل بهذه الأنباء أرسل جيشا قويا عسكر فى البلقاء ولكن المسلمين وعلى رأسهم أبى بكر الصديق لم يكونوا قد فكروا فى فتح بلاد الشام بعد.

وهكذا وفقت حملة أسامة بن زيد وثأر لأبيه الذى قتله الروم فى موقعة مؤتة عام ٨هـ/ ٦٢٩م. وقد استمرت حركة الفتوحات الإسلامية بعد ذلك حيث ولى المثنى بن حارثة إمرة الجيش ولحق به أيضا خالد بن الوليد ليتوجها لفتح بلاد فارس والعراق.

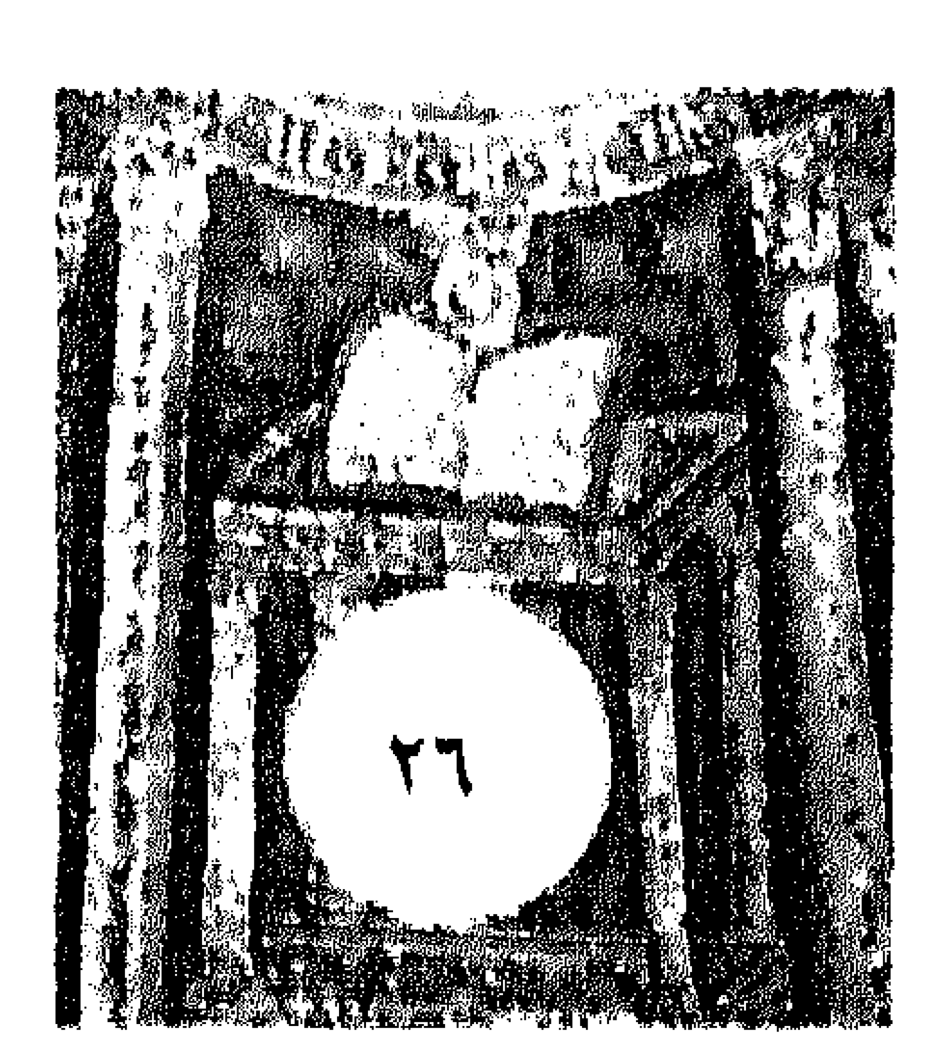


ومن الجدير بالذكر أن أبا بكر الصديق وجه الجيوش الإسلامية إلى أراضى الفرس والروم معا، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على حسن تدبير الخليفة أبو بكر الصديق وقوة عزيمته، وعلى القوة الحربية التى أصبح عليها العرب بعد انتشار الإسلام بينهم. ومن المحتمل أن السبب فى هذه السياسة ربما يرجع إلى أن أبو بكر الصديق أراد من ورائها ألا تستعين إحدى الدولتين بالأخرى، أو يعقدا معاهدات بينهما فيخرجا معا لمحاربة المسلمين.

انتهت حملة أسامة بن زيد على النحو الذى عرضناه وكان هرقل قد حشد جيوشه فى منطقة البلقاء على الحدود بين العرب والبيزنطيين، ولما علم أبو بكر بهذا أعد جيشا ضخما دعا له جميع المقاتلين المسلمين فى الجزيرة العربية، وولى إمرة هذا الجيش إلى أربعة من القادة وهم أبو عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبى سفيان، وشرحبيل بن حسنة. وكان لكل قائد منهم منطقة معينة يتجه إليها، وأمرهم أبو بكر الصديق بأن يتعاونوا سويا، وأن يكونوا جميعا تحت إمرة أبى عبيدة ابن الجراح، وأن يستقل عمرو بفتح فلسطين، وأن يدعم الجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

وقد رسم أبو بكر الصديق الخطة لعمرو بن العاص، الذى سار بمقتضاها إلى فلسطين عن طريق إيلياء ونزل بغمر العربات، ولما علم هرقل بوصول كتائب المسلمين أراد أن يتبع المبدأ الرومانى المعروف "فرق تسد" مع الجيش الإسلامى، وقد وصلت الأنباء إلى المسلمين بأن الجيوش البيزنطية تربو على المائة ألف، فأرسل عمرو عبد اللّه بن عمر فى ألف فارس داهم بهم حشدا كبيرا من الروم يقول بعض المؤرخين أنه بلغ عشرة آلاف مقاتل، وحمل بنفسه على كبيرهم فقتله؛ فانتشر الهلع والرعب بين صفوف الروم؛ وانتهى الأمر بهزيمة الروم؛ وقد قتل من المسلمين سبعة جنود بينما أسر من الروم ٦٠٠ غير القتلى. وفى الصباح أقبل على المسلمين آلاف من مقاتلى الروم فأقبل عمرو على المسلمين وأخذ يحفزهم ويقوى عزيمتهم بالإيمان ويأمرهم بقراءة القرآن، بينما جاء الروم فى محاولة يائسة منهم لتحقيق أية مكاسب عسكرية، إلا أنهم لقوا هزيمة فادحة فى هذه المعركة وفقدوا ١٥ ألفا من رجالهم، بينما كانت خسائر المسلمين ١٣٠ مقاتلا فقط.

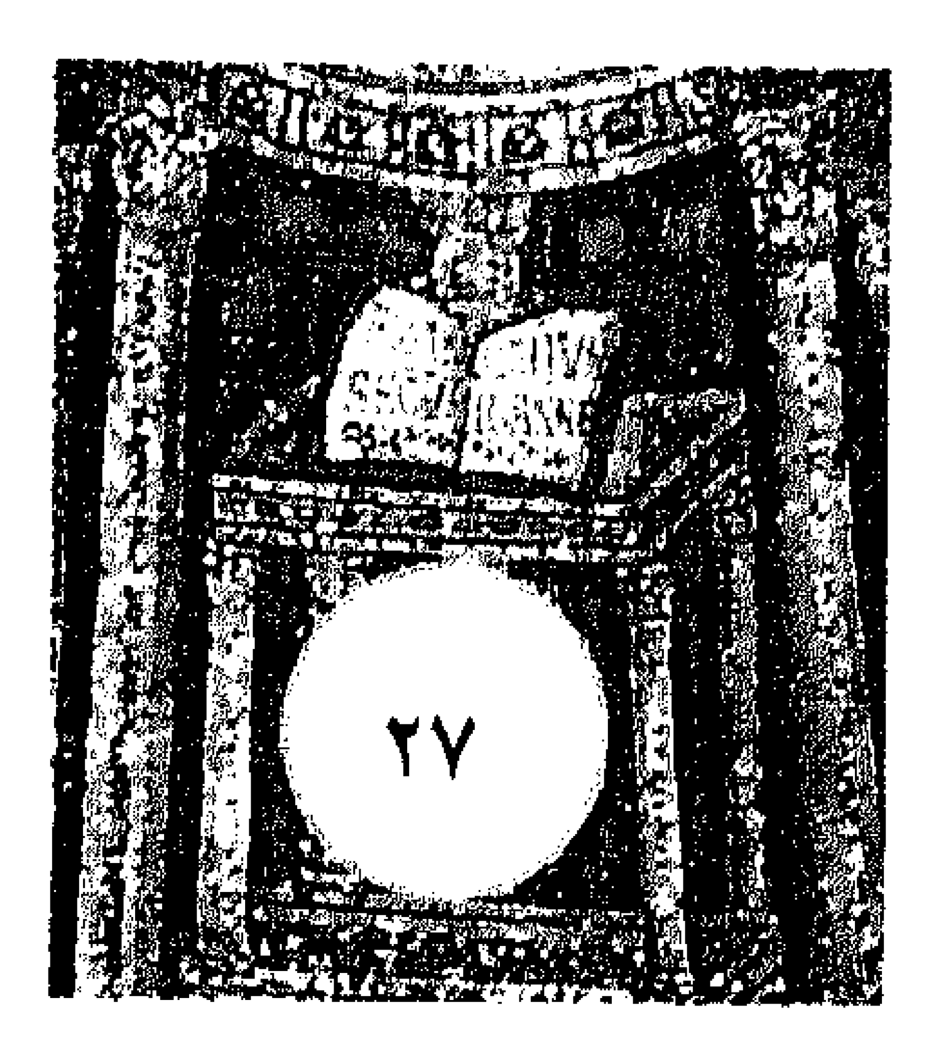
وفى الوقت الذى كان عمرو بن العاص يفتح فلسطين كان أبو عبيدة بن الجراح يجاهد بجيوشه فى بلاد الشام محاولا فتح مدنها، ولكن بالرغم من بسالة القوات الإسلامية إلا أنها عجزت عن صد قوات الروم وخاصة الحملة التى أرسلها أبو عبيدة إلى مدينة بصرى، وهى مدينة تجارية هامة كانت حاميتها على درجة كبيرة من الشجاعة والمقاومة. وأمام هذا كله اضطر أبو عبيدة



بن الجراح أن يراسل الخليفة ليمده بالمدد والمساعدات العسكرية وأرسل الخليفة إلى خالد بن الوليد يأمره بالتوجه إلى بلاد الشام لمساعدة الجيوش العربية هناك بقيادة أبى عبيدة بن الجراح. وترك خالد بن الوليد المثنى بن حارثة فى العراق، وأخذ شطرا من جنده وتوجه إلى بلاد الشام، وقد استطاع أن يستولى على مدينة بصرى التجارية بفضل مساعدة واليها رومانوس الذى اعتنق الإسلام والذى دلهم على سرداب للدخول منه إلى المدينة. وقد شجع هذا النصر المسلمين على محاصرة دمشق فى الوقت الذى شتت فيه عمرو بن العاص شمل الجيوش البيزنطية فى فلسطين. ومع هذا أرسل هرقل أربعة جيوش بيزنطية لمحاربة جيوش المسلمين هناك. ولما علم قادة المسلمين بهذا اتفقوا على أن يجتمعوا فى اليرموك بجيوشهم ضد الجيوش البيزنطية وقد وجه إليهم الإمبراطورهرقل جيوشه التى بلغت عدة آلاف من الجنود البيزنطيين ومن والاهم من العرب الذين كانوا تحت إمرة ملك الغساسنة.

وقد أوصى هرقل ماهان قائد جيوشه بالاتصال بالمسلمين لطلب الصلح، فأرسل لهم جبلة بن الأيهم ليفاوضهم، وكان المسلمون مازالوا تحت قيادة أبى عبيدة الجراح الذى رفض مطالب

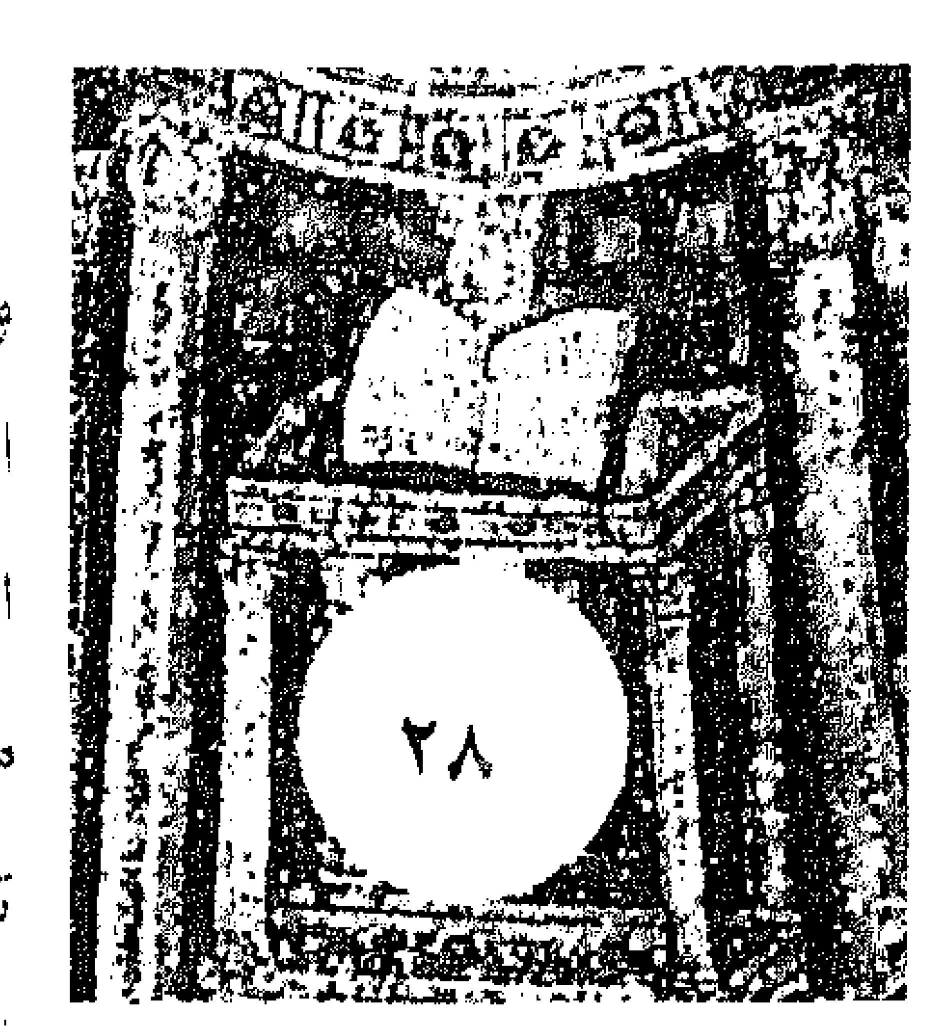
ضريح أبى عبيدة بن الجراح



الروم؛ ولم يكن خالد بن الوليد قد قدم من العراق بعد. وعندما وفد إلى الشام تولى القيادة هناك حيث رتب الجيوش الإسلامية على النحو التالى: أبو عبيدة فى قلب الجيش، وعمرو بن العاص على الميمنة، ويزيد بن أبى سفيان على الميسرة، ودارت رحى القتال بين الجانبين وظلت دائرة سجالا بينهما إلى أن جاء يوم الواقوصة، والذى اشتد فيه القتال بين المسلمين والبيزنطيين، وفيه خسرت الروم آلافا من خيرة جنودها، وأثناء المعركة مات أبو بكر الصديق وتولى الخلافة عمر بن الخطاب.

وقد انتهت هذه المعركة بنصر ساحق للمسلمين، وفى الواقع كانت معركة اليرموك حدا فاصلا بين المسلمين والروم، فقد أدى هذا النصر إلى ازدياد قوة المسلمين وتدهور الحالة المعنوية للبيزنطيين، كما لفت انتباه أباطرة بيزنطة إلى حجم القوة الإسلامية الصاعدة ومدى خطورتها على الأمن البيزنطى الداخلى والخارجى؛ وهو الأمر الذى أجبر قادة بيزنطة على القيام بإصلاحات إدارية وعسكرية لتدعم القوة الحربية لبيزنطة لصد المسلمين بعد ذلك.

رسم يصور معركة اليرموك



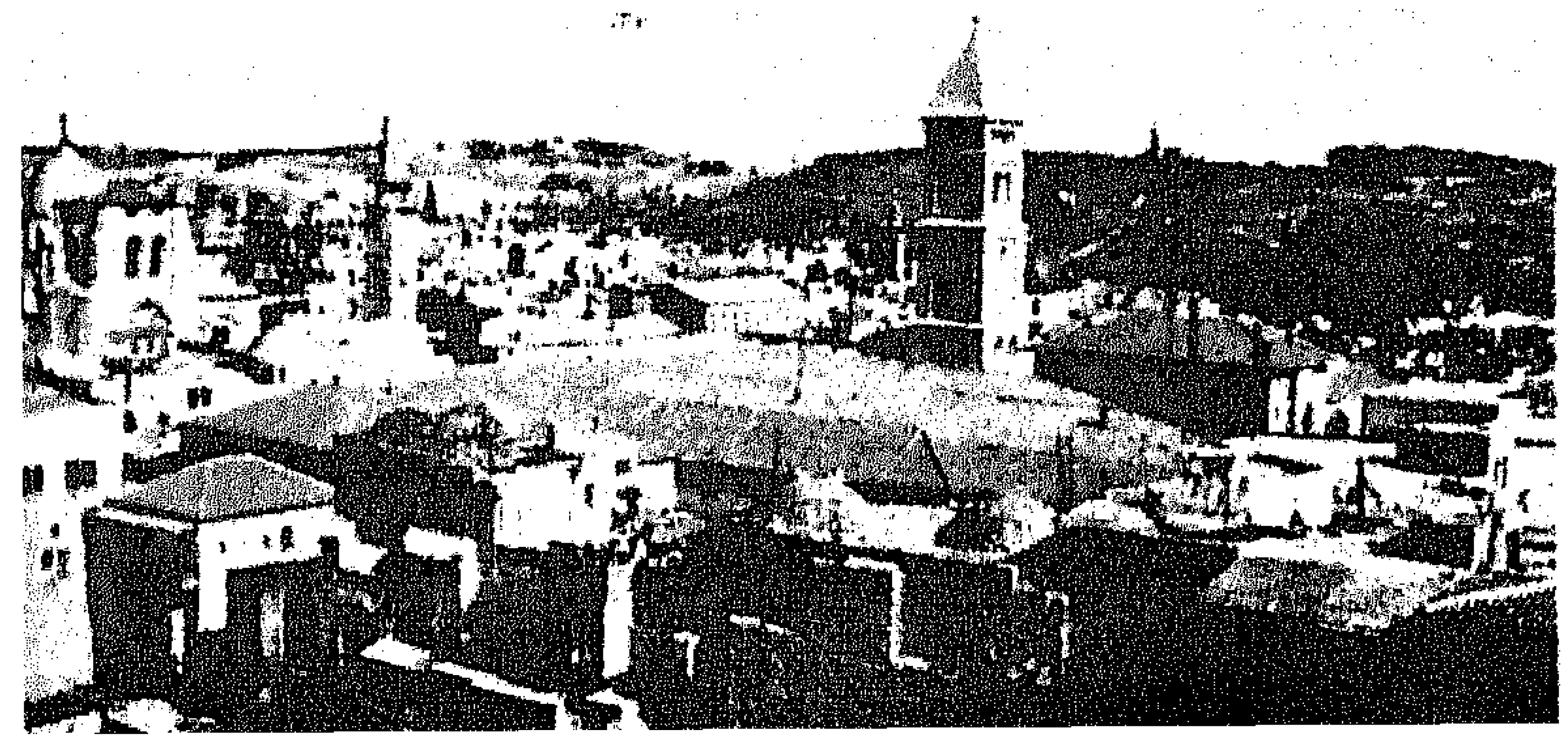
كذلك أوضحت هذه الموقعة المهمة العبقرية العسكرية الإسلامية وتجلت عظمتها في خطة خالد بن الوليد للمعركة وقضاؤه على مشكلة المياه التى كانت الشغل الشاغل للجيوش آنذاك، فقد عسكر خالد بن الوليد بالقوات الإسلامية شمال نهر اليرموك، وفطن خالد إلى ضعف موقف الروم، إذ كان النهر يدور فى الشمال على شكل نصف دائرة تقريبا، بحيث يحتضن جنوبى القوس سهلا له باب واحد من الجنوب، بينما بقية مدخله مغلق بخندق طبيعى. فسد خالد المدخل الجنوبى، على حين دار خلف جيش الروم، وأحكم حوله الحصار، ثم شن هجوما شديدا على جيش الروم، الذى لقى هزيمة فادحة، كما سبق القول. وقد عاد أبو عبيدة الجراح لتولى قيادة الجيش الإسلامى ثانية بعد أن تنحى خالد بن الوليد عن القيادة بأمر من عمر ابن الخطاب.

وفى المرحلة التالية من الفتح أمر عمر بن الخطاب بأن تتوجه الجيوش الإسلامية الظافرة لفتح دمشق وأن تذهب فرقا صغيرة منها لمناوشة أهل فحل، وقد استطاع المسلمون أن يستولوا على دمشق عام ١٣هـ/ ٦٣٤م بعد حصار دام سبعين يوما.

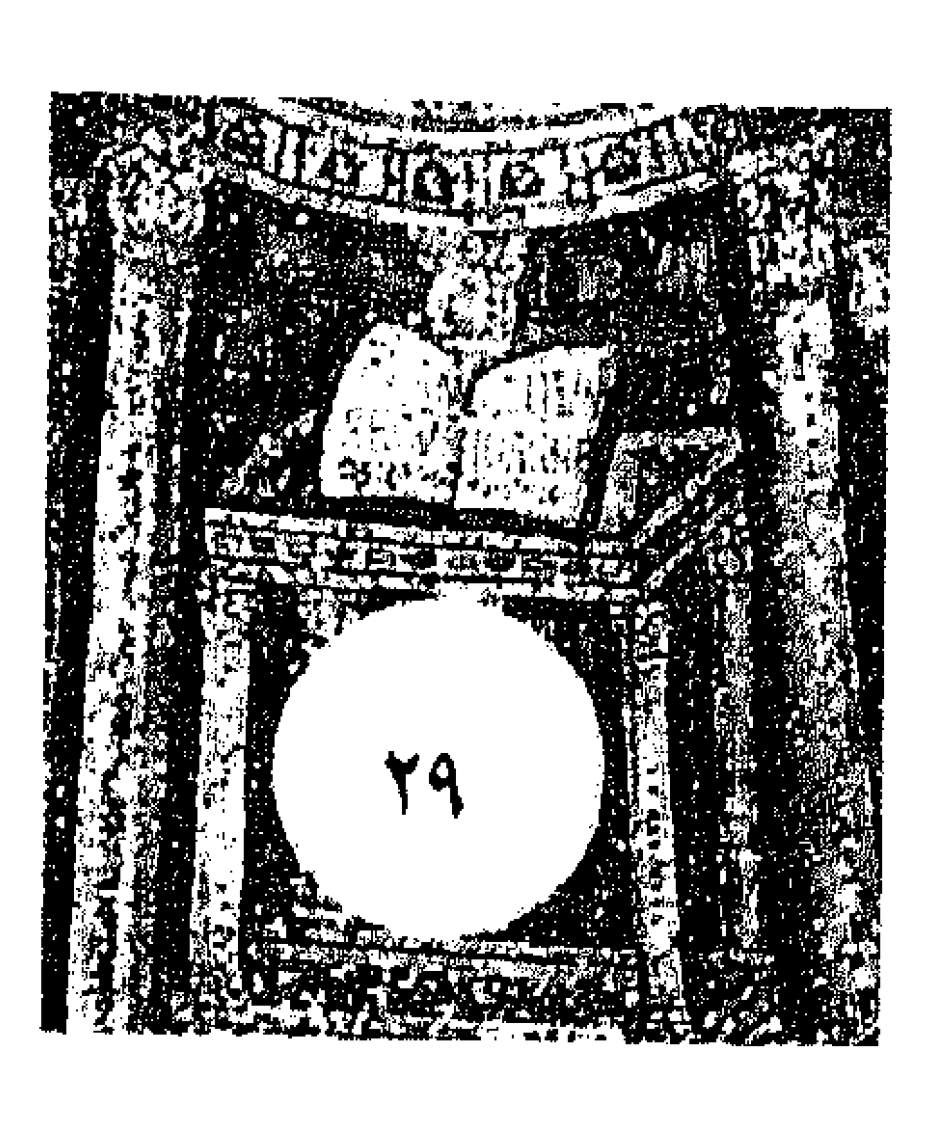
ومن الجدير بالذكر أن الإمبراطور هرقل توجه إلى مدينة حمص بعد أن وصلته أنباء الهزيمة فى اليرموك وكان ساعتها ببيت المقدس. وتقول بعض الآراء أن هرقل لما علم بهزيمة جيوشه فى اليرموك فر إلى عاصمته القسطنطينية مودعا بلاد الشام قائلا: "عليك يا سورية السلام ونعم هذا البلد للعدو".

ومن المحتمل أن هرقل انسحب إلى أنطاكية ليدير دفة الحرب من هناك كما يذكر البعض؛ لأنها كانت أقرب المدن إلى القسطنطينية وإلى أرض العمليات الحربية بالشام، على أية حال، بعد أن استولى المسلمون على دمشق توجهوا إلى منطقة فحل فى الأردن، ودارت معارك فحل بيان التى انتهت بنصر المسلمين وبسط نفوذهم على تلك المناطق وبعدها استولى المسلمون على حمص، واللاذقية وقنسرين. وكانت موقعة فحل بيان من المواقع الهامة التى استطاع المسلمون فيها أن يتغلبوا على آلاف من البيزنطيين وتتبعوا فلولهم وأخذوا يوخزونهم بالرماح حتى أصيبوا جميعا.

واتجهت أجزاء من الجيش الإسلامى إلى فلسطين فاستولت على بيان بعد أن حاصرها المسلمون عدة أيام، ولما علم أهل طبرية بما حل بأهل فحل بيان تصالحوا مع المسلمين. وهكذا أخذ النفوذ الإسلامى فى المد مقابل انحسار النفوذ



صورة لمدينة القدس القديمة



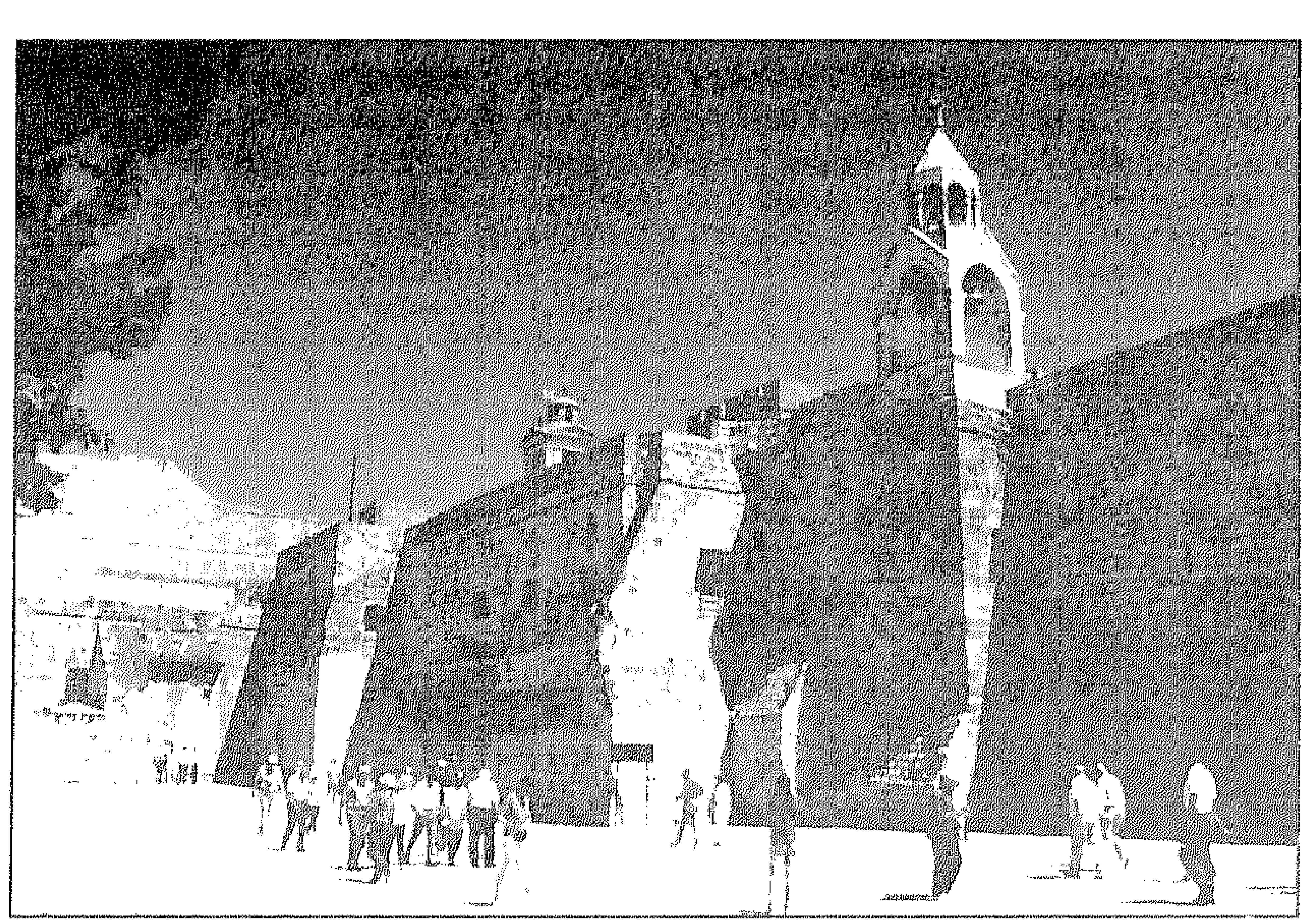

مدخل مسجد عمر بن الخطاب المجاور لكنيسة القيامة
[حيث صلى عُمر الفاروق]

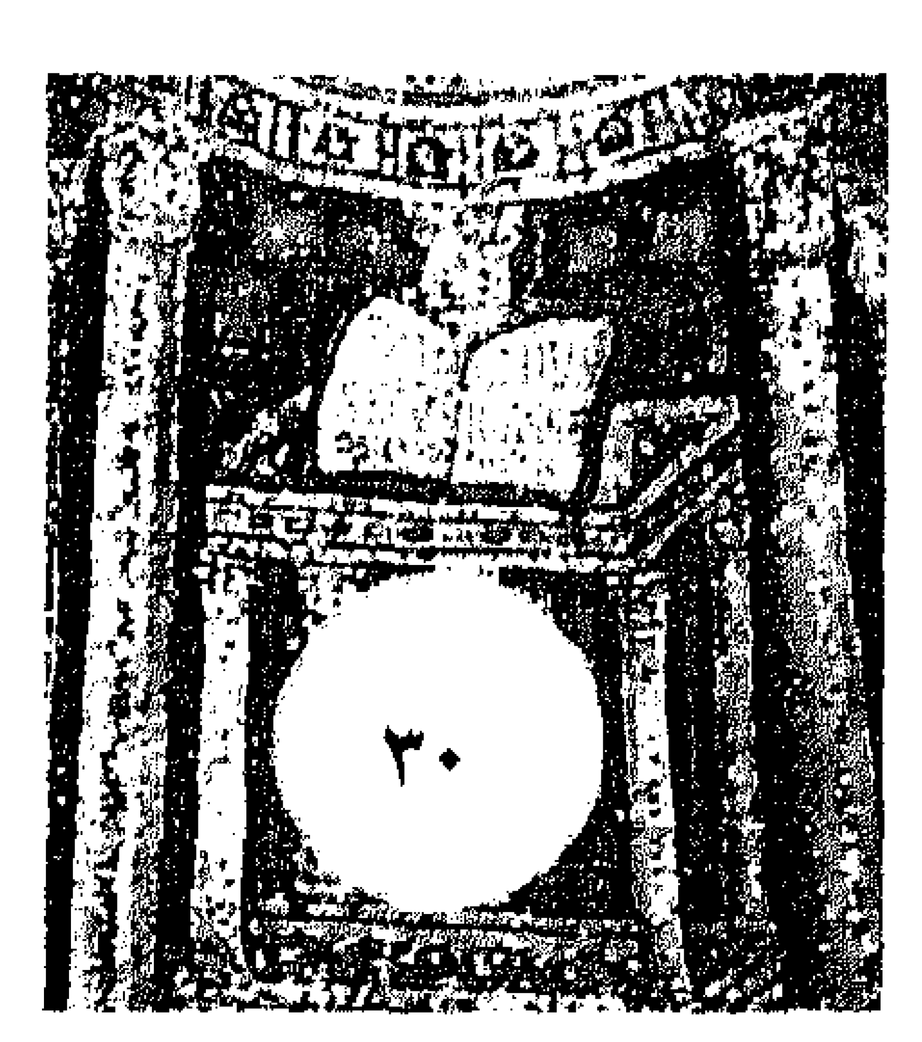
البيزنطى وتقلص القوة البيزنطية من بلاد الشام.

كان على المسلمين بعد ذلك أن يوسعوا فتوحاتهم ويؤكدوها فتوغلوا فى فلسطين؛ وكان عليها حاكما يدعى أرطبون، الذى حشد قواتا هائلة فى بيت المقدس وغزة والرملة وفى أجنادين أيضا. وقد راسل عمرو بن العاص عمر بن الخطاب يستشيره فى الأمر فقال عمر,"قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عما تنفرج"؟ وكتب

إلى القواد أن يسيرو
إلى قيصرية والرملة
وإيلياء ليشغلو
الروم عن عمرو.

ودارت رحى
الحرب بين الفريقين
فى أجنادين وكان
النصر حليف
المسلمين فيها بعد
أن اقتتلوا قتالا عنيفا
لا يقل عن

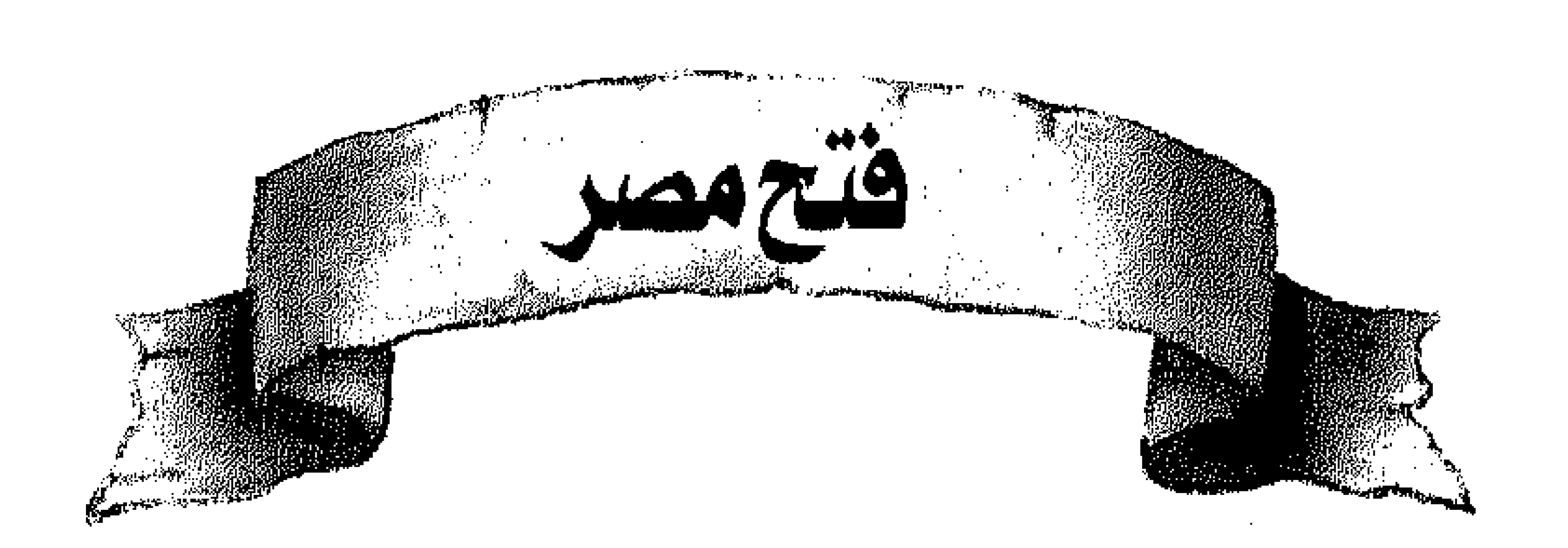

كنيسة المهد التى يقصدها المسيحيون



اليرموك، وانهزم البيزنطيون وعلى رأسهم أرطبون فى ثمانين ألف من جنده، حسب تقديرات بعض المؤرخين العرب. لم يتبق أمام المسلمين فى فلسطين إلا بيت المقدس، الذى أبى أرطبون أن يسلمه للمسلمين، فاضطر المسلمون إلى حصار هذه المدينة، وخاف المسيحيون على كنائسهم، وأنه لا مفر من الهزيمة لو اصطدموا بالمسلمين فآثر أمراء المدينة وعلى رأسهم البطريرك صفرونيوس السلام مع المسلمين، وبالفعل تم الاتفاق بين الجانبين على هذا بشرط أن يحضر عمر بن الخطاب بنفسه إلى بيت المقدس ليتسلم مفاتيحها شخصيا. ولبى عمر بن الخطاب طلب البطريرك صفرونيوس وذهب إلى فلسطين وتسلم مفاتيح بيت المقدس بعد أن وعد المسيحيين هناك بالأمان.

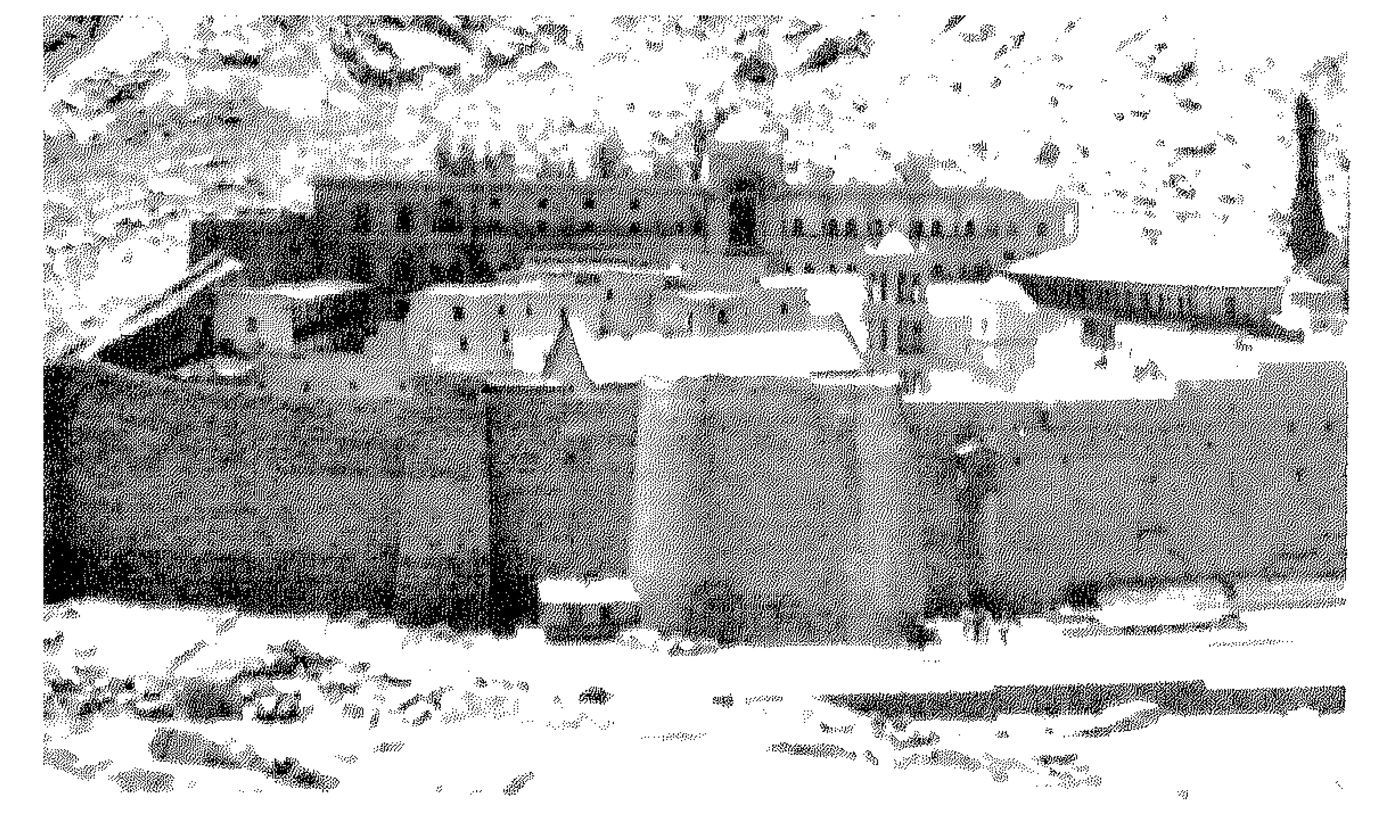
وهكذا، تم فتح إيلياء فى عام ١٦هـ/ ٦٣٧م، وبعد ذلك بقى هناك دور من دور المواجهة بين المسلمين والبيزنطيين عند بلدة قيصرية، حيث أرسل هرقل ابنه قسطنطين بجيش كثيف، وكان معسكرا بأنطاكية آنذاك؛ غير أن الخوف والرهبة من المسلمين كانا عاملين أساسيين من عوامل انتصار المسلمين على الروم، علاوة على هروب قسطنطين من قيصرية بعد أن علم بانسحاب أبيه من أنطاكية وسلم الجند للمسلمين بعد أن علموا بهرب أميرهم إلى القسطنطينية.

لقد كتب على الإمبراطور هرقل أن يشهد ضياع أملاك إمبراطوريته واحدة تلو الأخرى علاوة على الأحوال الاقتصادية المتردية داخل دولته وهجمات القبائل السلافية على حدوده الغربية من حين لآخر مشكلة عدوا جديدا لبيزنطه. وهكذا قضى المسلمون على النفوذ البيزنطى فى بلاد الشام مقابل انحسار النفوذ البيزنطى فيها بسرعة غير متوقعة؛ الأمر الذى مهد إلى انتشار الإسلام بين مسيحيى بلاد الشام وفلسطين، الذين كانوا يخالفون كنيسة القسطنطينية فى مذهبها الدينى.



فتح مصر

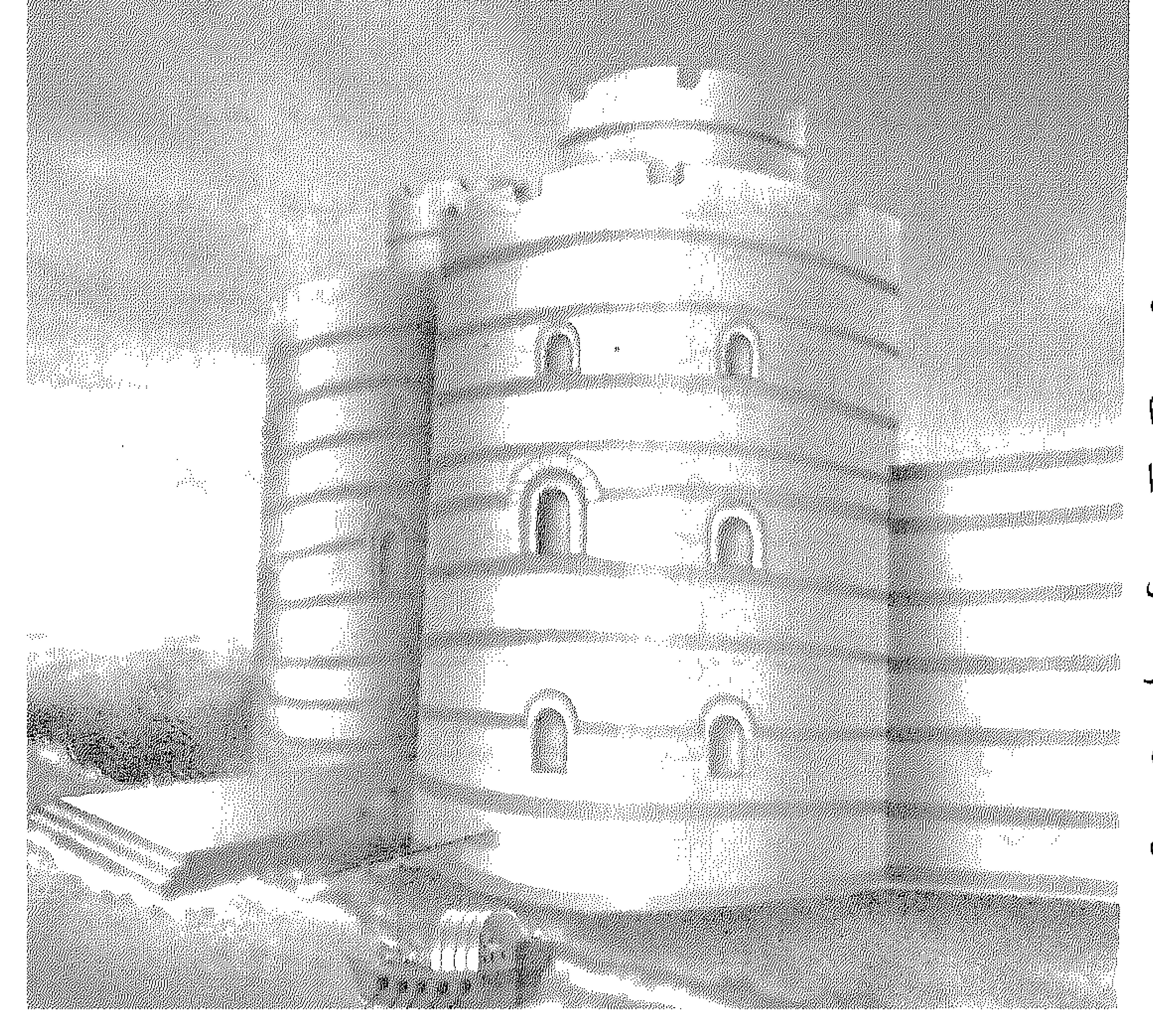
كان على المسلمين أن يأمنوا فتوحاتهم فى بلاد الشام وفلسطين وفارس، وذلك بالاستيلاء على مصر، وتخليصها من الوجود البيزنطى، الذى كان يمقته المصريون. لقد كانت مصر بالنسبة للعرب آنذاك نقطة الانطلاق التالية فى الفتوحات الإسلامية، لا سيما نحو ولاية إفريقية البيزنطية، مهد الإمبراطور هرقل؛ كما أنها القلب الاقتصادى الذى كان يضخ ما بين ٨-٩ مليون أردب من القمح إلى أسواق وصوامع العاصمة البيزنطية سنويا، بالإضافة إلى الجبايات النقدية التى بلغت فى عهد المقوقس عشرين مليونا من الدينارات سنويا على حد ذكر ابن عبد الحكم وشيخ المؤرخين تقى الدين المقريزى.



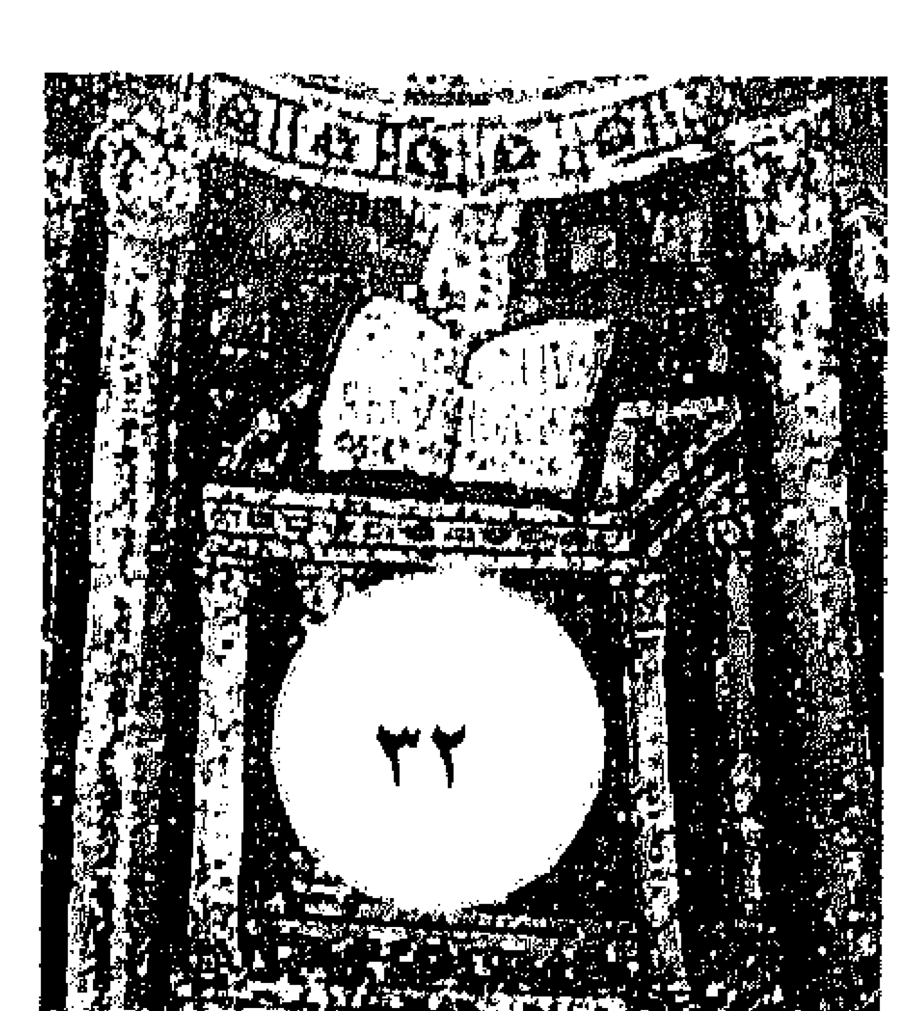
دير سانت كاترين– الذى أمر ببنائه (جستنيان الأول)

تذكر المصادر التاريخية أنه لما كان عمر بن الخطاب فى مؤتمر الجابية بالشام أشار عليه عمرو بن العاص بفتح مصر وأخذ يحبب إليه فتح مصر ويسهله أمامه كى يأذن له بالخروج إليها. وتردد عمر بن الخطاب فى الإذن له بذلك لعدة أسباب: منها أن عمر بن الخطاب تردد فى الموافقة على هذا الأمر وأشفق على المسلمين من أن يصيبهم الإخفاق، بالإضافة إلى أنه لن يستطيع أن يجمع لفتح هذه البلاد جيشا كبيرا لتفرق جند المسلمين فى بلاد الشام والجزيرة وفارس؛ أضف إلى ذلك ما كان يخشاه عمر من التوسع فى الفتح وخاصة أن أقدام المسلمين لم تثبت بعد فى البلاد التى فتحوها ولم يزل عمرو يهون عليه فتحها ويعظم أمرها طمعا فيها ورغبة فى خيراتها، لأنه وقف بنفسه على أحوالها فى الجاهلية عند قدومه إليها للتجارة عدة مرات، وعرف خصب أرضها ووفرة خيراتها؛ كما بين لعمر أن استيلاء المسلمين عليها معناه تثبيت فتوحهم فى بلاد الشام وفلسطين وتأمينها من ناحية الجنوب. ويذكر أحد المؤرخين أن تردد عمر ابن الخطاب فى الإذن لعمرو بالسير إلى مصر لم يكن فى فتح مصر نفسه بقدر ما كان فى شخص القائد.

رسم تخيلى لحصن بابليون زمن الفتح العربى

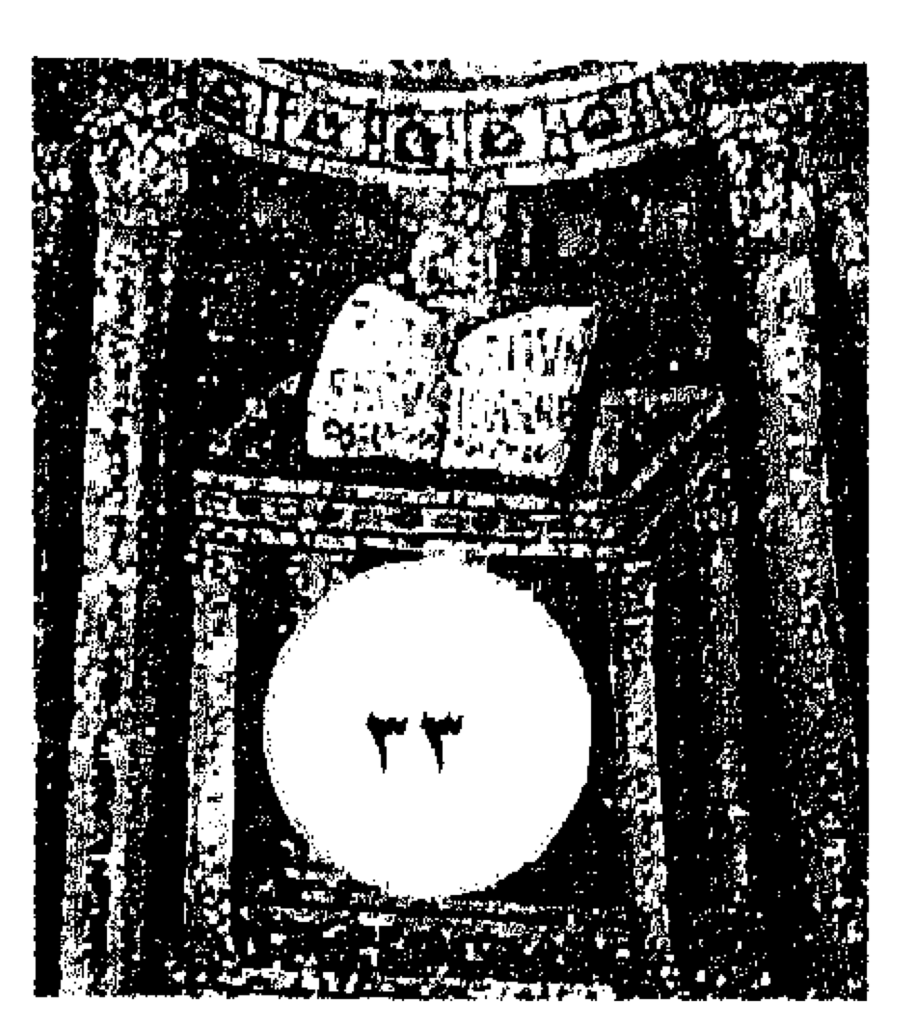


ويقول المؤرخ سانت موس أن العرب أرسلوا حملة سبقت جيوشهم المتجهة إلى مصر، لكن يبدو أن هذا القول بعيد عن الحقيقة، لافتقاره إلى البراهين التاريخية. ولم يزل عمرو بعمر حتى أذن له بأربعة آلاف مقاتل، وفى رواية أخرى خمسة آلاف مقاتل،



وقال لعمرو: "إنى مرسل لك كتابا فإن أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض واستعن بالله واستنصره". وعلى الرغم من وصول كتاب عمر إلى عمرو وهو فى طريقه إلى مصر فإنه لم يفتحه ليقرأ ما فيه إلا بعد أن دخل حدود مصر عند العريش.

لقد اجتاز جيش المسلمين حدود مصر عام ١٨هـ/ ٦٣٩م واستولى على الفرما (بلوزيوم) بعد أن فاجأ الحامية البيزنطية فيها. ثم اتجه إلى بلبيس وهزم الحاميات البيزنطية هناك والتى كانت تحت قيادة أرطبون السالف ذكره، ثم تقدم واستولى على قرية أم دنين، ومكانها الآن الأزبكية بالقاهرة، ودارت المعارك هناك بين الجانبين فلما أبطأ الفتح، أرسل عمرو بن العاص طالبا المدد العسكرى من الخليفة فأمده بأربعة آلاف مقاتل يرأسهم مجموعة عظيمة من قادة المسلمين والصحابة. واستطاع المسلمون أن يوقعوا الهزيمة بالقوات البيزنطية فى تلك المناطق، حيث فروا إلى حصن بابليون، أو قصر الشمع، كما يسميه البعض؛ فحاصر المسلمون بدورهم هذا الحصن. وكان المسلمون آنذاك يفتقرون إلى أدوات الحصار؛ لذا كان حصارهم له حصارا بدائيا، أى أنهم تراصوا حول الحصن فى محاولة لمنع خروج أى أحد منه؛ ولم يستمر الأمر طويلا فقد دارت معارك عديدة بين الطرفين كان يعود بعدها البيزنطيون لائذين داخل الحصن، وسرعان ما دارت المفاوضات بين الجانبين وخاصة بعد أن رأى المقوقس أو قيرس ضرورة ذلك؛ وكان رد المسلمين على هذه المفاوضات يتلخص فى ثلاثة أمور: الدخول فى الإسلام أو الجزية أو السيف فاختار البيزنطيون السيف؛ وعادت الحرب بينهم ثانية. وفى النهاية اضطر قيرس أو المقوقس إلى عقد معاهدة سميت باسم معاهدة بابليون الأولى، وربطها بموافقة هرقل عليها، وكانت خاصة بقبط مصر، ولكن هرقل رفضها واستدعى قيرس إلى القسطنطينية ليحقق معه فى ذلك، وأمر قواده باستكمال القتال؛ ولكن كان المسلمون قد استولوا على الحصن ولم يعد هناك مفر من التسليم، ورحلوا إلى الإسكندرية خلال ثلاثة أيام. وبهذا بسط المسلمون نفوذهم على مصر السفلى ومصر الوسطى كمرحلة أولى. وعاود البيزنطيون المعارك ثانية فى الإسكندرية بعد أن بادر هرقل بإرسال جيش ومدد يحول دون وقوعها فى أيدى المسلمين، وتقاتل الفريقان قتالا عنيفا على مدى أربعة أشهر حاصر فيها المسلمون الإسكندرية؛ وتم فتح الإسكندرية عنوة وتصالح المسلمون مع أهلها، وعقد قيرس أو المقوقس صلحا سمى باسم صلح الإسكندرية أو معاهدة بابليون الثانية.

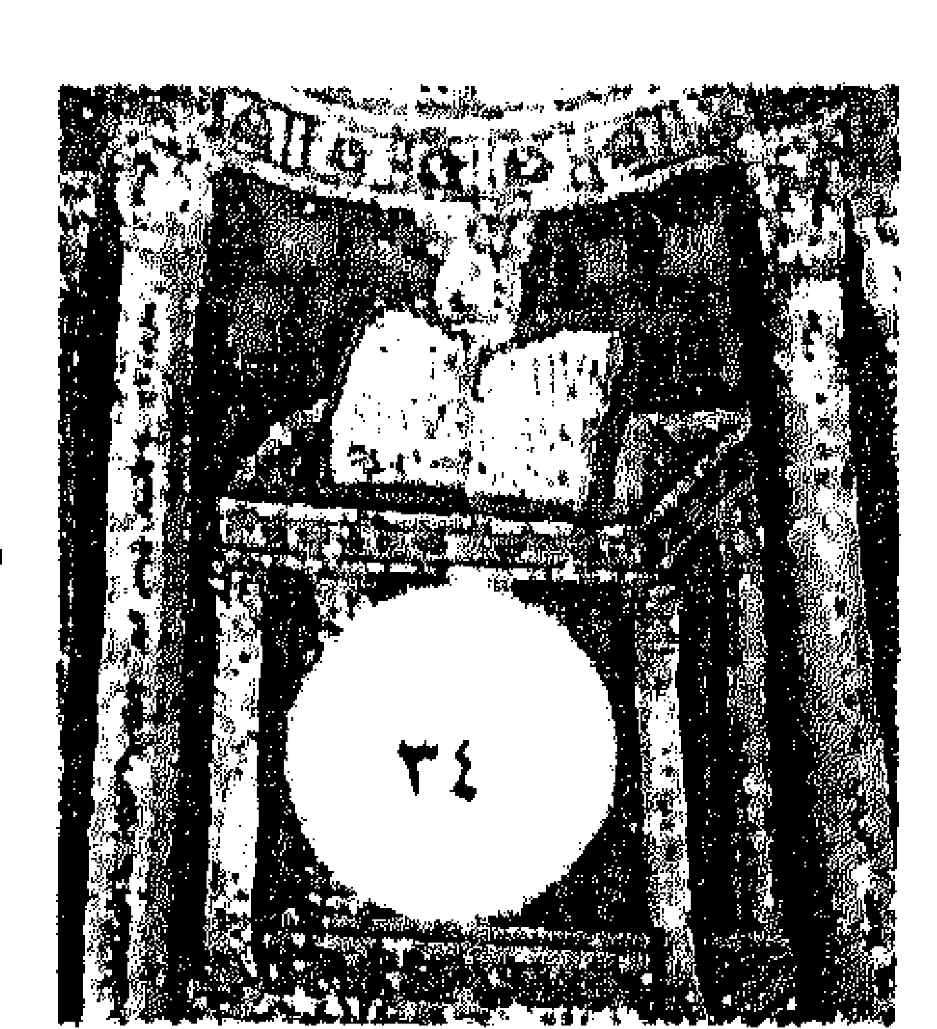


لقد لعب الصراع المذهبى الكنسى بين كنيستى القسطنطينية والإسكندرية دورا هاما فى ترحيب المصريين بدخول المسلمين بما عرف عنهم من التسامح الدينى والعدل والخلق الكريم وبكل ما يقضى به الإسلام وعمل به المسلمون. فقد أراد هرقل أن يفرض مذهب الاتحاد عنوة على شعوب مصر والشام وفلسطين، لكنه فشل فى هذا، مما جر نقمة سكان هذه البلاد عليه. ومن الجدير بالذكر أن الأقباط سهلوا للعرب فتح مصر وهو ما أدخل بارقة أمل فى نفوس المصريين للتخلص من الصراع المذهبى ومن ربقة الكنيسة الشرقية الكائنة بالقسطنطينية. علاوة على أن بيزنطة كان شغلها الشاغل هو تحصيل أكبر قدر ممكن من ثروات مصر وإيداعها الخزانة البيزنطية.

وبضياع مصر من أيدى البيزنطيين كتب عليهم أن يدخلوا مع المسلمين فى دور من أدوار المواجهة الطويلة المضنية، التى كانت قوتها تتوقف على قوة الأباطرة والخلفاء وسياساتهم إزاء كليهما.

وبعد هذه المرحلة من الفتوحات، قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عام ٢٣هـ/ ٦٤٣م، ليتولى حكم الدولة الإسلامية بعده عثمان بن عفان؛ الذى لعب فى عهده والى الشام معاوية بن أبى سفيان دورا مهما فى الفتوحات الإسلامية لبلاد الروم، وفى توطيد وتوسيع دائرة الدولة الإسلامية. كان معاوية بن أبى سفيان قد تولى ولاية الشام منذ عهد عمر بن الخطاب، وأخذ يوطد لنفوذه هناك خاصة بعد أن تولى الخلافة أحد أقربائه وهو عثمان بن عفان، الذى اتبع سياسة تقريب الأقرباء والتى أودت بحياته فى نهاية المطاف.

وقبل أن نتحدث عن الفتوحات الإسلامية أو دور المواجهة بين المسلمين والبيزنطيين فى عهد الخليفة عثمان بن عفان، من الضرورى أن نشير إلى الملبس الذى أثير حول شخصية قيرس أو المقوقس عظيم القبط فى مصر، فالبعض يرى أن الاسمين لشخص واحد كان يحكم مصر من قبل الإمبراطور هرقل، والبعض الآخر يرى أن الاسمين لشخصين مختلفين. ومن المحتمل أن يكون الرأى الأخير هو الأقرب إلى الحقيقة لعدة أسباب، فمن المعروف أن هرقل قد أرسل قيرس إلى مصر لينفذ رغبة الإمبراطور فى كف الجدل عن طبيعة السيد المسيح، ونشر مذهب الاتحاد الهرقلى. وتذكر المصادر العربية أن المصريين عرفوا قيرس باسم المقوقس.



أولا: كان كتاب الرسول ﷺ إليه يبدأ بـ"من محمد رسول الله ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر. . . إلخ" كما أورده الطبرى وغيره من المؤرخين. كذلك أورد أن المقوقس أكرم بعثة النبى ﷺ، ونحن نعرف أن قيرس جاء لمصر لينشر المذهب الهرقلى، ولينهى الجدل حول طبيعة المسيح عليه السلام. ولو كان قيرس هو المقوقس لاتبع نفس ما فعله هرقل من رفضه لدعوة الرسول ﷺ وعدم إظهار تقبله.

ثانيا: أن المقوقس حينما عقد الهدنة مع المسلمين نص فى معاهدة الصلح على أن هذه المعاهدة خاصة بأهل مصر، أى الأقباط وليست خاصة بالروم وأهل مصر معا.

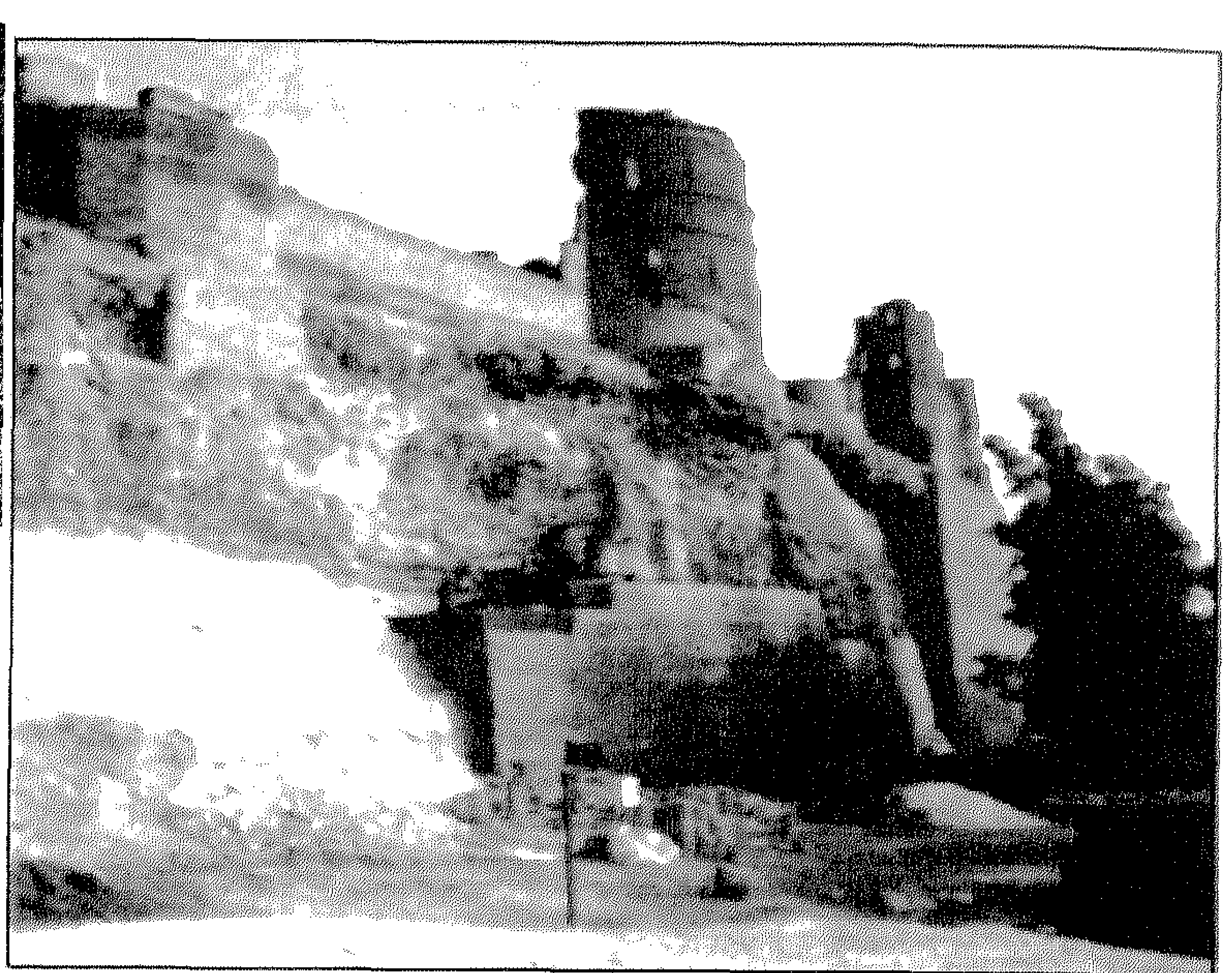
ثالثا: أن محمدا ﷺ أرسل كتابه إلى المقوقس، عظيم القبط فى عام ٧هـ/ ٦٢٨م، بينما تولى قيرس بطريركية الإسكندرية عام سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م أى بعد كتاب الرسول ﷺ بأربع سنوات. وربما كان المقوقس يتزعم القبط إبان الغزو الفارسى لمصر وحتى عام ١١هـ/ ٦٣٢م.

رابعا: أن المصريين يكرهون البيزنطيين أشد الكره لسوء معاملتهم لهم ولسوء أحوالهم الاقتصادية، الأمر الذى جعلهم يرحبون بقدوم العرب إلى مصر.

خامسا: كان ما يهم هرقل هو مصر وقواته من الروم فيها، وليس أهلها؛ لذا بعث إلى قيرس وعنفه على قبول دفع الجزية وعقده معاهدة صلح مع المسلمين، واستدعاه إلى القسطنطينية وأمر قواده بمعاودة القتال؛ لكن كان العرب قد استولوا على حصن بابليون Babylion وعقدوا معاهدة ثانية بالإسكندرية، أورد شروطها يوحنا النقيوسى Jean of Nikiou.

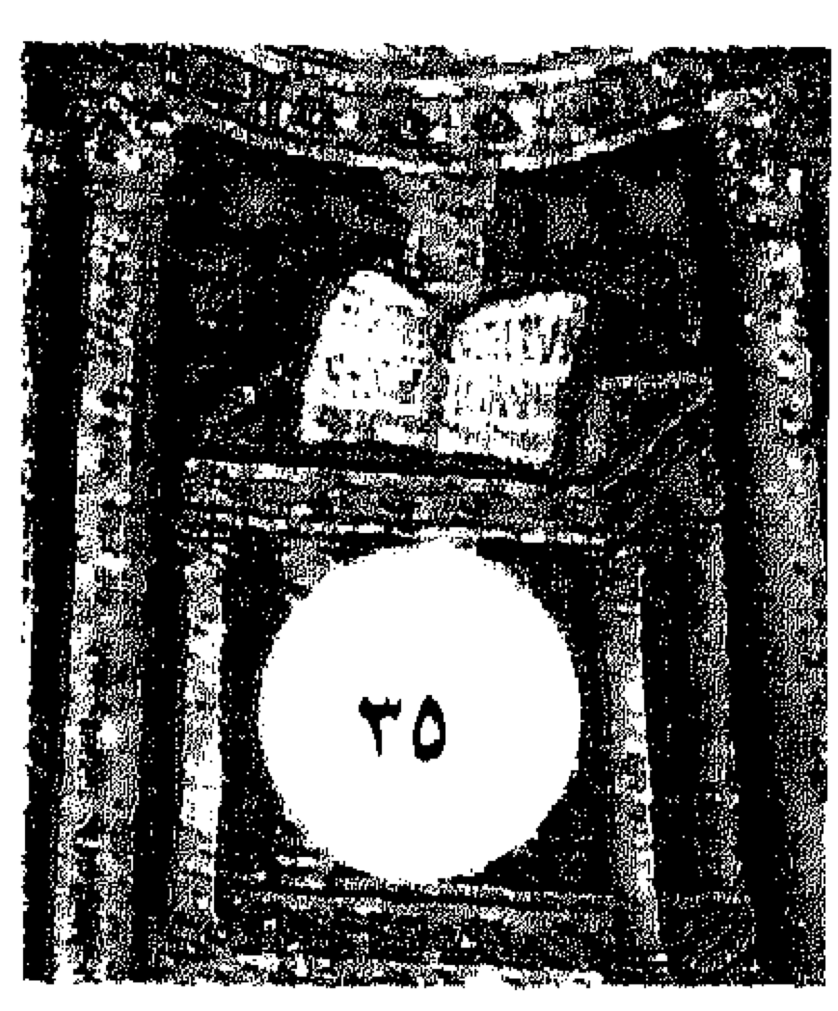


برجى الكنيسة المعلقة المبنية على أحد أبراج حصن بابليون





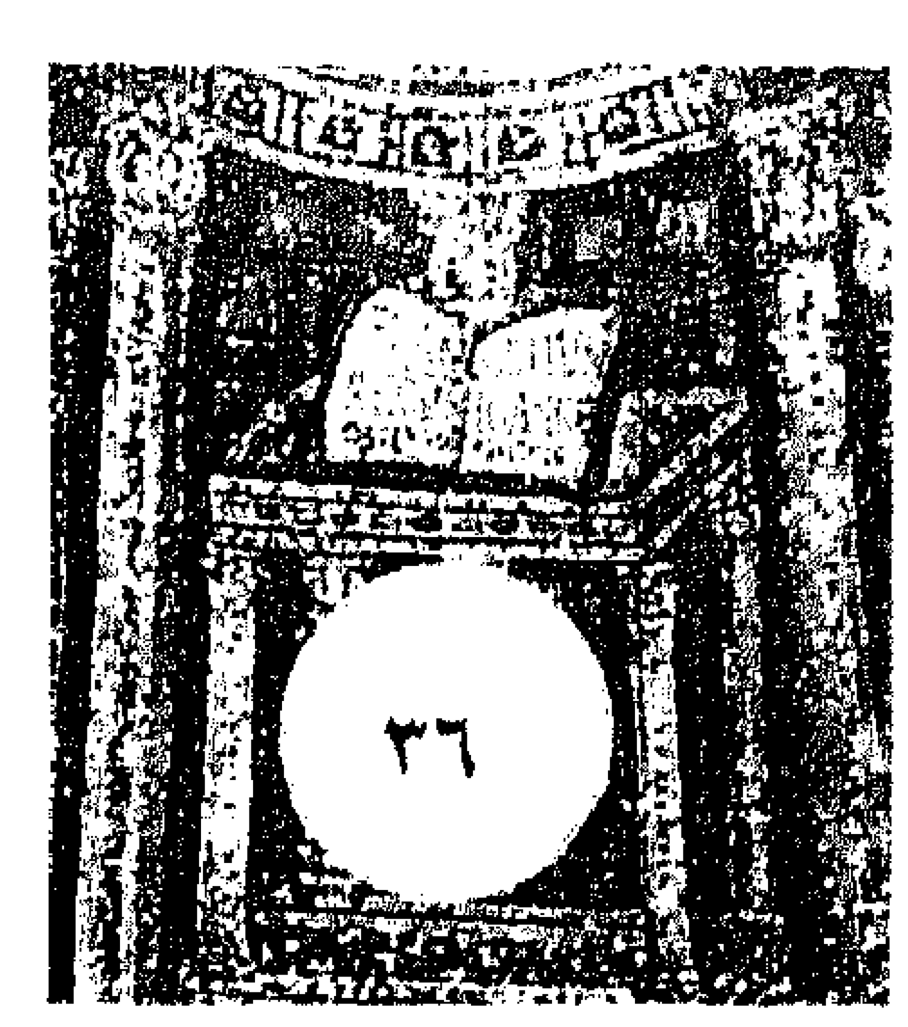
قلعة جعبر التى بناها المسلمون لمقاومة الروم فى بلاد الشام



جدير بالذكر أن عمرو بن العاص استطاع أن يفتح برقة بليبيا صلحا التى كانت بمثابة البوابة الغربية لمصر وفتح طرابلس عنوة عام ٢٢هـ/ ٦٤٢م؛ ثم بعث نافع بن عبد القيس الفهرى إلى بلاد النوبة؛ ولما ولى إمرة مصر عبد اللّٰه بن أبى السرح فكر فى غزو أفريقيا، وكانت خاضعة للنفوذ البيزنطى، فاستأذن عثمان بن عفان، وأرسل إليه الخليفة جيشا ضخما يضم كثيرا من الصحابة، وسار هذا الجيش إلى أفريقية. وسرعان ما انقطعت أخباره عن مركز الخلافة فأرسل عثمان بن عفان جماعة على رأسهم عبد اللّٰه بن الزبير ليوافوه بالأخبار، واستطاع بن الزبير أن يغير ويجدد من خطة عبد اللّٰه بن أبى السرح فى القتال، واستطاع المسلمون أن ينتصروا على العدو ويغنموا غنائم لا حد لها.

وتجدر الإشارة إلى أن البيزنطيين حاولوا استرداد مصر من أيدى العرب فى عام ٢٥م/ ٦٤٥م، ففى ولاية عبد اللّٰه بن أبى السرح كتب أهل الإسكندرية إلى الإمبراطور قنسطانز يهونون عليه فتح الإسكندرية لقلة عدد الحاميات الإسلامية بها، فأرسل حملة بحرية قوامها ثلثمائة سفينة يرأسها قائده مانويل إلى الإسكندرية. وبالفعل استطاع هذا الجيش أن يستولى على الإسكندرية حتى بلغ مدينة نقيوس وعاث فى الأرض فسادا؛ ودار القتال بين المسلمين والبيزنطيين برا وبحرا، إلى أن انتصر المسلمون فى النهاية، وخاب أمل الإمبراطور فى استرداد مصر ثانية، وهكذا ضاعت منه إلى الأبد ودخلت دار الإسلام.

أما فى بلاد الشام فقد استطاع واليها معاوية بن أبى سفيان أن يثبت أقدام الإسلام والمسلمين هناك بفضل سياسته وبفضل إخضاع المدن الساحلية للمسلمين، التى كانت تتلقى العون والمدد

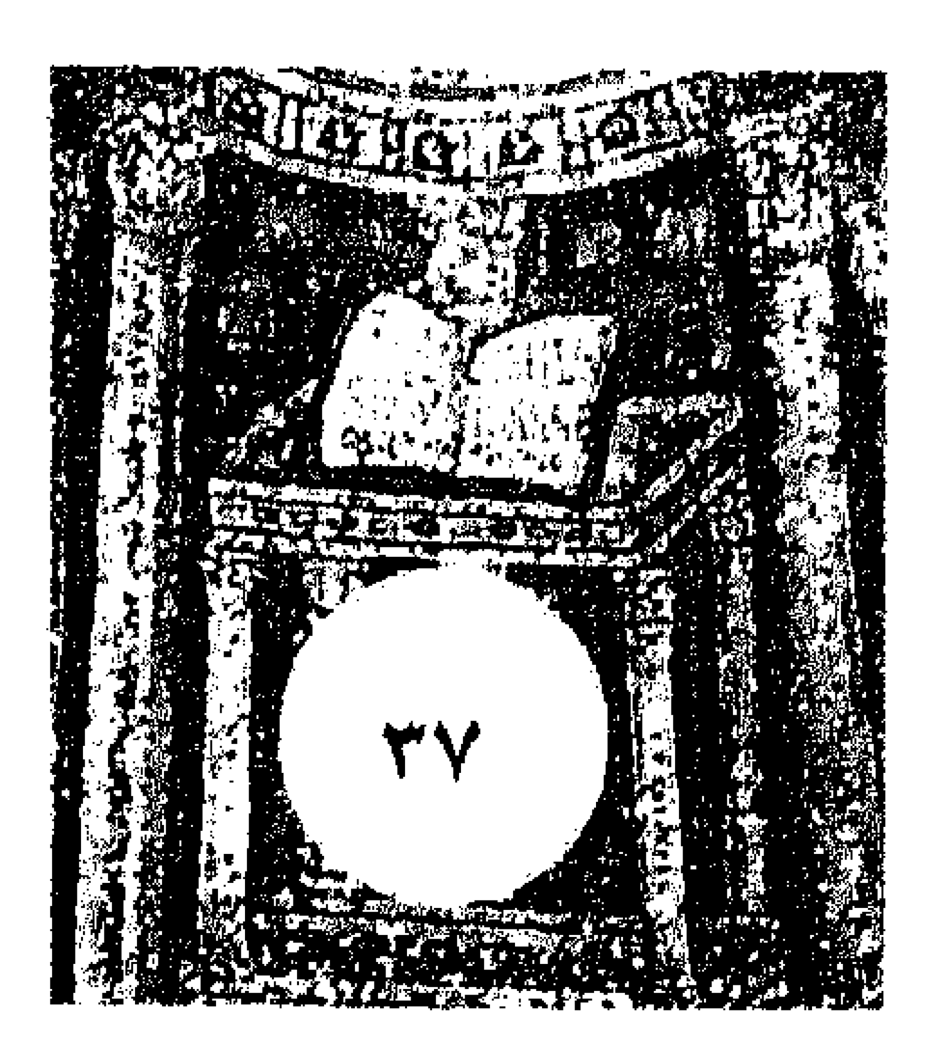


البيزنطى عبر البحر المتوسط، فكان عليه أن يسد هذه الثغرة. وبالفعل أظهر معاوية ضروبا عديدة من ضروب الشجاعة والذكاء فى فتح هذه المدن مثل قيصرية، وطرابلس. وكان فى كل مرة يستأذن الخليفة فى فتح بقية المدن الأخرى، وقد استطاع أن يفتح قيصرية عام ١٩هـ / ٦٤٠م ثم اتجه إلى حصار مدينة عسقلان وكان هذه المدينة ذات حصانة شديدة واستولى عليها معاوية بعد عقد صلح مع أهلها. وفى أواخر عهد الخليفة عمر بن الخطاب بدأ البيزنطيون فى شن هجمات عسكرية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أملاك الإمبراطورية، إلا أن المدن الإسلامية تمكنت من صد هذه الهجمات بفضل التحصينات التى أقامها معاوية بها وبفضل شجاعة الحاميات الإسلامية.

وقد أطلق الخليفة عثمان بن عفان العنان لمعاوية بن أبى سفيان فى فتح بقية مدن الشام فاتجه معاوية إلى طرابلس، وهى مدينة تمتاز بحصانة طبيعية ممتازة علاوة على الإمدادات البيزنطية لها بحرا، ثم قوة حصونها المقامة حولها، واستطاع المسلمون أن يستولوا على هذه المدينة بعد أن هرب سكانها منها من شدة الحصار الإسلامى وقسوته وكان هذا نصرا عظيما للمسلمين. وبفضل استيلاء معاوية على هذه المدن أمن الجنود المسلمون على أنفسهم ورتبوا جيوشهم. واستطاع معاوية أن يتخلص من العصبية القبلية بين المسلمين بالشام والتى كادت أن تفت فى عضد الإسلام والمسلمين وبفضل دهاء معاوية وحسن تصريفه للأمور استطاع أن يوحد العرب ثانية هناك، ثم انتقل معاوية من تنظيم أهله وجيشه إلى إعداد هيئة استشارية خاصة به تقوم بتنفيذ أعماله الحربية ضد بيزنطة، وكان اختيار معاوية لهذه الشخصيات اختيارا دقيقا وصائبا، إذ جعلهم شيعة وجندا مخلصين له، ورجالا صناديد لا يعرفون غير الشام وطنا لهم.

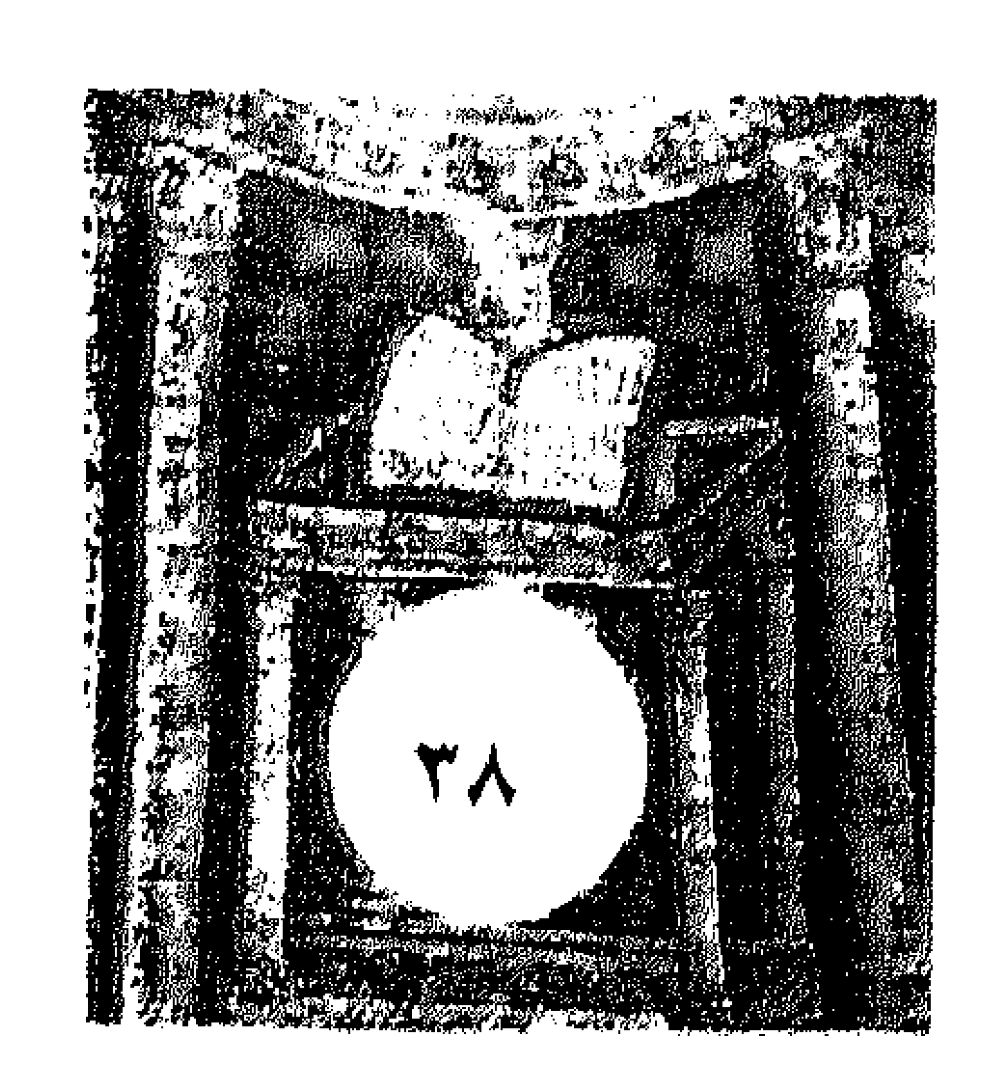
وفى تلك الأثناء مات الإمبراطور البيزنطى قسطنطين Constantine III بعد ثلاثة أشهر من حكمه للإمبراطورية وظن الناس أن مارتينا زوجة أبيه هى التى دست له السم من أجل السلطة، لهذا هب الجيش ثائرا مطالبا بتنصيب ابنه الملقب بقنسطانز Constans II على عرش الإمبراطورية، وكان عمره آنذاك أحد عشر عاما؛ وبالرغم من حداثة سنه إلا أنه كان يقظا نشطا.

وقد وضع قنسطانز الخطر الإسلامى نصب عينيه فبدأ يأمن الجبهة الداخلية بمحاولة القضاء على المشاكل الداخلية والخارجية أيضا، فاستطاع أن يخضع قبائل السلاف مرة أخرى كمعاهدين للإمبراطورية بعد أن كانوا قد بدأوا يتمردون عليها، ثم هداه عقله إلى أن يسجن البابا لكى يحل المشكلة الدينية التى أثيرت حول طبيعة السيد المسيح.



أما عن معاوية بن أبى سفيان فيعزى إليه وضع حجر الأساس أو اللبنة الأولى لبناء الأساطيل الإسلامية البحرية، فلقد أدرك أهمية السيطرة على مياه البحر المتوسط الذى كان بمثابة بحيرة بيزنطية تجوب فيه السفن البيزنطية التى اتخذت من الجزر الموجودة به قواعد لشن الهجمات على المسلمين، التى قاسى المسلمون كثيرا فى صدها، وربما استعصت بعض مدن الشام على الفتح الإسلامى لها نتيجة إمدادات الأسطول البيزنطى لها من البحر، لهذا ألح معاوية على الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فى فتح جزيرة قبرص وضمها إلى دار الإسلام إلى أن أذن له عثمان بن عفان بعد ذلك، بعد أن استطاع أن يبنى أسطولا إسلاميا قويا يمخر عباب البحر المتوسط مطاردا السفن البيزنطية. وتجدر الإشارة إلى أن العرب لم يكن لهم أيه دراية سابقة بشئون الأسطول ولا كيفية إدارته كنتيجة حتمية للحياة الصحراوية التى كانوا يحيون فيها ولكن الظروف التى وضعوا فيها جعلتهم يهتمون بمثل هذا النوع من الأسلحة وهو ما يسمى اليوم "بسلاح البحرية"، على الرغم من أن العرب كانوا يركبون البحر من قبل الإسلام كتجار إلى بلاد الهند وفارس فى سفن تجارية.

لقد راعى معاوية منذ ولايته على الشام الاهتمام بالمدن الساحلية خاصة وتقوية حصونها وتزويد هذه المدن بالقوات المحاربة وأنشأ نظاما عرف باسم «الرباط» وهو مكان يتجمع فيه الجند والركبان استعدادا لشن هجوم على أرض العدو أو صد هجوم عليهم؛ وقد استطاع معاوية أن يطور فى هذا النظام بعد ذلك، كذلك شجع الناس على الهبوط إلى المدن الساحلية ومنح كل من يرغب فى الهجرة إليها إقطاعات من الأرض يديرها لحسابه، مع كل هذه الخطوات التى اتخذها معاوية منذ أن كان واليا على الشام إلى أن أصبح مؤسس أسرة حاكمة بعد ذلك، كان يرجع الفضل إلى المسلمين أنفسهم فى عهدها أنهم الذين حققوا أغلى وأعظم الانتصارات فى تاريخ الإسلام.

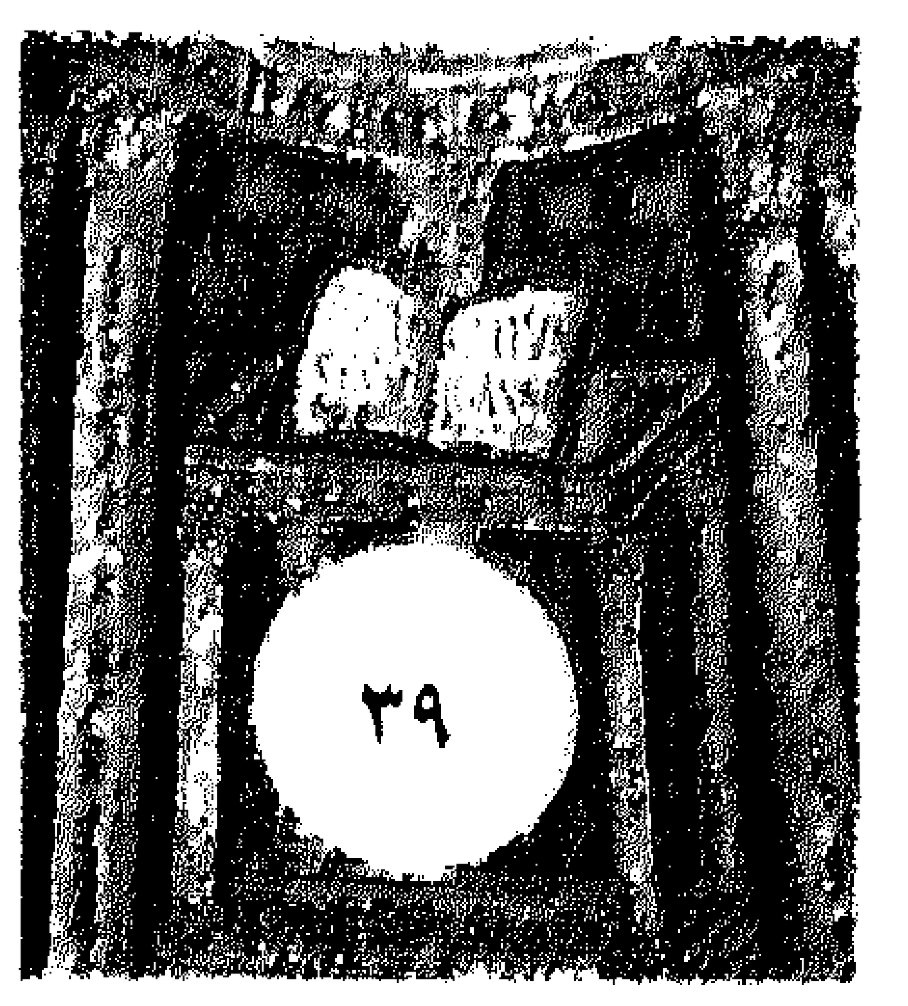




فتح قبرص

بعد أن تأكد معاوية بن أبى سفيـان من استعداداته البحرية وقوة الأسطول الإسلامى الناشئ أخـذ يلح على الخليفـة عثمـان بن عفان فى فتـح هذه الجزيرة الكائنة شمال البحـر المتوسط بالقرب من سواحل الشام، ولكن لماذا هذه الجـزيرة بالذات التى أراد معاوية فتحها؟ يبـدو أن هذه الجزيرة كانت ذات مركز إستراتيجى على درجة كبـيرة من الأهمية، وكانت تحت السيادة البـيزنطية ومثلت معقل من مـعاقل الهجوم على المسلمين فى الشـام ومصر. وترجع أهمية الجزيرة أيضا إلى أن موقعها أتاح لها فرصة التحكم فى مياه الجزء الشمالى الشرقى من البحر المتوسط وقـد جعلها هذا الموقع مـوضع صراع بين القوى العظمى فـقد جعلهـا البيزنطيون قـاعدة عسـكرية هامة لشن هجـماتهم على المسلـمين وتطلع المسلمـون إليهـا ليسـتغلوها أيضـا فى هذا المضمار؛ علاوة على أنهـا كانت ذات أهمية تجارية كبيـرة وأثرت كثيرا من التجارة عبـر أراضيها.

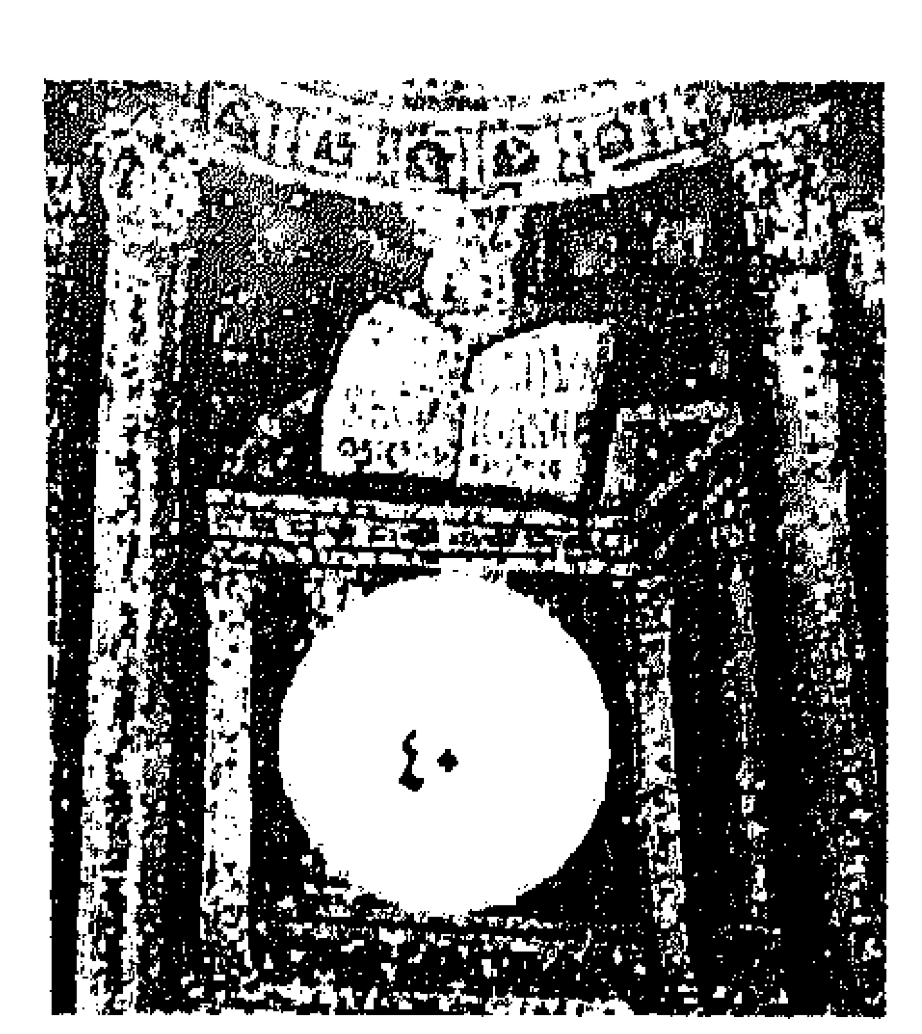
وأعد معاوية بن أبى سـفيان والى الشام حملة بحرية سنة ٢٨هـ/ ٦٤٩م لفتح الجـزيرة حيث حشد معاوية قواته فى ميناء عكا، وكانت السفن كلها من مصر، على حين اشترك من الجند العربى كبار رجال الشام وغـيرهم من مشاهير قـادة العرب وقد اصطحب معـاوية معه زوجته حـسب ما أمره الخليفة، و فـاحتوت الحملة على العنصـر النسائى بذلك، وأبحرت الحملة البـحرية وكلها أمل فى تحقيق النصـر ووصلت الحملة إلى أراضى قبرص بسلام مـحققة نصر بحرى للمـسلمين. وعرض المسلمون أهدافهم على أهالى قبرص ولم يدخل أهالى قبرص فى أية مفاوضات معهم تحت ضغط من البيزنطيين، فتقدمت القوات العربية نحـو عاصمة الجزيرة التى تجمع بها معظم سكانها وحملوا إليها معظم ثرواتهم، وبعـد مدة قصيرة من الحصار اقتحـم المسلمون المدينة واستولوا على كنوزها وعـدد من الأسرى، واضطر الأهالى إلى أن يدخلوا فـى المفاوضـات مع المسلمين وعـقد حـاكم الجزيرة صلـحا مع المسلميـن على أن يدفع لهم ٧٢٠٠ دينار كجـزية سنوية مثلمـا كانوا يدفـعون للبيـزنطيين، وتعهـدوا أيضا بألا يمدوا بيـزنطة بأية معونات بحـرية، وبألا يفشوا سـرا من أسرار المسلمين؛ وألا يخبروا البيزنطيين بأسـرار وتحركات الأسطول الإسلامى، كذلك تعهدوا بأن يزودوا المسلمين بأية أنبـاء عن حملات الروم تجاههم. وبالفعل التـزم أهالى قبرص بالمعاهدة فتـرة ووقفوا



موقف الحياد بين المسلمين والروم، وعاد الأسطول الإسلامى إلى سواحل الشام بعد أن نجح فى تحقيق أهدافه التوسعية. وظل معاوية فترة يراقب أهالى قبرص ومدى التزامهم بتنفيذ بنود المعاهدة. ولكن فى سنة ٣٢هـ/ ٦٥٢م أخل أهل قبرص ببنود المعاهدة وأمدوا البيزنطيين ببعض السفن البحرية التى ساعدتهم على تنفيذ هجومهم على الأراضى العربية الإسلامية، فما كان من معاوية إلا أنه جهز أسطولا ثانيا قدرت سفنه بخمسمائة سفينة واتجه الأسطول نحو الجزيرة ثانية فى عام ٣٣هـ/ ٦٥٣م واستطاع أن يستولى عليها عنوة رغم أنوف أهلها، وعاد إلى سواحل الشام ثانية بعد أن ترك جيشا نظاميا إسلاميا فى قبرص وأجرى لجنوده الرواتب، وشجع أهالى المدن الساحلية بالشام على الهجرة إلى قبرص لتقوية النفوذ الإسلامى بها. وأصبحت قبرص بمثابة قاعدة بحرية إسلامية لها وزنها العسكرى فى شرق البحر المتوسط بحيث استطاع المسلمون أن يصدوا الهجمات البيزنطية، بل ويشنوا منها هجماتهم العسكرية على أراضى بيزنطة، وهكذا فقدت القسطنطينية واحدة من معاقل الدفاع عنها وعن أملاكها والتى سهلت للمسلمين بعد ذلك الهجوم على هذه العاصمة المنيعة.

وبإغارة المسلمين على جزيرة قبرص أثبتوا أنهم على فهم ودراية كبيرين لطبيعة وأهمية الجزر التى كان يستولى عليها البيزنطيون بشرق البحر الأبيض المتوسط، إذ رأوا ضرورة الاستيلاء عليها لما تتمتع به من مراكز إستراتيجية هامة ولشل حركات الروم البحرية.

وأتاحت هذه السياسة البحرية للأسطول العربى الإسلامى ميدانا واسعا ذلك أن الجزر تنتشر فى الشطر الشرقى للبحر الأبيض المتوسط بحيث تقسمه إلى بحار داخلية صغيرة يتصل بعضها ببعض عن طريق مضايق وفتحات صغيرة تكفل للمسيطر عليها تمام السيادة على ما يليها من بحار داخلية؛ وما يطل على هذه البحار من أراض وبلاد ومن ثم سارت حركات الأسطول العربى إزاء تلك الجزر حسب سياسة واضحة ومرسومة تهدف أولا إلى تأمين سلامة الفتوح العربية من الجزر القريبة والمباشرة لأراضيهم، ثم الاستيلاء على غيرها من الجزر التى تتحكم فى أكبر عدد من المضايق البحرية لصد الروم وسد الطريق فى وجه هجماتهم. وقد أظهر أمراء البحر العربى شجاعة وبسالة نادرتين فى هذا المضمار، ومن ذلك أنه استرعى نظر قادة العرب وعلى رأسهم معاوية بن أبى سفيان أثناء إغاراتهم على قبرص وقوع جزيرة تدعى إرواد بالقرب من ساحل الشام، ولم يكن



أول داع للأسطول العربى وهو معاوية بالشخص الذى يتهاون فى ترك أى معقل للروم يهـدد سلامة الإسلام والمسلمين، أو يدعـه شوكة فى جـانب ولايته. فكانت جـزيرة أرواد تتـمتع بشـهرة عـالية منذ أقـدم العصور بـالرغم مما بدت عليه من ضآلة الشأن فى تلك الـفترة الأولى من نشـاط الأسطول العربـى فى ميـاه البحـر المتـوسط، فقـد لاحظ استرابون قديما أن أهل أرواد يحترفون القرصنة على النقيض من سائر البلاد القـريبة منها والتى اتخذت لنفـسها الطرق القويمـة فى الاشتغال بالتـجارة لتدعيم رخـائها الاقتصـادى، فكان أهالى هذه الجزيرة يستغلون مـا حبتهم به الطبيـعة من مركز جـغرافى ممتاز فى ميدان التجارة وأبدوا جمـيعا نهما فى تنمية مواردهم الاقتصـادية عن طريق ميدان القرصنة المخيف وقد جعلتهم هذه الأمور أهلا يتسمون بالغدر وبالبعد عن مواضع الثقة والتقدير.

وعقـد معاوية العزم على التـخلص من مخاوفـه من تلك الجزيرة بالاستـيلاء عليها فـأعد الأسطول العربى لمهاجمتها سنة ٢٨هـ/ ٦٤٨م بعد عودته من الإغارة الأولى على جزيرة قبرص. واستطاع الأسطول الإسـلامى السيطرة على شواطئ تلك الجزيرة وإنزال الجند العـرب بها، ولكن أهل أرواد رفضوا الإذعان والتسليم واعتصموا بقلعة الجزيرة على الرغم من وساطة أحد الأساقفة، حيث رأى أن يبصر سكان هذه الجـزيرة بمغبة الإصرار والعناد. وكانت خطة العرب البـحرية تسير على أساس مسالمة أهالى جـزر البحر الأبيض المتوسط أولا فإن أبوا فالقتـال حتى النصر، وعادت الحملة إلى أراضيها ثانية أمام موقف أهالى الجزيرة منهم على أن يعودوا إليها فى العام التالى.

وبالفعل أعدوا حـملة ثانية فى العام التالى لمهـاجمة جزيرة أرواد ودخلوا الجـزيرة وهاجموا العاصمة وقلعتها وألزموا جميع أهاليها بإخلاء الجزيرة تماما، جزاء عنادهم الذى تجلى فى مقاومتهم الشديدة فى المرة السابقة، ولم يكن فى هذا التصرف الذى اتخذه المسلمون شىء من التعسف وإنما جاء وليـد بُعد نظرهم وفـهم لطبيعـة سكان هذه الجزيرة ووسـائلهم التى اعتمـدوا عليهـا لإنهاك مهاجميهم، فكان أهالى هذه الجزيرة يتجنبون دائمـا الهزائم القاصمة ويحتفظون بقوتهم ونشاطهم بالاعتصام بالمياه حتى يزول الخطر المحيق بهم؛ ولذا قـضى المسلمون نهائيا على عناصر المقاومة فى هذه الجزيرة ومناعتها وأمنوا ما قد يجيش بنفوس أهاليها من عدوان ولا سيما بعد أن كشفوا القناع عن نواياهم فى وضوح وجلاء.

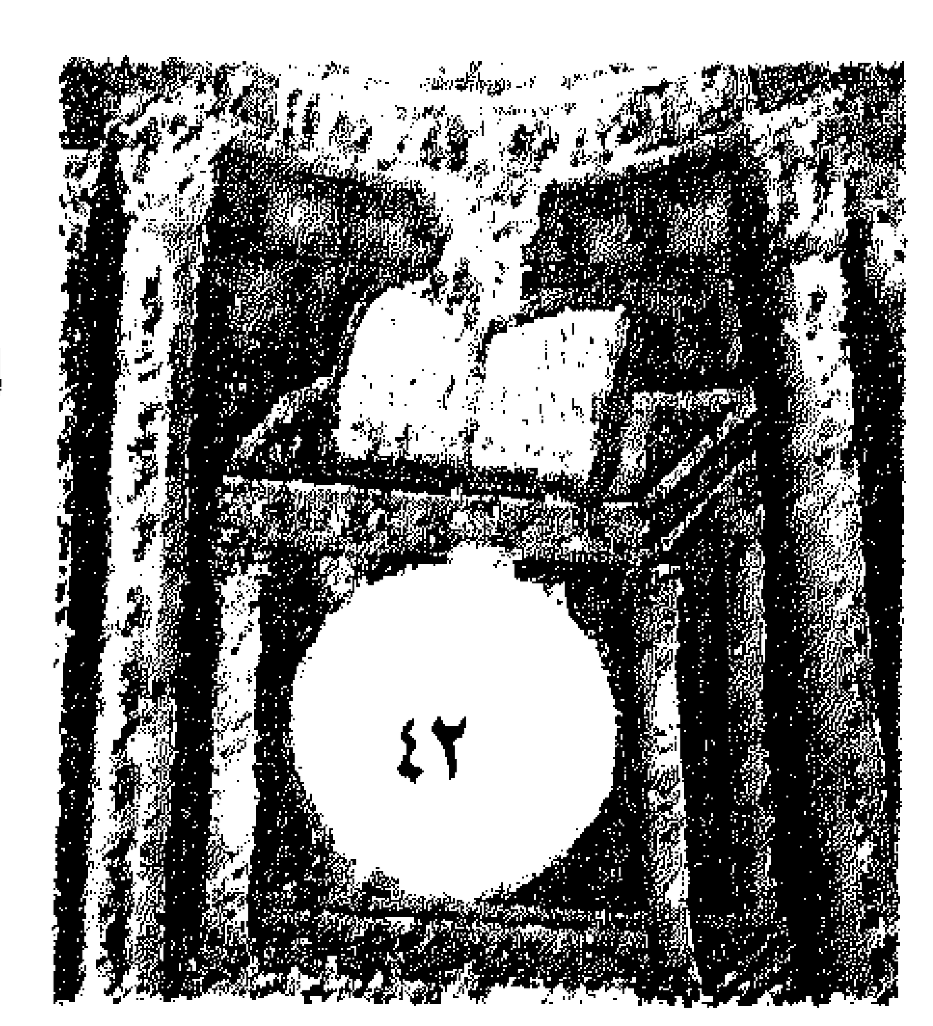




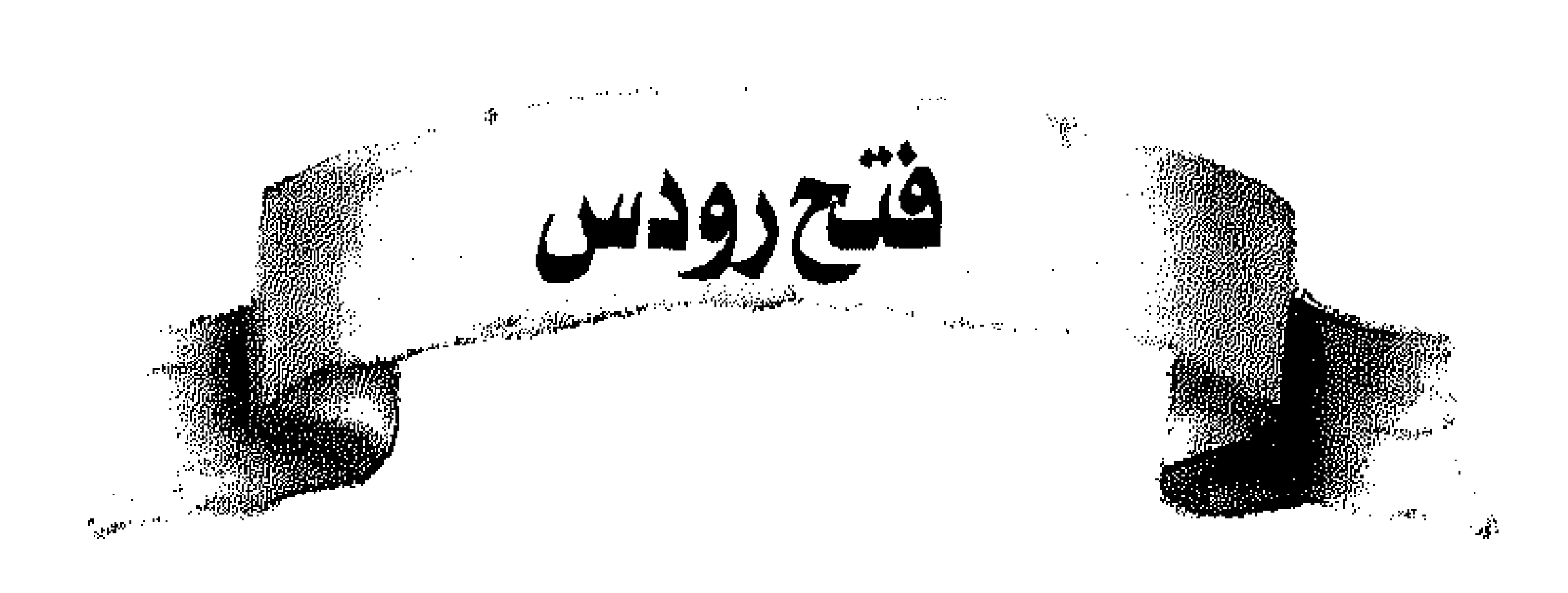
وهكذا، لم يقم الأسطول العربى بنشاطه البحرى المبكر عفويا أو نتيجة خطط مرتجلة وإنما سار العرب فى أعمالهم البحرية وفق سياسة واضحة المعالم تهدف أولا إلى حماية ممتلكاتهم ثم إقصاء الروم عن أى مكان تتجمع فيه أساطيلهم لمهاجمة أراضى العرب، وكانت آية هذا التفكير العربى السديد هو اتجاه الأسطول العربى للهجوم على جزيرة صقلية، إذ يبدو أن هذه الجزيرة بعيدة كل البعد عن أن تكون موضع خطر مباشر على إقليم الشام ومصر ولكن مجريات الأحداث دلت على أن صقلية غدت قاعدة لأساطيل الروم التى انسحبت من قواعدها بالشام ومصر بعد الفتح العربى لهما، ومركزا تهجم منه على العرب بحيث تشل التعاون البحرى بين أساطيلهم فى مصر والشام. وكانت صقلية بموقعها الجغرافى تتحكم فى المداخل الرئيسية الكبرى لشرقى البحر الأبيض المتوسط. إذ هى تقسم البحر الأبيض المتوسط عامة إلى قسمين رئيسين وتشرف على الاتصال بينهما عن طريق مضيق ميسينيا Misenea ومضيق صقلية الواقع بين طرف جزيرة صقلية الجنوبى وشمال إفريقيا ثم إن جزيرة صقلية تلقت من كل بلاد الروم البعيدة عن متناول الأسطول العربى، مساعدات جعلتها أعظم قاعدة لأسطول الروم فى شرق البحر الأبيض المتوسط. وكانت مصر أول من أدرك خطورة اتخاذ أساطيل الروم قاعدة لها فى صقلية، ومن ثم تكاتف الأسطول العربى المصرى والشامى فى الهجوم على تلك الجزيرة لتقليم أظافر الروم وبث الرعب فى نفوسهم. فقام الأسطول العربى من موانئ الشام تؤازره القوات البحرية المصرية سنة ٣٢هـ/ ٦٥٢م بمهاجمة صقلية ونزلت الحملة الحربية البحرية بالشواطئ ومعها المجانيق



كنيسة سان چوڤانى بصقلية، ويظهر عليها التأثيرات الفنية الإسلامية

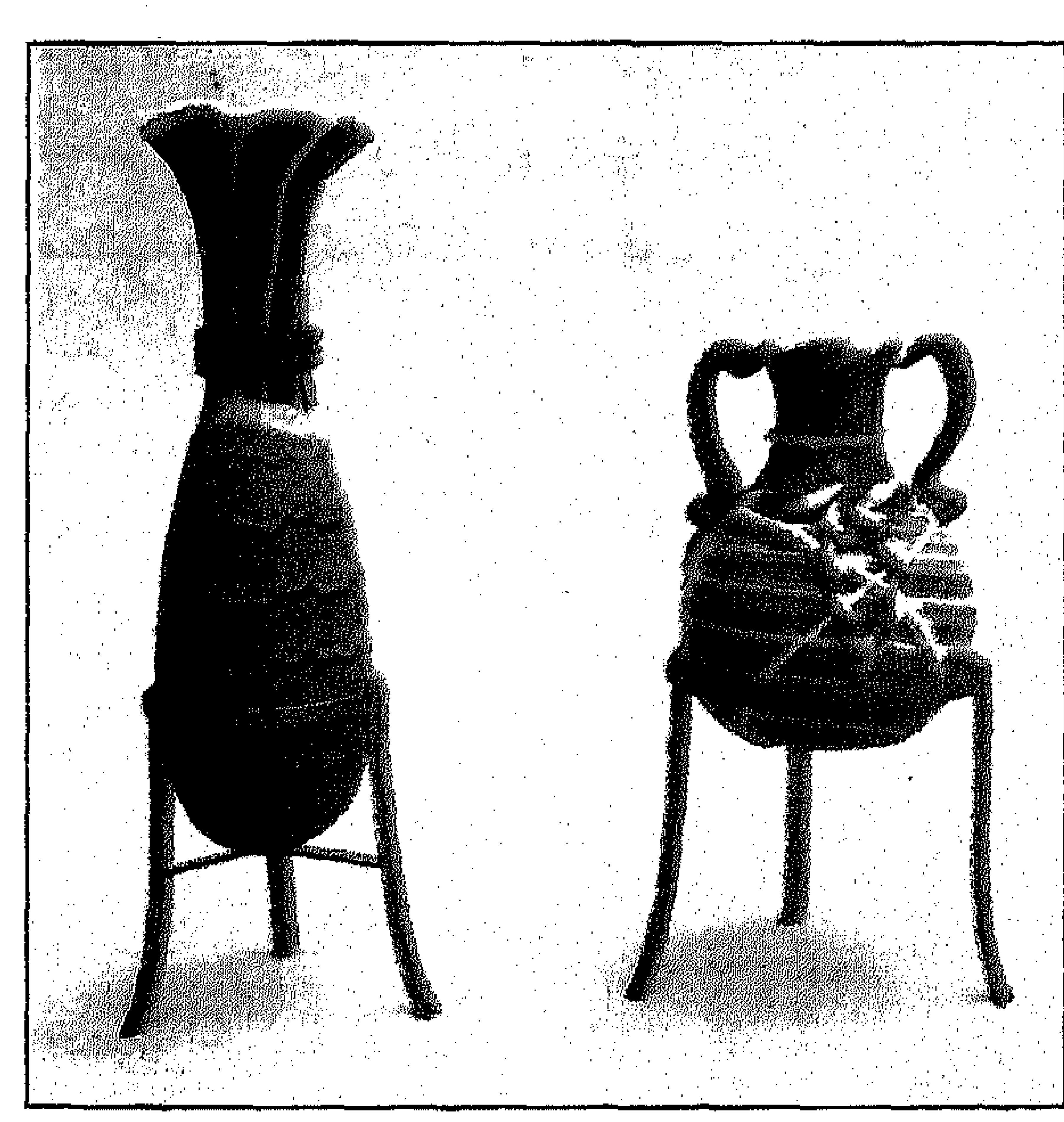


والهراوات وأعـملت التدمير فى حـصون الجزيرة ثم هاجـمت القوات الإسلاميـة معاقل الروم فى الجزيرة وألجـأت حامياتهـا إلى الانسحاب داخل الجـزيرة ثم أتبع العرب، انتـصارهَم بالإغـارة ليلا على الـقرى والمدن القـريبة من السـواحل، ثم عادوا بـعد هذا النصـر العظيم إلى سواحل الشـام. وقد توالت إغـارات المسلمين بعد ذلـك على جزيرة صقلية حيث خرجت وحدات الأسطول تارة من الشام وتارة أخرى من مصر حتى صار مركز أسطول الروم ضعيفا ولا تقوى سفنه على صد الأسطول الإسلامى. ومما لا شك فيه أن دخول العرب صقلية قد فتح الباب على مـصراعيه لكى تنتشر الروح العربية الإسلامية بين الشعوب الأجنبية ولينتشر الإسلام فى هذه البقاع من الأرض وكانت فاتحة خير للعرب، حيث خرجت ثقافتهم وحضاراتهم إلى العالم الخارجى، وحيث غدت صقلية فيما بعد واحدة من مراكز إشعاع الحضارة الإسلامية.

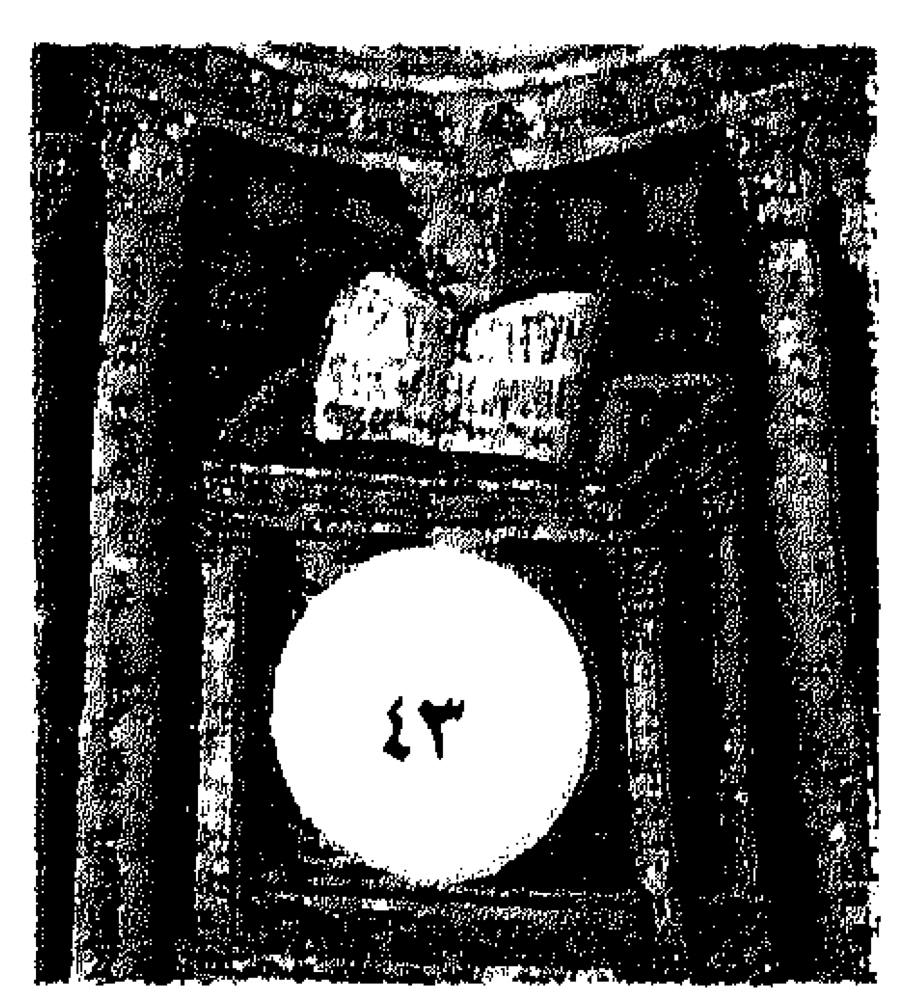


فتح رودس

وبعد النصر الذى أحرزه الأسطول الإسـلامى على الروم بصقليـة فى عهـد عثمان بن عفان وفى ولاية معاوية بن أبى سفـيان على الشام اتجه الأخـير بأسطوله لإحراز نصر آخر لاستكمال السياسة التى انتهـجهـا إزاء الروم وخاصـة فى المجال البحرى، فاتجهَ الأسطول الإسلامى شطر رودس أهم جزر بحر إيجه وأعلاها مكانة فى الدولة البـيزنطيـة من حيث نشـاطها البحرى وحركة صناعـة السفن بها، فهذه الجـزيرة أول حلقـة من حلقـات سلسلة أرخبيل بحر إيجه مـن ناحية الشرق وتمتد



قنينات من الزجاج اشتهرت بها جزيرة رودس قديما

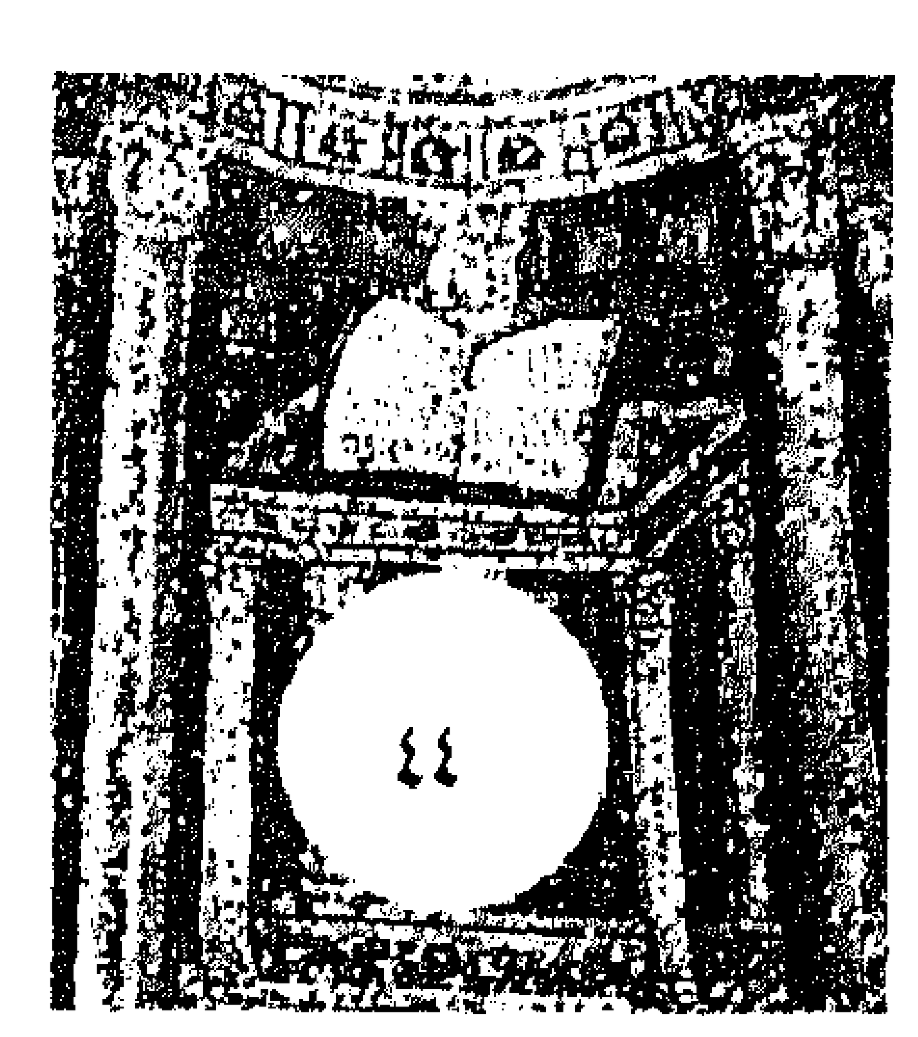


من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى على بعد اثنى عشر ميلا تقريبا من الساحل الآسيوى. وقد أهلهـا هذا الموقع لأن تكون خطرا جاسما على أطراف الشام الشماليـة المتاخمة للحدود البيزنطية بآسـيا الصغرى وشوكة مسلطة على إقليم العواصم والثغور الشامية، وقد بعث معاوية حـملته لفـتح رودس سنة ٣٣هـ/ ٦٥٣م تحت قـيـادة جنادة بن أميـة الأزدى، واستطاع هذا القائد أن يستولى على الجزيرة عنوة، ونظرا لأن هذه الجزيرة كانت من أنسب الأماكن لإقامة المسلمين، فـقد أمر معاوية ببناء حصن بالجزيرة وبعث إليها جماعة من المسلمين يتولون الدفاع عنها وبلغ من اهتمامه بحامية رودس أنه كان يجدد أفرادها دائما ويسـحب الذين قضـوا بالجزيرة مدة طويلـة، وذلك لكى يبقى على بأس الحـامية وقـوتها، وأرسل إلى المسلمين هناك الفقهاء والمعلمين لتثبيت الإسلام فى قلوبهم.



أراد معـاوية أن يقطع كل الطرق على البيـزنطيين فرأى أن يسـتولى على هذه الجـزيرة لسد منافذ بحر إيجه الرئيسـية فى وجه البيزنطيين، وهذه الجزيرة تسيطر على بحـر إيجه فأرسل معاوية أسطوله وجنوده للاستيلاء على هذه الجزيرة، ولكن جنوده لـم يستطيعوا الاستيلاء عليها، وربما لـم تقو القوى البـحرية الإسلامية الناشئـة آنذاك على فتح هذه الجزيرة التى تشبث بها الروم، فـاكتفى المسلمون بشن غارات هجومية عليها للبطش بالبيزنطيين فيها وإلحاق الأذى بأساطيلهم.

مما لا شك فـيه أن هذه الانتصـارات كلها قـد زادت من قوة المسلـمين وثباتـهم وأوجدت عندهم الرغبة فى التوسع وبسط النفوذ الإسلامى إلى أكبر حد ممكن، كذلك كتب على الإمبراطور قنسطانز أن يشهـد كل هذه الهزائم، التى زادته حقدا على المسلـمين وتصميمـا على دحرهم وبدأ الصراع يأخـذ أشكالا متعددة بـين القوتين العظميـين آنذاك إلى أن جاءت موقعـة ذات الصوارى البحرية والتى أنهت السيادة البيزنطية على البحر الأبيض المتوسط وكانت هذه واحدة من أهم أدوار المواجهة بين المسلمـين والبيزنطيين، فكمـا أن موقعة اليرموك كـانت المواجهة الحقيـقية الأولى بين الجيوش البـرية الإسلامية والبـيزنطية، أصبحـت ذات الصوارى المواجهة البحـرية التى أنهت نفوذ بيزنطة فى البحر الأبيض وحولته إلى بحيرة إسلامية كبرى كما سنرى.



معركة ذات الصوارى:

كانت الانتصارات السابقة حافزا شجع معاوية على استكمال الفتوحات البحرية الإسلامية وكانت أولى الخطط التى رسمها لاستكمال هذه السياسة هى الاستيلاء على القسطنطينية ذلك المحول الذى يدير دفة الأمور فى الدولة البيزنطية، ففى سنة٣٤هـ/ ٦٥٥م ترامت أنباء إلى الإمبراطور قنسطانز الثانى ٢١-٤٨هـ/ ٦٤١-٦٦٨م بأن معاوية يعد العدة ويجهز أسطولا كبيرا وجيشا كثيفا لمهاجمة القسطنطينية فعمل الإمبراطور قنسطانز الثانى على أن يتلافى هذا الخطر المقبل؛ وعول على الخروج قاصدا الشام ليدمر الأساطيل الإسلامية قبل إبحارها من قواعدها، وفى الفترة التى أسرع فيها قنسطانز بإعداد سفنه الحربية نشط وكلاء الدولة البيزنطية بالشام لعرقلة الاستعدادات الإسلامية، وقد نجح هؤلاء العملاء فى تدمير المعدات الإسلامية التى حشدها معاوية فى طرابلس وأطلقوا الأسرى من السجون ثم فروا إلى آسيا الصغرى. لكن تمكن معاوية من إصلاح كل هذا وأعد آلات الحرب ثانية وسار معاوية على رأس قواته البرية سنة ٣٤هـ/ ٦٥٤م إلى مدينة قيصرية بآسيا الصغرى على حين وصلت سفنا حربية من مصر إلى سواحل الشام وانضمت إلى الأسطول الإسلامى على أن الأسطول الإسلامى توقف قرب سواحل ليكيا عند فوينكس Phoenix حيث بلغه نبأ اقتراب الأسطول البيزنطى وعلى رأسه الإمبراطور نفسه، أما عن الأسطول الإسلامى فكان تحت قيادة عبد اللّه بن أبى السرح. وظهر أسطول الروم أمام المسلمين، وقد راعهم منظر سفنه التى كثرت صواريها وربما وقع شىء من الرهبة فى نفوس المسلمين فقد جاء قنسطانز عاقدا العزم على ضرب المسلمين تماما وإلى الأبد.

وكانت الرياح فى ذلك اليوم غير مستقرة فلم يلتق الفريقان إلا فى اليوم التالى وقضوا ليلتهم حسب طقوس كل فريق، فعن المسلمين يقال أنهم ظلوا يصلون ويتعبدون طيلة الليل، أما البيزنطيون يقال أنهم أخذوا يدقون النواقيس استعدادا للحرب. واشتبك الفريقان فى الصباح وأخذ رجال الأسطول الإسلامى يقذفون السفن البيزنطية بالسهام والنبال إلى أن فرغت ذخيرتهم، وذلك لأن السفن البيزنطية كانت تتعمد البعد عن مرمى السفن الإسلامية من باب المراوغة، وبدأ المسلمون يقذفون الأحجار على العدو وأدرك قنسطانز أنه سائر نحو النصر، ولكن سرعان ما لجأ المسلمون إلى حيلة وهى أنهم ربطوا سفنهم بعضها إلى البعض ورموا الكلاليب والخطاطيف على السفن البيزنطية وجذبوها نحوهم وأخذوا يتقاتلون بالسيوف والخناجر وكأنها معركة برية. ورمى قنسطانز إلى أسر سفينة القيادة الإسلامية وكاد أن ينجح لولا شجاعة أحد المسلمين ويسمى علقمة؛ حيث ضحى بنفسه فى سبيل قطع السلاسل التى تجذب السفينة نحو الأسطول البيزنطى ودارت الدائرة على البيزنطيين وهزموا فى هذه المعركة، وكاد الإمبراطور أن يؤسر لولا تنكره فى

زى أحد قارعى الطبول وهرب من المعركـة بأعجوبة فى أحد القوارب إلى جزيرة صقلية، حيث لقى مصرعه هناك على أيدى بعض الناقمين عليه، بعد أن علمـوا نواياه حول نقل مقر الحكم من القسطنطينية إلى صـقلية. وقـد تفانى المسلمـون والبـيزنطيـون فى هذه المعركـة والتى حسمت مصير البحر المتوسط ولمن السيادة فيه؟ وربما نتساءل عن مصير جيوش معاوية البرية بآسيا الصـغرى فنحن لا نعرف تقريبا ما قامت به ولكن يبدو أنها هدفت إلى قطع الاتصالات والإمدادات بين البيزنطيين فى البحر ومعاقلهم البرية فى آسيا الصغرى.

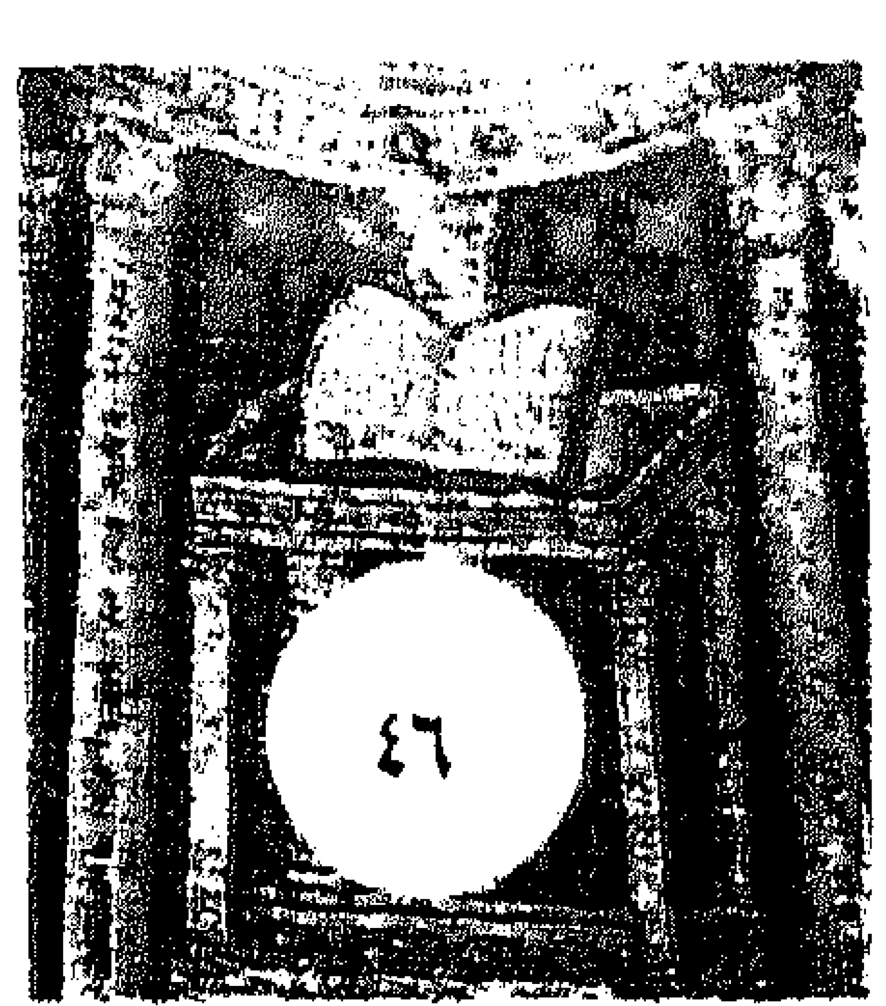
وكان من آهم نتائج المعركة هو اعتراف بيزنطة بالمسلمين كقوة عظمى بمعنى أنه لم تعد تراود آباطرتها فكرة القـضاء على المسلمين وطـردهم من المناطق التى استولوا عليـها، إذ أدرك الأباطرة البيزنطيون أن مـثل هذه الفكرة ضرب من ضروب الخيال، كذلك عمد كل فـريق منهما إلى تقوية مناطق الثغور والتخوم ليتجنب كل منهمـا هجمات الآخر على أراضيه. واتجه الإمبراطور قنسطانز بعد ذلك لتأديب عناصر السلاف فى البلقان لعله يجد ضالته المنشودة فى نصره على السلاف.

فى أعقاب هذا النصر دخلت الدولة الإسلامية فى فوضى مـقتل الخليفة عثمان بن عفان مما ردها عن مواصلة الهجوم على الأراضى البـيزنطية، كذلك فإن معاوية ابن أبى سفـيان بعد تقويته لمناطق الثغور والتـخوم أخذ يتجه إلى الأحـداث الدائرة فى الدولة الإسلامية محـاولا الإفادة منها وقد حدث هذا بالفعل حينما تولى الخـلافة "على بن أبى طالب" وحدث ما سمى بفتنة على والتى انقسم العـالم الإسلامى على أثرها وانغمس المسلمون فى فـترة من الحروب والصراعـات الداخلية التى شغلتـهم عن نصرة الإسلام والخـروج به إلى آفاق جديدة وأراض جـديدة إلى أن انتهت هذه المعمعة التى أصيب بها العالم الإسلامى وخرج معاوية بن أبى سفيان ليؤسس أسرة جديدة حملت راية الجهاد على عاتقها، والتى شهدت الفتوح الإسلامـية عصرها الذهبى فى عهد مؤسسها بالشام معاوية بن أبى سفيان.

وهكذا، رأينا العديد من أدوار المواجهة العسكرية التى خاضها المسلمون والبيزنطيون، البرية منها والبحرية، ولم نتـعرض للتأثيرات الحضارية والثقافيـة، والتى لا تقل عن المواجهة العسكرية، من حيث المجد والعظمة، والتى أثرت كلتا الحضارتين البيزنطية والإسلامية ثراء عظيما.

والآن هناك سؤال ينبغى أن نتعرض له وهو ما طبيعة التأثيرات التى أحدثها اجتياح المسلمين للعالم البيزنطى آنذاك على الإمبراطورية البيزنطية ذاتها؟

كانت الإمبراطورية البـيزنطية منذ نهاية القرن السادس الميـلادى وحتى بدايات القرن السابع



الميلادى تعانى من أزمة اقتصادية حادة، نجمت عن الحروب التى خاضها الأباطرة السابقون أمثال الإمبراطور جستنيان ٥٢٧-٥٦٥م والإمبراطور موريس ٥٨٢-٦٠٢م، مع أعداء الإمبراطورية البيزنطية شرقا وغربا، الفرس والقوط الشرقيون والقوط الغربيون والوندال والآفار والقبائل السلافية.

وإذا كان الإمبراطور موريس قد حاول إجراء بعض الإصلاحات الداخلية للنهوض بدولته وبجيشه، إلا أن خاتمته المؤلمة كانت أكبر رد داخلى على من يريد القيام بإصلاحات جذرية لإصلاح المؤسسات الداخلية فى بيزنطة، فقد فقد الإمبراطور موريس حياته، بل وراحت أسرته ضحية الإصلاح الذى حاول القيام به، وكان من أبرز سمات ذلك الإصلاح أنه حاول تخليص الخزانة الإمبراطورية من عبء المرتبات التى كانت تدفع للمرتزقة للدفاع عن حدود الإمبراطورية؛ حيث سعى حثيثا للاعتماد على العنصر الوطنى كقاعدة للتجنيد، وأمر قواته، لاسيما المرابطة على الدانوب، بالاعتماد على الموارد المحلية هناك كمصدر للإعاشة بدلا من الميرة والرواتب التى كانت ترسل من القسطنطينية، بل وصل به الحد إلى قيامه بالحد من ظاهرة الرهبانية التى لجأ إليها السكان للهروب من التجنيد.

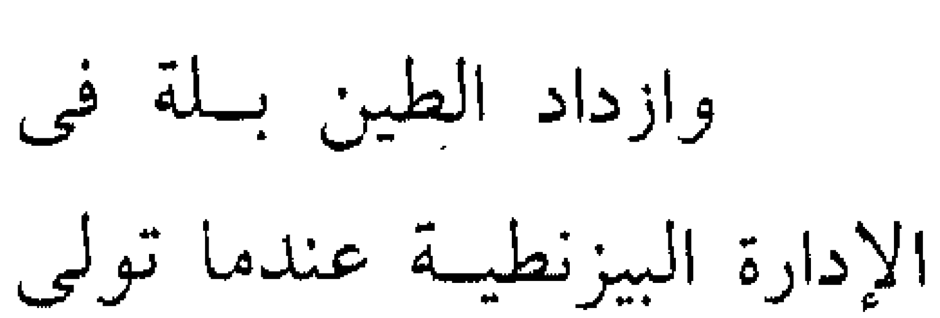
قبر عثمان بن عفان بالمدينة المنورة







عُملة عليها صورة الإمبراطور هرقل

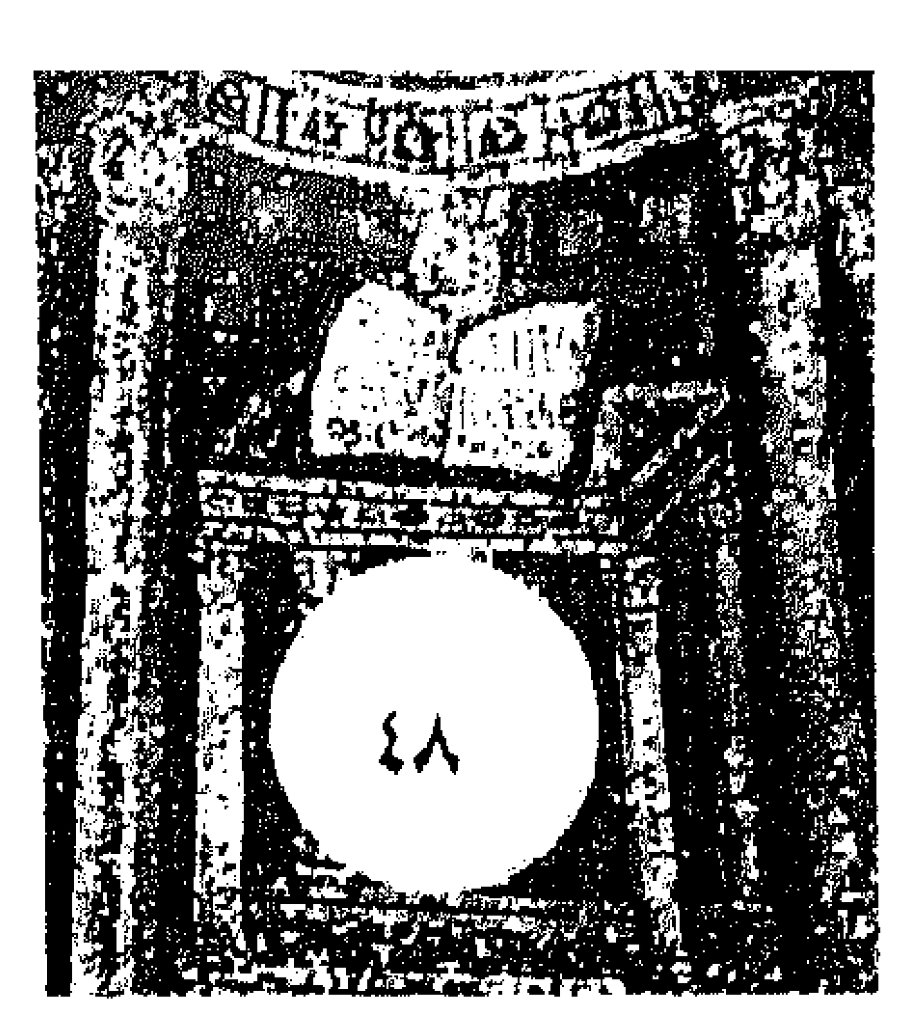


وازداد الطين بلة فى الإدارة البيزنطية عندما تولى فوقاس الحكم ٦٠٢-٦١٠م، وانهار الجيش والمؤسسات العسكرية، وخلت الخزانة الإمبراطورية من الأموال اللازمة للزود عن حدود الإمبراطورية، لاسيما وأن الفرس المطالبين بالثأر لصديقهم الإمبراطور موريس، انسالوا إلى أراضى الإمبراطورية فاقتطعوا منها أغنى ولاياتها، حيث احتلوا آسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين ومصر. وإذا كان الإمبراطور هرقل ٦١٠-٦٤١م قد استطاع أن يزود عن حدود دولته وأن يطرد الفرس من بلاده، بل ويدخل إلى العاصمة الفارسية نفسها بقواته، فإنه لم يكن فى حسبانه أن التأثيرات التى سيحدثها ظهور المسلمين فى المنطقة سوف يكون لها آثار أكثر عمقا من الاحتلال الفارسى لأراضى بيزنطة إبان حكم فوقاس. فقد انتزع المسلمون بلاد الشام من أيدى البيزنطيين، ثم تلاها فتح مصر ثم ولاية إفريقية. وهكذا فقدت بيزنطة أغنى ولايات الشرق مصر وبلاد الشام؛ وتوقفت شحنات القمح التى كانت ترسل من مصر إلى القسطنطينية واضطربت التجارة المارة عبر أراضى مصر أو عبر أراضى بلاد الشام إلى القسطنطينية، الأمر الذى نجم عنه حدوث بعض الاختناقات الاقتصادية فى القسطنطينية؛ مما دفع بالإمبراطور هرقل إلى القيام بعدة إصلاحات جذرية للنهوض بالمؤسسات الاقتصادية والعسكرية فى دولته.



تشكيل فيلق رومانى

واعتمدت فكرة الإصلاح التى قام بها الإمبراطور هرقل على ركيزة أساسية وهى استغلال الأرض إلى أقصى درجة ممكنة، فأمر بتقسيم أراضى الإمبراطورية البيزنطية إلى مساحات متباينة، على أن توزع هذه



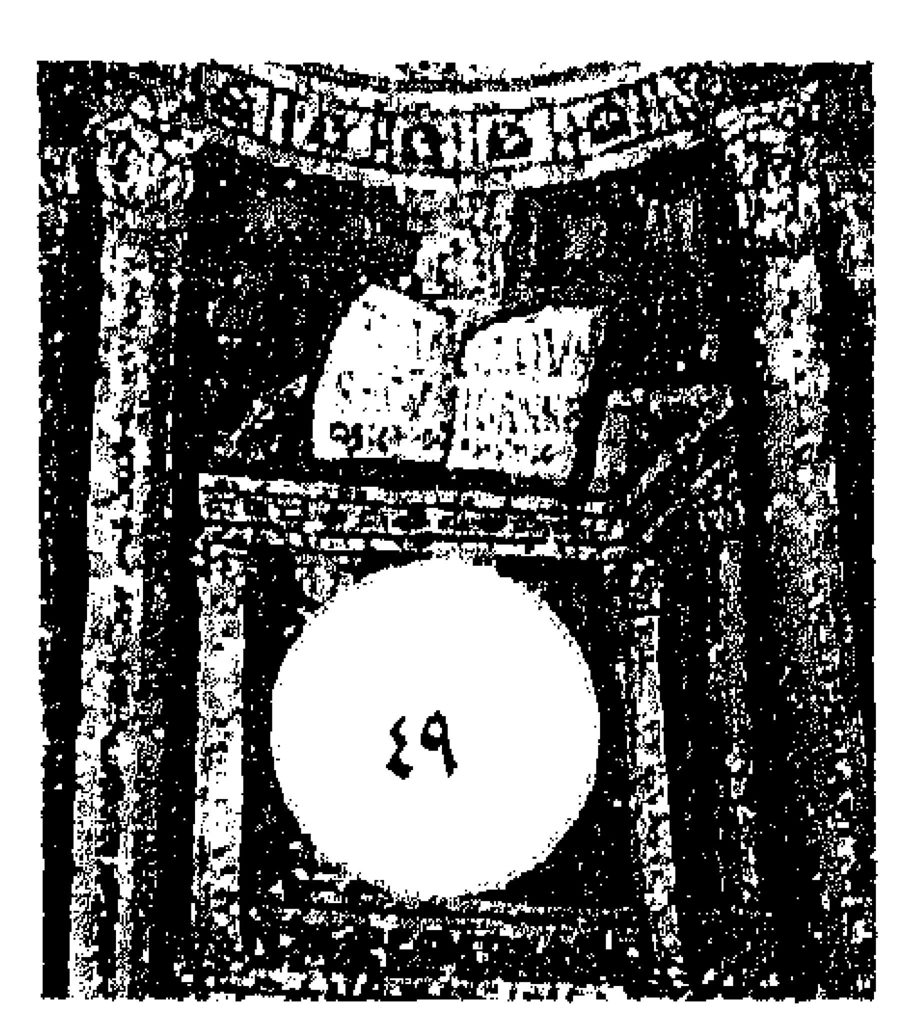
المساحات على الجند، كل حسب حاجته، مقابل التزام من حاز هذه الأراضى بأداء الخدمة العسكرية كفارس فى الجيش البيزنطى عند وقت الحاجة، وهكذا، أصبح الجنود البيزنطيون فلاحين عاملين بالأرض فى وقت السلم، مقاتلون أشداء عندما تنطلق أبواق القتال؛ وفى هذه الحالة كان على أسرة المقاتل أن تتولى رعاية هذه الأرض حتى يعود من الحرب؛ وإذا قدر له أن يقتل فى المعركة كان على أسرته؛ إذا ما أرادت الاحتفاظ بالأرض، أن تقدم أحد أبنائه عوضا عن أبيه للقيام بالخدمة العسكرية، أو أن تقدم فارسا مجهزا على نفقتها الخاصة، هكذا عرف هذا النظام باسم "الاستراتيوتيكا كاتيماتا"، ويمكن ترجمتها باسم "الأراضى العسكرية الموقوفة".

لم يكن هذا هو الإصلاح الوحيد الذى أجراه الإمبراطور هرقل وطوره مع ظهور المسلمين، بل قام بإعادة توزيع الفيالق العسكرية فى الأقاليم البيزنطية، وجعل حاكم الإقليم، وهو فى نفس الوقت قائد الجيش المحلى، يجمع فى كلتا يديه الإدارة العسكرية والمدنية فى آن واحد؛ وهو النظام المعروف باسم "الأقاليم العسكرية" أو "الثيماتا" بلغة المصادر البيزنطية، وبهذا صار العنصر الوطنى هو الأساس الذى أصبح قاعدة لا للتجنيد فى الجيش فحسب، بل لتنمية الاقتصاد البيزنطى المتداعى فى ذلك الوقت.

وتجدر الإشارة إلى شهادة الإمبراطور قسطنطين السابع، الذى يعزو قيام هذا النظام "نظام الأقاليم العسكرية" إلى الإمبراطور هرقل، وذلك فى كتابه المعروف باسم De Thematibus.

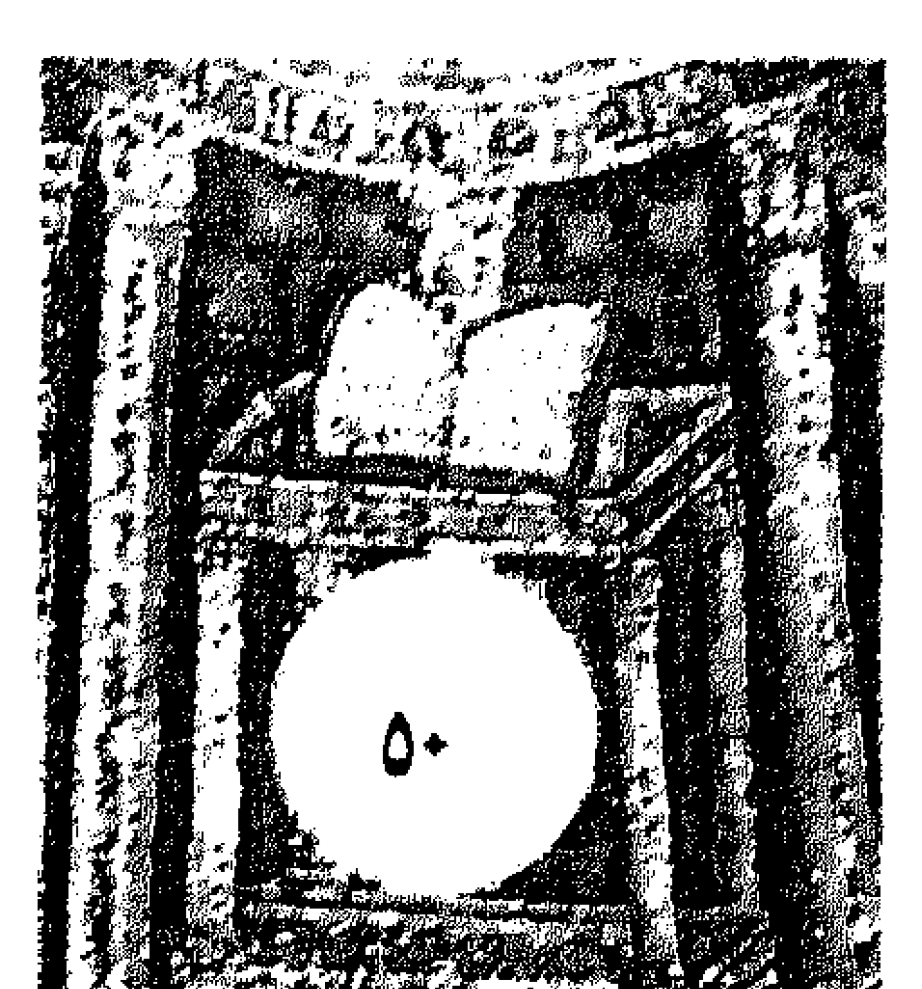
وجدير بالذكر، أن كلمة ثيم أو ثيما θημα كانت تعنى فى البداية فرقة عسكرية أو فيلقا من الجند، متمركزة فى أحد أقاليم الإمبراطورية، ثم بدأ اسم الفرقة أو الفيلق وكذلك المصطلح العسكرى ينتقل تدريجيا إلى الإقليم نفسه الذى تقيم به هذه الفرقة أو الفيلق، وحمل الإقليم الاسم الجديد له ثيما بدلا من مقاطعة أو أبرشية Eparchia. ومن ثم أصبحت الكلمة الأولى مستخدمة فى المصادر البيزنطية لتشير إلى الأقاليم الإدارية التى تقيم بها الفيالق، أو الفرق العسكرية. وأصبحت كلمة ثيما فى القرن التاسع، تحمل إلى جانب معناها الإدارى والجغرافى معنا عسكريا محضا، يعبر عن فرقة أو فيلق عسكرى مكون من عدد معين من المحاربين، يأتمر بأمر ضابط ذي رتبة عالية، وهو الاستراتيجوس. وعلى هذا فقد آثرنا أن نترجم كلمة ثيم "بالإقليم العسكرى"؛ لأن هذه الأقاليم كان يغلب عليها الطابع العسكرى كما سنرى؛ ولأن حاكمها كان يحمل لقب استراتيجوس، الذى يعنى باليونانية قائد عسكرى.

كيفما كان الأمر، أشار المؤرخ شتين Stien إلى أن الجهود التى بذلها الإمبراطور هرقل فى تنظيم الأقاليم العسكرية تتفق مع الإصلاحات التى تم تحقيقها فى إمبراطورية الساسانيين أثناء



القرن السادس الميلادى، على يد بعض ملوكها أمثال قباذ، وكسرى أنوشروان الأول، إذ طبع هذان الملكان إدارة الإمبراطورية الفارسية بالطابع العسكرى تماما. وقد أراد هرقل أن يسير على نهجهما قبل أن يبدأ حملاته على فارس، فدرس بعناية شديدة تنظيم دولة الأعداء وأسرع يقلده وفق ما تيسر له فى الحصول على بعض المصادر من الأرشيف الفارسى. وهذا ما جعل المؤرخ داركو يعتقد أن ثمة تأثرا بالنظم الطورانية، جعل البيزنطيين يستلهمون نظام الأقاليم العسكرية من الفرس؛ أما أوستروجورسكى وبرتوسى فقد رفضا ما افترضه شتين وداركو؛ لأنه كما هو واضح ذلك النظام يرتبط ببعض مؤسسات الإمبراطورية الرومانية المتأخرة أو البيزنطية الباكرة. ومن خلال ذلك ينبغى علينا أن نوضح علاقة نظام الأقاليم العسكرية الجديد بالمؤسسات الأولى التى قصدها أوستروجورسكى، فقد كانت الإمبراطورية البيزنطية فى القرن السادس الميلادى تنقسم إلى مجموعة من القيادات العسكرية، يتولى قيادة كل منها أحد القادة العسكريين Militum Magis-tri، فكان فى الشرق القائد العسكرى العام للشرق، ثم القائد العسكرى العام لأرمينية، الذى أنشأه جستنيان. وكان فى الغرب القائد العسكرى العام لتراقيا، وأخيرا القائد العسكرى العام لإيلليريا؛ وأضاف جستنيان إليها للدفاع عن فتوحاته الجديدة، القائد العسكرى العام لإفريقية، ولإيطاليا أيضا؛ أما فى القسطنطينية ذاتها فكان بها القائد العسكرى لقوات العاصمة.

وقد عاشت هذه النظم طويلا، وكان هناك قادة الشرق العسكريون فى تراقيا وفى أرمينية، وفى إفريقية وإيطاليا تحت حكم الإمبراطور موريس(٥٨٢-٦٠٢م)، ومن بعده الإمبراطور فوقاس(٦٠٢-٦١٠م). ويرى شارل ديل أنه منذ عصر جستنيان، كانت توجد، وبنفس الامتداد الإقليمى، القيادات العسكرية للقرن السابع، ولا يتردد فى الاعتراف بوجود رابطة. ويؤيد داركو المؤرخ شارل ديل بجعله قادة جستنيان العسكريين أسلافا لقادة Strategi هرقل، فعلى سبيل المثال، كان القائد العسكرى العام لأرمينية هو القلب المحرك لاستراتيجوس إقليم الأرمنياق فى القرن السابع، على حد قول ديل، ولكن منذ نهاية القرن السادس أوجد الإمبراطور موريس نظاما دفاعيا كان له أبلغ الأثر فى مواجهة هجمات اللومبارديين فى إيطاليا والبربر فى إفريقية. فقامت بذلك أرخونية رافنا، ومن بعدها أرخونية إفريقية. وجمع هذا الأرخون إلى جانب سلطته العسكرية اختصاصات الإدارة المدنية، فكان له الإشراف التام على كل مرافق الولاية وعلى مواطنيها بما فيهم الحاكم المدنى. وبهذا النظام تم إلغاء الفصل الواضح بين السلطة الإدارية والسلطة العسكرية فى حكم الولايات، والعمل على توحيدها فى يد شخص واحد. وهذا ما تم بالضبط فيما بعد فى الأقاليم العسكرية المختلفة. إذ كان كبار القادة فى الإدارة المدنية القديمة يفقدون يوما بعد يوم أهميتهم الكبيرة التى كانوا يتمتعون بها فى الماضى فى مواجهة قادة فرق الجيش الأقوياء،

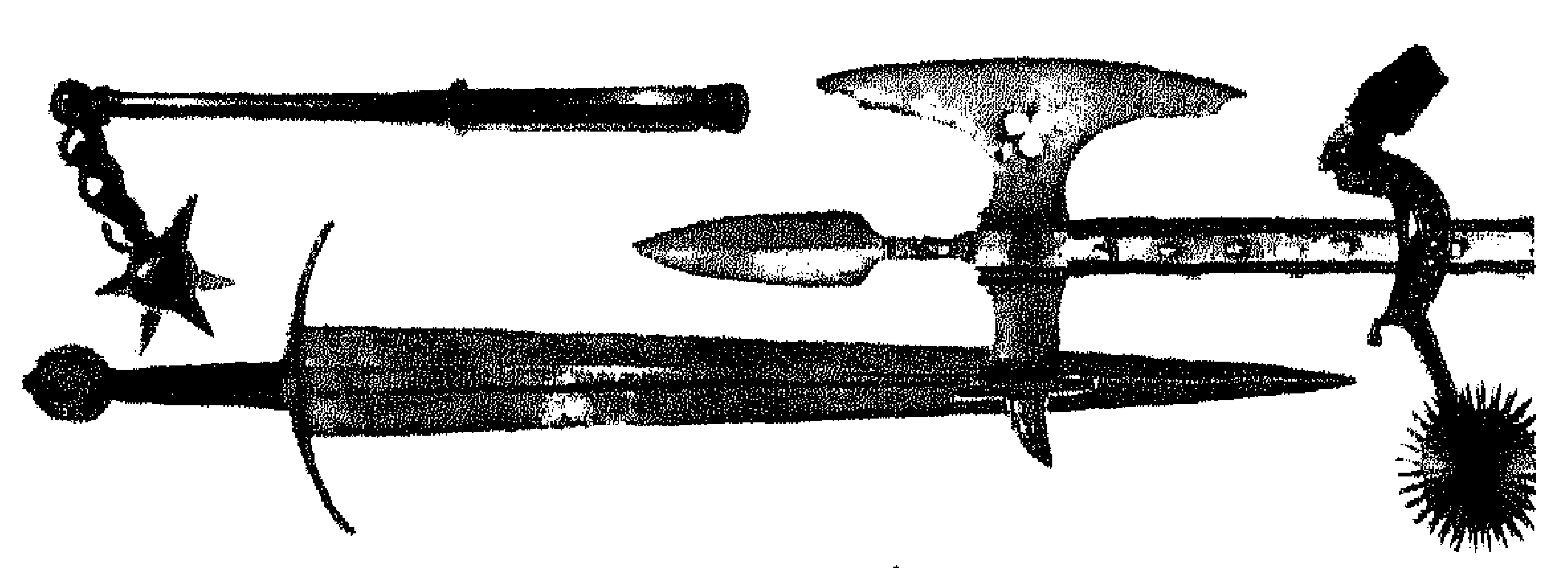


كما أن المناطق المدنية القديمة راحت تدريجيا تتجمع تحت سلطة القائد العسكرى الذى يدافع عـنها. وهذا ما جـعل بعض المؤرخين يرون أن أرخونيتى رافنا وإفـريقية ينبغى أن تدرسا على أنهـما البداية الحقيـقية لتنظيم الثيمات، الذى بدأ ينتشـر فى شتى أنحاء الإمبراطورية بدءا من القرن السابع الميـلادى. بينما يرى البعض الآخـر أن الإمبراطور هرقل قد طور هذا النظام(نظام الأرخونية)، وطبقـه على آسيا الصغرى تحت مسمى الثـيمات. ويمضى جنكينز أكثـر من هذا ويحدد أن هذا النظام طبقه هرقل بنجاح وبتعمد منه على آسيا الصـغرى، فى الفترة من ٦١٩-٦٢٢م، مغيرا فقط بعضا من المصطلحات اللاتينية الباقية.

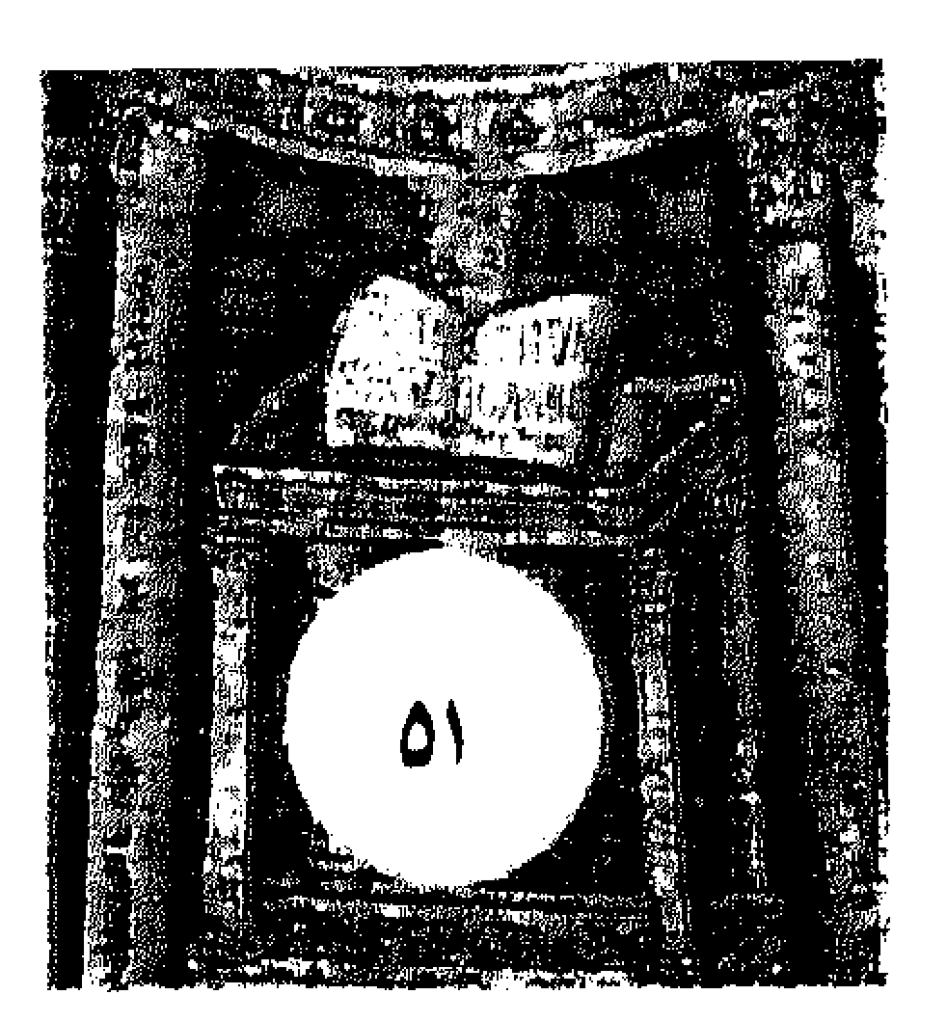
ويؤيد المؤلف هذا الرأى؛ لأن الإمبراطور هرقل هو ابن هرقل حاكم إفـريقية وقائد قواتها، وقـد عـرف كل شىء عن نظام الأرخـونيـة، وأدرك بـثـاقب بصـره نجاح ذلك النظام ورخـاؤه الاقتصـادى، ولعل هذا ما دفعـه إلى التفكير فى أن ينقل عاصـمته فى عام ٦١٨م إلى قـرطاجة. وبناء عليه، ربما يكون قد شعر بأن هذا النظام هو الذى تحتاجـه الإمبراطورية فى الأوقات العصيبة التى كانت تمر بها. فقـد حثته الحروب المستمرة مع الفرس والأخطار الـناجمة عن الآفار والسلاف على البدء فى تطبـيق هذا النظام الذى يعرفه، والذى يصـحح نقاط الضعف فى الإدارة، كـما أنه يكفل لها الدفاع عن الإمبراطورية.

وعلى ذلك يكون نظام الأقاليم العـسكرية (البيزنطى الطابع) قد حمل بـين ثناياه بعضا من آثار الأرخونية التى حملهـا هرقل معه من أفريقية إلى القسطنطينية؛ ويعـتبر فى نفس الوقت خيطا رفيـعا يربط بيـن النظامين القـديم والحديث (الأرخـونية - الثـيم) على الأقل فى المراحل الأولى لتطبيق هذا النظام، على عهد الإمبراطور هرقل ولكنه سرعان ما تهتك هذا الخيط بصفة خاصة فى القرنين الثامن والتـاسع من الميلاد عندما تأكدت الصـفة البيزنطية للإمـبراطورية، ومن ثم انتقلت بدورها إلى كل مؤسساتها، لاسيما النظم العسكرية والإدارية بصفة خاصة.

جدير بالذكر، أن الأقاليم العسكرية لم تنشأ جميعها فى تاريخ واحد، بل نتيجة لضروريات مـعينـة أدت - طبقـا لحـالة الإقـليم - إلى تطبيقـات متوالية، إلا أنها كانت قليلة العدد فى أول الأمر.



أسلحة رومانية





جندى رومى

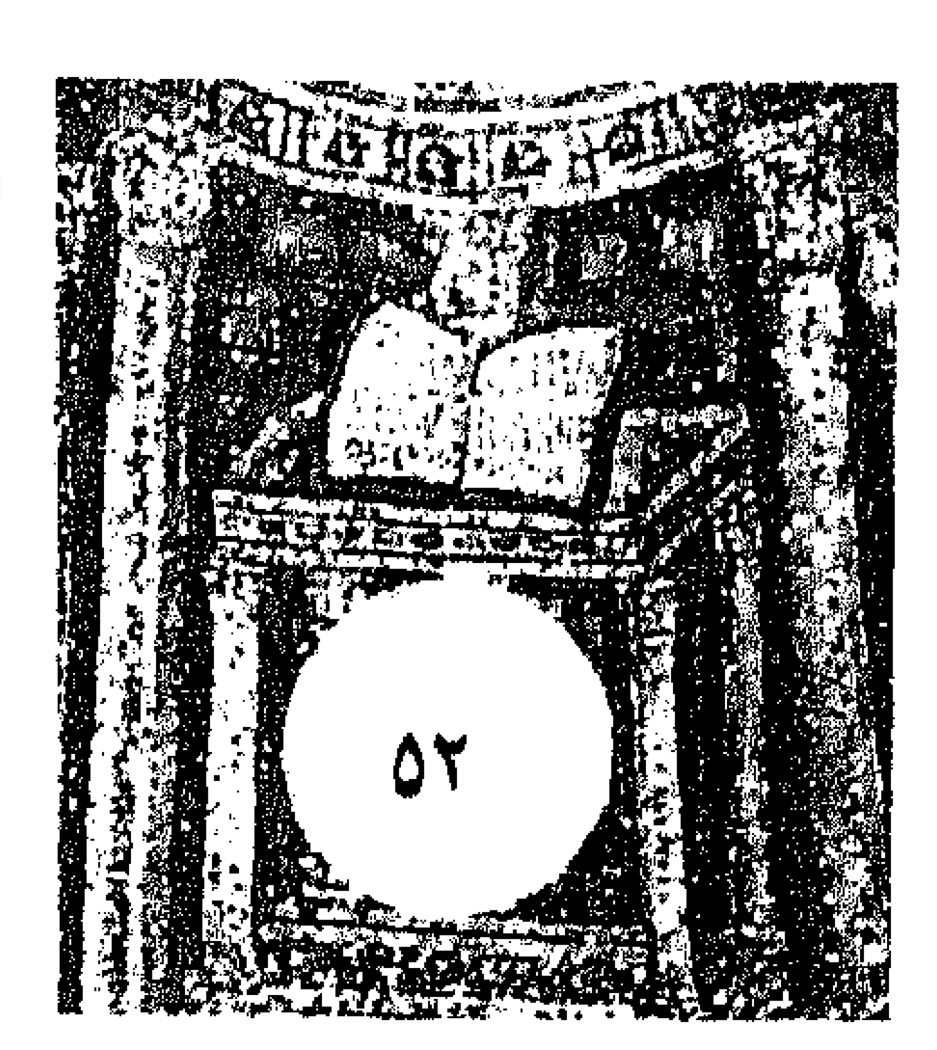
وتفسر أسماء الأقاليم العسكرية الجديدة الآسيوية نفسها بسهولة، فكان إقليما الأناضول، والأرمنياق الكبيران، هما الإقليمان اللذان يحميانهما جيش الشرق، وجيش أرمينية، ولما كان الأصل فى هذا النظام هو إنزال فرق معينة، أى تجمعات نظامية معينة من الكتائب للدفاع عن نواح معينة، فإن هذه النواحى سميت باسم الثيمات Themes، ومن ثم كان كل إقليم فى البداية يسمى باسم الفرقة التى ترابط فيه، مثل فرقة الأوبتيماطى، أو فرقة البقلارية. وفيما بعد عندما كانت الإمبراطورية تسترد مناطق جديدة من أعدائها، كانت ترفعها إلى مرتبة الإقليم العسكرى، وأطلقت على هذه الفرق (الثيمات) الأخيرة أسماء جغرافية مثل الثيم الخرشنى، أو السلوقى حسب العواصم التابعة لها؛ أو الثيم القبادوقى أو البيلوبونيزى حسب الاسم القديم للمقاطعة.

وكان كل حاكم من حكام هذه الأقاليم يسمى استراتيجوس، أى قائد، وقد عكس لقبهم هذا الأصل العسكرى لوظيفتهم؛ ولكن كانت هناك استثناءات، حيث كان قائد إقليم الأوبسيق يسمى قومس Comes، وقائد إقليم الأوبتيماطى يسمى دومستق؛ وكان يوجد إلى جانبهم فى القرن السابع لقب أرخون كما كان قائد الإقليم البحرى كيبرايوت يسمى درونجير، وهذه الألقاب تنتمى بوضوح إلى الهرم القيادى العسكرى ولا تتضمن فى جوهرها أى انتساب إلى النظام المدنى.

أما عن جنود الثيم فقد كانوا ينتسبون إلى طبقة اجتماعية ثرية نسبيا، أعلى من تلك التى للفلاحين الذين يشكلون الطبقة المدنية، وبدون أن يكون ذلك متناقضا فقد وردوا فى قائمة الحاجب فيلوثيوس فى المرتبة الأخيرة من مراتب الأسبقية فى الإمبراطورية البيزنطية.

والآن بعد أن تعرفنا على تاريخ نشأة الأقاليم العسكرية، أو الثيمات على حسب التعبير البيزنطى، والتى نشأت نتيجة لظهور المسلمين فى القرن السابع والحالة الاقتصادية المتردية التى انتابت الإمبراطورية آنذاك، قد يكون من المناسب أن نتعرف على النظام الإدارى فيها..

لقد كان الإمبراطور يعين قائد الإقليم، ومهمته الإشراف على سائر المنطقة الموكلة إليه عسكريا وإداريا، وبصورة شخصية، ومن ثم فهو الرئيس الأعلى للإقليم، وهو الذى يحكم فيالق



الجيش المقيمة فيه. وقائد الإقليم ممثلا للإمبراطور، بل يصل الأمر إلى أنه يقوم بدور نائب الملك فى إقليمه؛ ولذلك كان على اتصال مباشر معه؛ يخضع له، وقد مارس قائد الإقليم فى دائرته كافة السلطات الإدارية، كإدارة الأراضى، وإدارة العدل، والشئون المالية؛ فضلا عن أنه كان رئيسا لهيئة الشرطة، ومسئولا عن تجنيد وتسليح وتدريب الجنود فى إقليمه. وكان قائد الإقليم يعين لمدة محدودة تتراوح بين ثلاث أو أربع سنوات، ولا يستطيع خلالها أن يبرح المكان دون تصريح خاص من القسطنطينية، ولا مغادرة إقليمه، إلا لأسباب عسكرية (كالمشاركة فى حملة) أو لأسباب دينية (كالزيارات المقدسة)، كما كان قائد الإقليم يعين مرؤسيه إما عن طريقة مباشرة، أو عن طريق الإمبراطور، بعد استشارته، وقد كانت لديه السلطة عند اللزوم أن يعزل مساعديه.

وكان لقائد الإقليم سلطة على الشعوب الأجنبية المقيمة داخل نطاق إقليمه، مثل المردة فى إقليم كبيرايوت ومناطق أخرى (كيفالونيا، نيقوبولس، البيلوبونيز)، والسلاف فى الأوبسيق، والسلاف في مقدونيا، والميليجين Meliggoi والـ Ezeritai فى البيلوبونيز، والفالاك فى الهيلاس (أى اليونان). وكان له أيضا الحق فى تعيين رؤساء العشائر المقيمين فى دائرة اختصاصه، فهو يعين أراخنة الميلجيين، وقادة السلاف فى الأوبسيق، وضباط السلاف فى ستريمون وتسالونيك. أما بالنسبة لقطبان المردة فى أطاليا، وهو ضابط ذو رتبة عالية، فكان يتم تعيينه مباشرة من قبل الإمبراطور كأرخون الفالاك فى الهيلاس.

كما كان لقائد الإقليم حق التدخل فى المنازعات التى تدور بين المؤسسات الخيرية فى إقليمه، وله حق إيقاف وحبس المشبوهين ومرتكبى مختلف الجرائم. كما كان يقضى فى الجرائم ذات الطابع العسكرى، ويصدر الأحكام فيها بمساعدة موظفى الإقليم، مثل الأشغال الشاقة فى المناجم أو الحكم بالإعدام.

وبالرغم من سلطات قائد الإقليم العسكرية والمدنية الواسعة، كان يحظر عليه بشكل قاطع، أثناء تأديته لمهام وظيفته، أن يشيد أو يبنى أى شيء يصلح لاستعماله الشخصى، أو يكتب ملكية دون تصريح خاص، سواء عن طريق الهبة أو الشراء. ويحظر عليه كذلك ممارسة التجارة أو أن يقرض مبالغ نقدية بفائدة، وعلى العكس، كانت كل هذه الأمور متاحة لمرؤوسيه بشرط الحصول على موافقته.

ولما كان من الممكن أن يسيء قائد الإقليم استخدام سلطته، نتيجة لأن الأقاليم كانت أقل عددا وأكثر اتساعا، فإن الحكومة المركزية وضعت بجانبه نائبا عن الشئون المدنية وهو

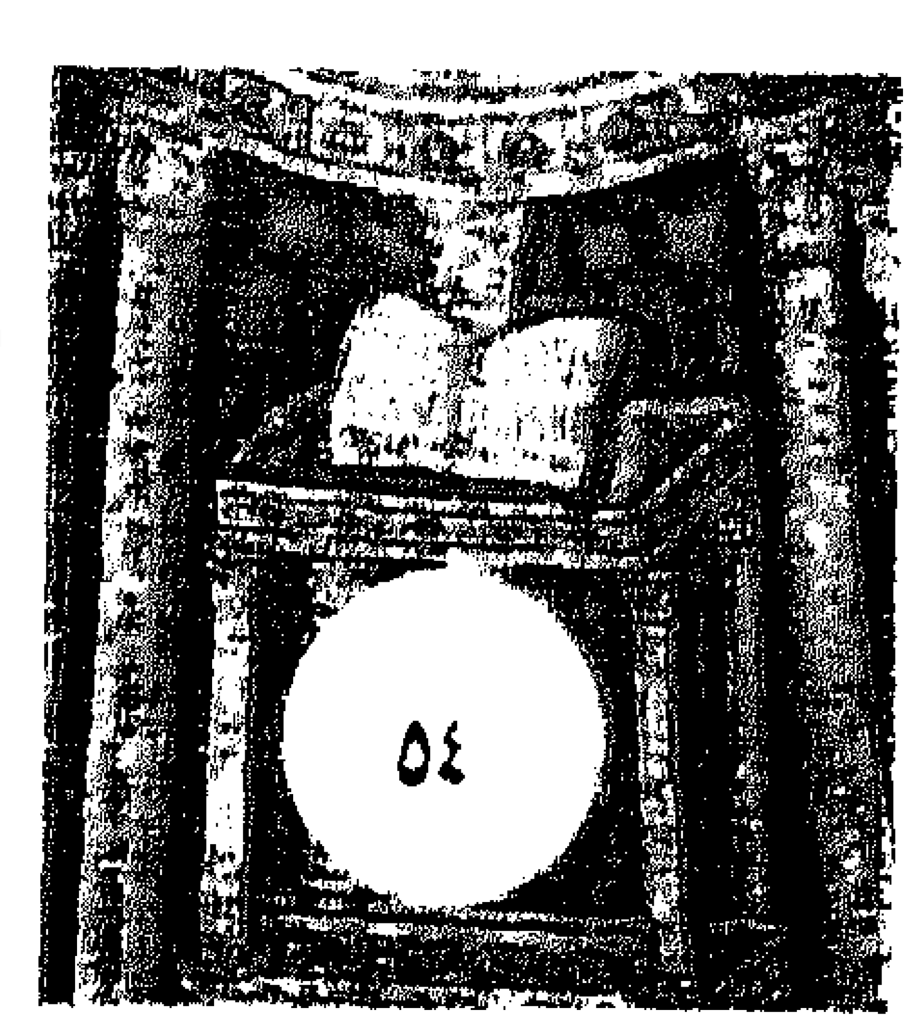
البرتونتاريوس؛ والبرايتور، أى قاضى الإقليم، وكان البروتونتاريوس المسئول عن الشئون المدنية، ويتبع كارتولاريوس الـ Sacellion وله الحق فى تبادل الرسائل مع الإمبراطور مباشرة، وبالرغم من أن هذين الموظفين كانا فى بعض الأحيان تابعين لقائد الإقليم، عند وجودهما به، إلا أنهما كانا أيضا مسئولين أمام الحكومة المركزية مباشرة وكان إلى جانبيهما موظف ثالث يسمى الكارتولاريوس؛ وهو المسئول عن حفظ السجلات العسكرية فى الإقليم، والإشراف على الشئون المالية، أى دفع الرواتب للجند، ولهذا كان مسئولا أمام لغثيت الخزانة العسكرية (الاستراتيوتيكون)، برغم أنه كان يخضع لقائد الإقليم ومذكور فى هيئة موظفيه. وكثيرا ما نجد ذكرا له فى المصادر البيزنطية.

على أية حال، إذا كان بروتونتاريوس الإقليم والكارتولاريوس، وأيضا البرايتور يخضعون فعلا، فى بعض الظروف، لسلطة قائد الإقليم، فإنه من المؤكد أنهم كانوا يتبعون سلطة الإمبراطور بطريقة تجعله يدين لهم بوسيلة الرقابة على الإدارة والمسائل المدنية والعسكرية، على حد تعبير الإمبراطور ليو السادس ٨٨٦ ٩١٢، وبذلك يكون من الواضح أن الحكومة المركزية احتفظت لنفسها بحق معين فى الإشراف، لكى تسيطر على قادة الأقاليم وتكبح جماحهم. وكان يؤكد نفس الغرض أيضا موظفون يبعثون من قبل الإدارة المركزية كمراقبين ومفتشين. كما كان الأساقفة ينصحون بأن يراقبوا الإجراءات الإدارية فى أقاليمهم.

وهكذا يكون من الواضح أن قائد الإقليم كان ذا سلطة عظمى، لاسيما وأن الإقليم الواحد كان يشمل عديدا من الأقاليم القديمة، وبالتالى اتخذت التنظيمات الإدارية الجديدة طابعا عسكريا واضحا. ولا ينبغى أن ننسى أن الأقاليم الأولى كانت فى بادئ الأمر قليلة وشاسعة، وحكامها جمعوا فى أيديهم السلطتين المدنية والعسكرية. ومن الضرورى أن نشير إلى الجانب الآخر من مهام قائد الإقليم، أى إلى الجانب العسكرى، أو التنظيم العسكرى للأقاليم البيزنطية.

لقد تزود كل إقليم من الأقاليم البيزنطية بثيما واحدة (أى فرقة عسكرية)، قسمت بدورها، طبقا لحجمها أو وفقا لأهمية الإقليم، إلى اثنين أو ثلاث تورمات(أى لواءات) Turmai، أو أربع تورمات فى بعض الأحيان. ويقود كل تورما من هذه التورمات طورماخ، الذى كان يساعد قائد الإقليم فى قيادة جيشه ويوضع على رأس الجناح الأيمن فى التشكيل، وكانت هذه التورمات تحمى المناطق التى كان يقسم إليها الإقليم.

وهكذا، فإن نظام الأقاليم العسكرية (نظام الثيمات)، الذى أنشأه الإمبراطور هرقل، استطاع أن يوفر خطا دفاعيا لحماية أقاليم آسيا الصغرى من المسلمين، والتصدى لكل محاولة من قبلهم لتحقيق أى وجود عسكرى لهم فى آسيا الصغرى، فكان بمثابة العمود الفقرى للدولة البيزنطية على حد تعبير أوستروجورسكى.



أما عن الجانب الإسلامى فقد أدت الهزائم التى لاقاها البيزنطيون على أيدى المسلمين من ناحية؛ وسقوط العديد من الولايات البيزنطية سابقا فى أيديهم إلى ضرورة اهتمام المسلمين بتقوية وتحصين مناطق التخوم مع البيزنطيين؛ وهو الأمر الذى أدى إلى ظهور ما يعرف باسم إقليمى الثغور والعواصم على الحدود بين الدولتين.

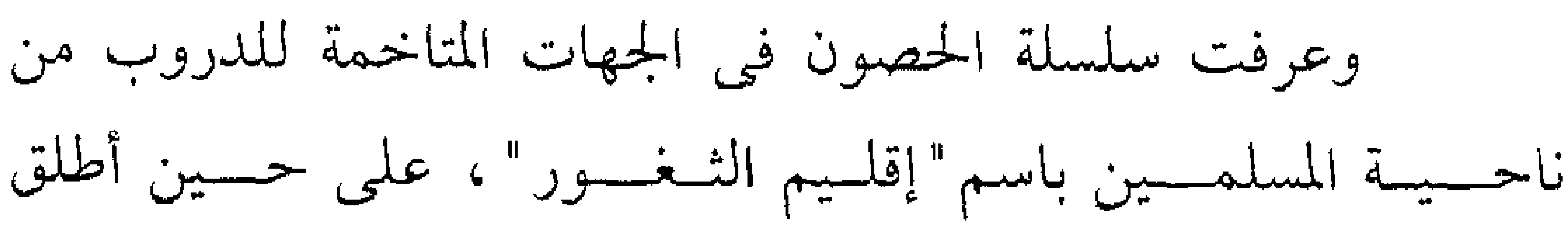
تجدر الإشارة إلى أن المناطق الحدية الواقعة بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية كانت وعرة للغاية ويصعب على القوات الإسلامية المرور منها بسلام دون وقوع كمائن أو كوارث عسكرية غير متوقعة، لقد كان على المسلمين أن يجتازوا بعض الدروب الجبلية فى جبال طوروس لمهاجمة البيزنطيين، وأهمها ممران مشهوران يعرف الأول منهما باسم البوابات القيليقية، التى يقع على ناصيتها حصن طرسوس، والثانى يسمى درب الحدث، ويقع شمال شرقى الممر السابق؛ وهو الأصعب جغرافيا من سابقه، وفيه لاقى المسلمون عددا من الهزائم على أيدى البيزنطيين.



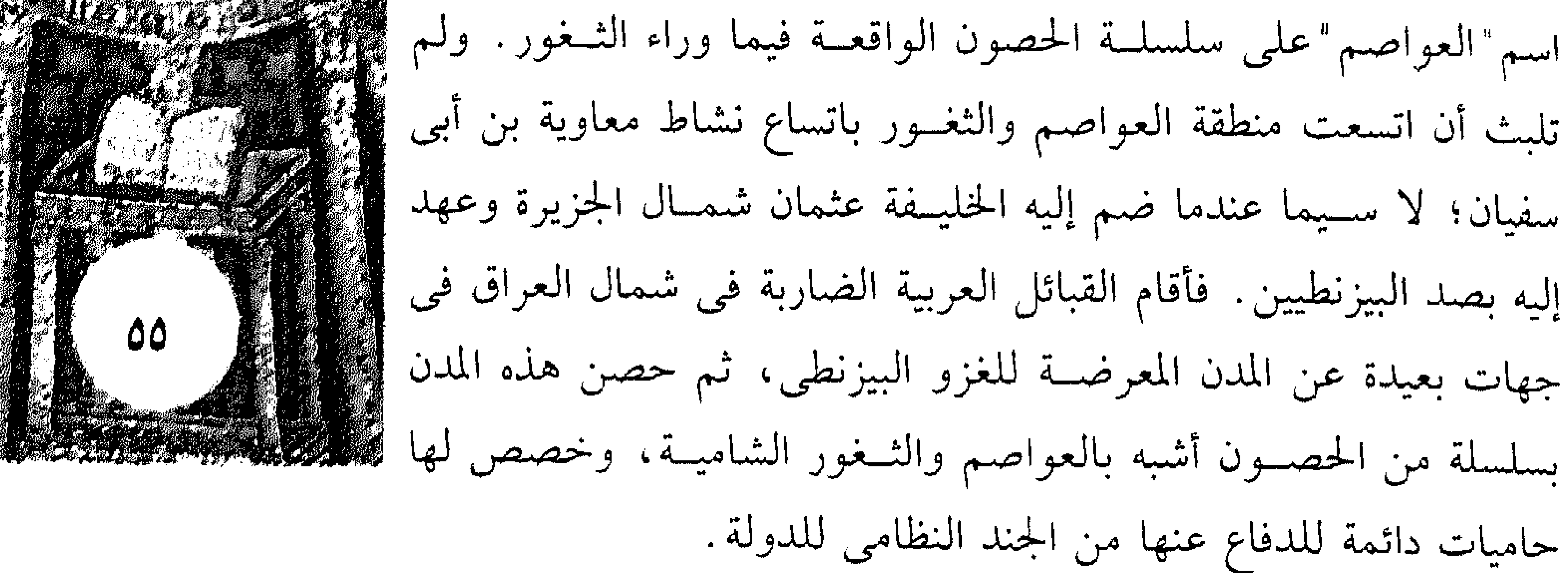
برج غلاطا لهداية السفن - القسطنطينية

لم يلبث المسلمون أن عملوا على تلافى هذه الأخطار بترك حاميات عند المضايق الجبلية التى ينفذون من خلالها إلى أراضى الدولة البيزنطية، ثم قاموا بتحصين المدن التى تتحكم فى هذه الممرات، فانتشرت هذه السلسلة من الحصون فى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم إقليم العواصم، على عهد الخليفة هارون الرشيد، وهى المنطقة الممتدة من طرسوس إلى سميساط على نهر الفرات.

وقد اتبع معاوية بن أبى سفيان، منذ أن كان واليا على بلاد الشام، سياسة تعمير تلك المدن والحصون وحشدها بالمسلمين، فأغرى المسلمين على الإقامة فى أنطاكية، حيث منحهم أراض هناك، وقوى الرباط المخصص للدفاع عنهم، وأكمل سياسته فى تحصين المناطق الحدية بين الدولتين، بأن بدأ فى تعمير المدن الواقعة بين الإسكندرية وطرسوس أثناء إغارته على أراضى البيزنطيين، حتى أصبحت حدود بلاد الشام تتاخم مباشرة جبال طوروس، الفاصلة بين بلاد الشام والأناضول.



وعرفت سلسلة الحصون فى الجهات المتاخمة للدروب من ناحية المسلمين باسم "إقليم الثغور"، على حين أطلق



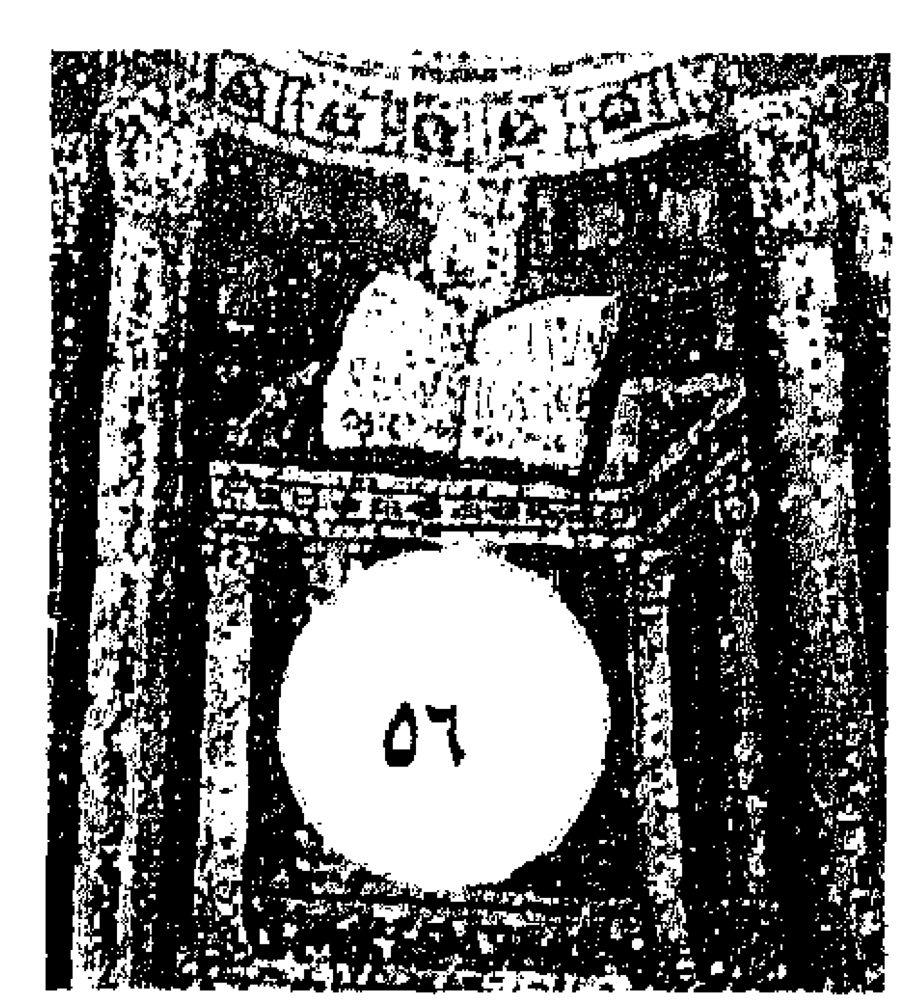
اسم "العواصم" على سلسلة الحصون الواقعة فيما وراء الثغور. ولم تلبث أن اتسعت منطقة العواصم والثغور باتساع نشاط معاوية بن أبى سفيان؛ لا سيما عندما ضم إليه الخليفة عثمان شمال الجزيرة وعهد إليه بصد البيزنطيين. فأقام القبائل العربية الضاربة فى شمال العراق فى جهات بعيدة عن المدن المعرضة للغزو البيزنطى، ثم حصن هذه المدن بسلسلة من الحصون أشبه بالعواصم والثغور الشامية، وخصص لها حاميات دائمة للدفاع عنها من الجند النظامى للدولة.

وتابع معاوية أعماله فى ذلك السبيل باستكمال سيطرته على المعاقل والحصون المهمة الواقعة على المنطقة الحدية بين الدولتين، فاستولى قائده حبيب بن مسلمة الفهرى على مدينة سميساط، ثم ملطية؛ التى شحنها بالجند لتصير قاعدة للهجمات الإسلامية على الأراضى البيزنطية. واستكمل معاوية جهوده فى تأمين وتحصين المنطقة الحدية بين الدولتين بناء حصن مرعش(جرمانيكا)، وأعاد ترميم حصن الحدث، المتحكم فى ممر الحدث عبر جبال طوروس؛ وأخيرا استولى معاوية على حصن زبطرة وأعاد تحصينه.

وكان من نتائج تحصين هذه الجهات أن انقسمت الحدود الإسلامية إلى قسمين، إقليم العواصم والثغور الشامية للدفاع عن بلاد الشام، والانطلاق منه إلى الأراضى البيزنطية؛ وإقليم العواصم والثغور الجزرية للدفاع عن شمال العراق، وللحملات المنطلقة منه نحو الأراضى البيزنطية.



منظر داخلى من مسجد السلطان محمد الفاتح (كنيسة آياصوفيا سابقا)

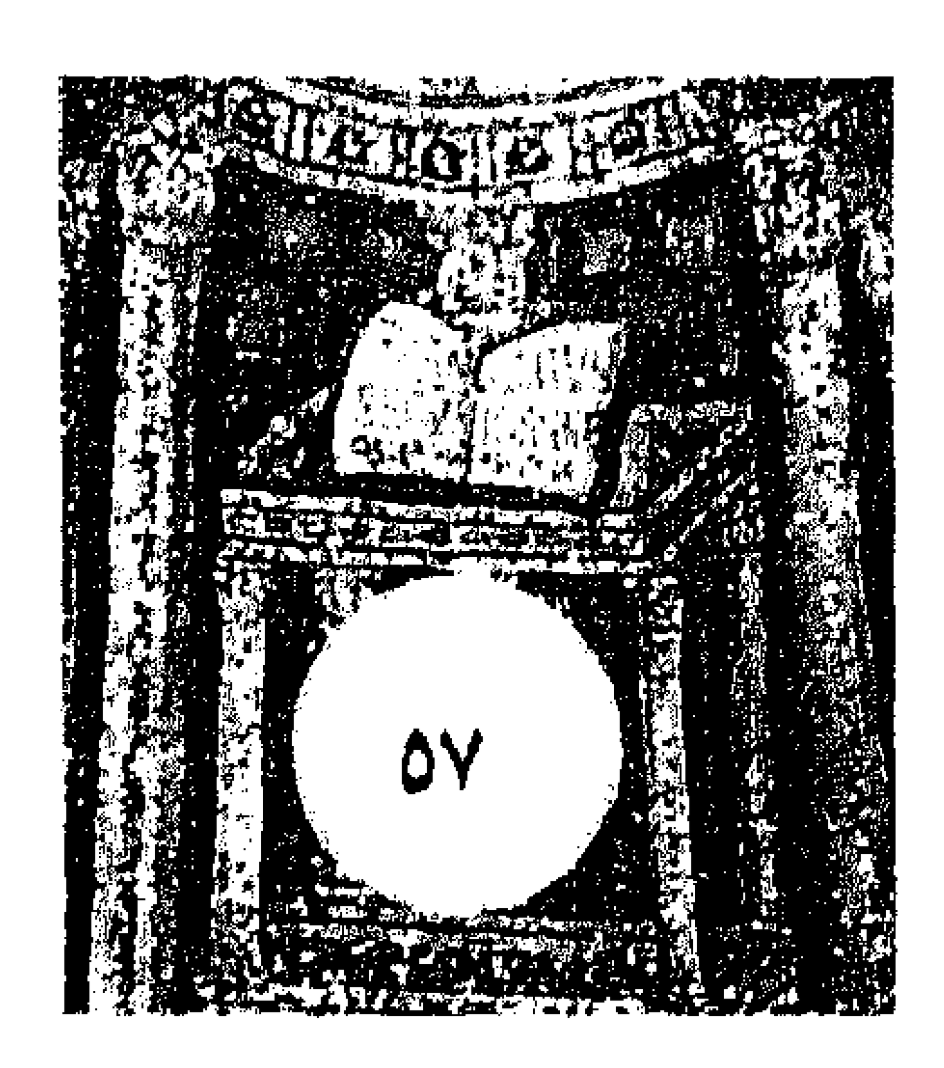


وقد أدت هذه الخطوط الدفاعية/ الهجومية الأمامية إلى ظهور ما عرف باسم "الصوائف والشواتى" فى الأيديولوجية العسكرية الإسلامية، وهى عبارة عن إغارات سريعة مركزة نحو هدف معين، قد يكون واقعا على أطراف الدولة البيزنطية أو فى العمق؛ وتهدف هذه الصوائف والشواتى إلى إقلاق بال البيزنطيين دائما، بصورة لا تجعلهم يجنحون إلى الراحة أو الهدوء العسكرى؛ وهو الأمر الذى كان يستلزم منهم شحذ همم الجند طوال العام، المرابطة فى الحصون بصورة متصلة، خوفا من تلك الصوائف والشواتى التى كان المسلمون يدفعون بها نحو أراضى بيزنطة.

وأدرك معاوية بن أبى سفيان آنذاك ضرورة الاعتماد على قادة أكفاء للقيام بأمر الصوائف والشواتى لتؤتى ثمارها المرجوة من ناحية؛ وحتى يجنب الجيوش الإسلامية خطر الهلاك على أيدى القوات البيزنطية التى كانت تجيد فن الكمائن والقتال بين المرتفعات من ناحية أخرى، فكان معاوية يستدعى القادة الأكفاء ويعقد لهم اختبارا ليقف منه على مدى قدراتهم القتالية، ثم ينتقى من بينهم أحدهم لقيادة الصائفة أو الشاتية، وبهذا أضحى ميدان الصوائف والشواتى مجالا يبدى فيه قادة المسلمين مواهبهم ويتدربون فيه على أساليب القتال. وقد برز من هؤلاء القادة مالك بن عبد اللّه الخثعمى، الذى لقب باسم "مالك الصوائف"، من حسن ما أبلاه فى مجال الصوائف والشواتى فى بلاد الروم. كذلك اشتهر من بين هؤلاء القادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، الذى أغار على آسيا الصغرى عام ٦٦٣م/ ٤٣هـ، وأسر الكثير من الروم، وخرب عددا من الحصون.

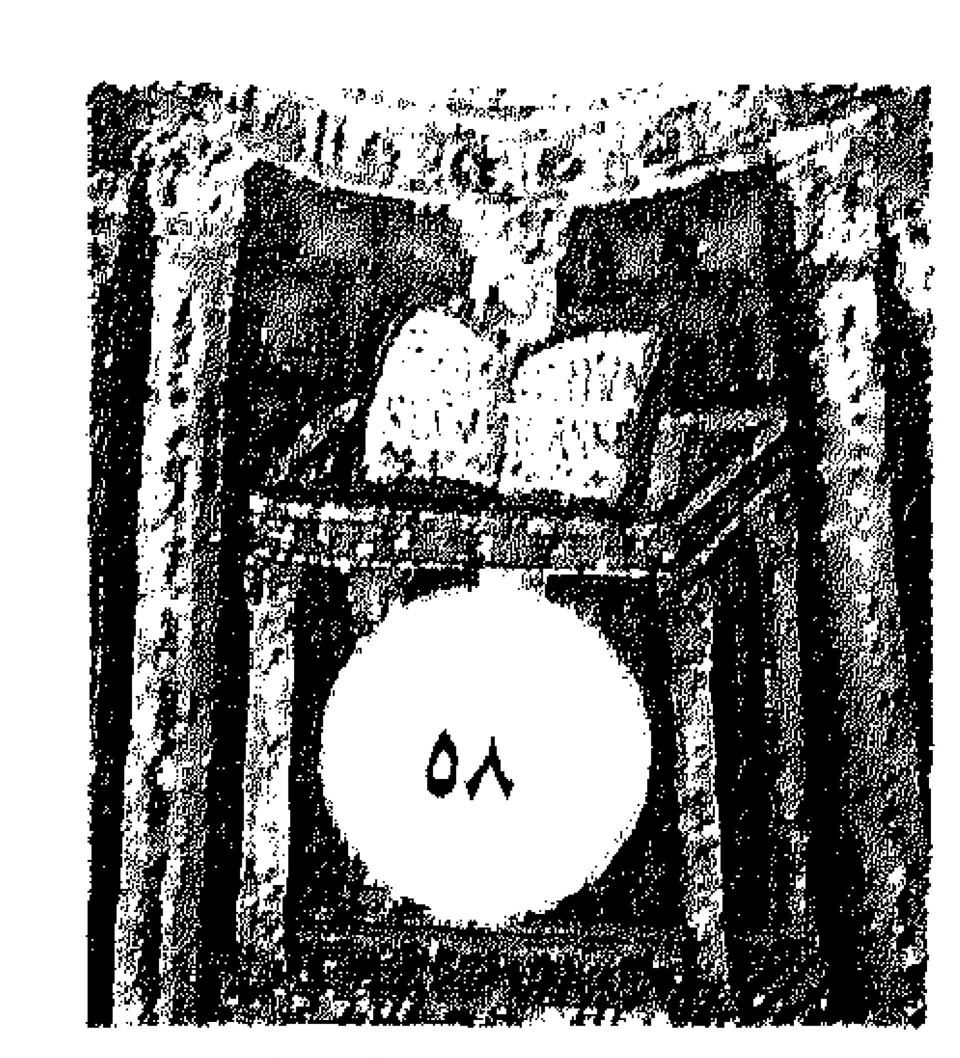
وتجدر الإشارة إلى أن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد شن شاتية على أرض الروم فى عام ٦٦٤م/ ٤٤هـ، انضم إلى جانبه فيها خمسة آلاف من السلاف الذين يقطنون أراضى الدولة البيزنطية، حيث اصطحبهم معه فى طريق العودة إلى بلاد الشام، حيث أسكنهم فى شمالها.

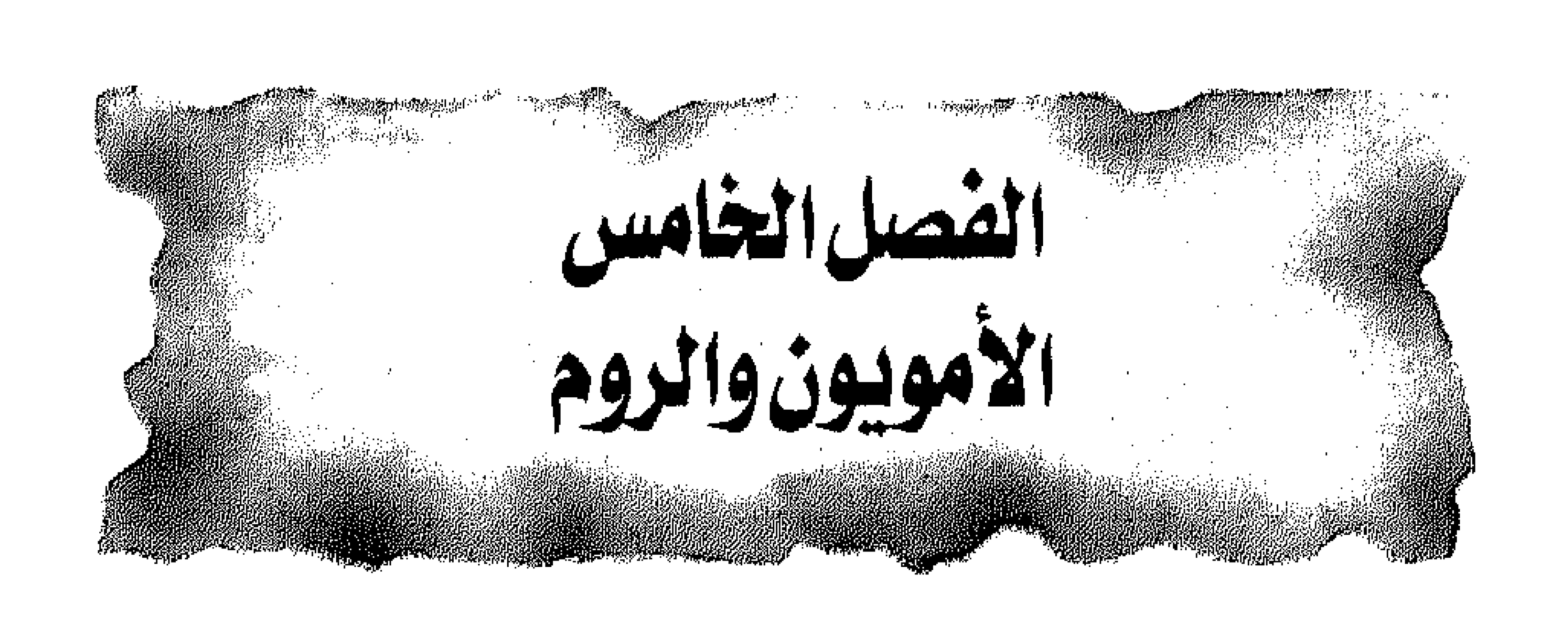
ويروى لنا قدامة بن جعفر تفاصيلَ غاية فى الأهمية حول ماهية نظام الصوائف والشواتى التى كان يشنها المسلمون على أراضى البيزنطيين آنذاك. فيذكر أن أصعب هذه الغزوات "مما يعرفه أهل الخبرة من الثغريين أن تقع الغزاة التى تسمى الربيعة، لعشرة أيام تخلو من آيار، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم، فيقيمون ثلاثين يوما، وهى بقية آيار، وعشرة من حزيران، فإنهم يجدون الكلأ فى بلد الروم ممكنا، وكأن دوابهم ترتبع ربيعا ثانيا، ثم يقفلون فيقيمون إلى خمسة وعشرين يوما وهى بقية حزيران، وخمسة من تموز، حتى يقوى ويسمن الظهر، ويجتمع الناس لغزو الصائفة؛ ثم يغزون لعشر تخلو من تموز، فيقيمون إلى وقت قفولهم



ستين يومـا. فأما الشواتى فإنى رأيـتهم جميعـا يقولون: إن كان لابد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل، وليكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار مما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره، وأن يكون ذلك فى آخر شباط، فيقيم الـغزاة إلى أيام تمضى من آذار، فإنهم يجدون العدو فى ذلك الوقت أضعف ما يكون نفسا ودوابا، ويجدون مواشيهم كثيرة ثم يرجعون ويربعون دوابهم يتسابقون".

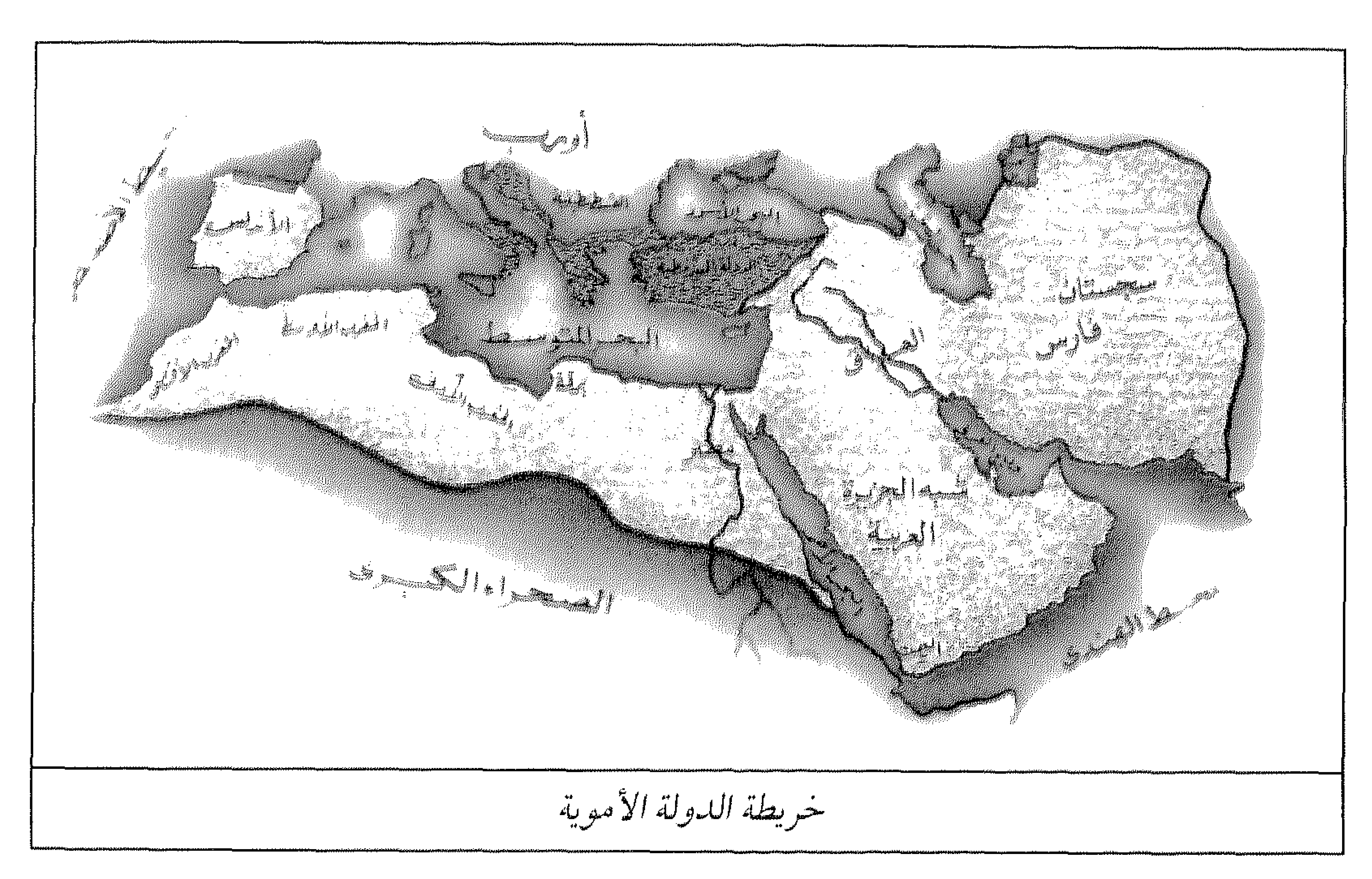
على هذا النحو لخص لنا قدامة بن جعفر طبيعة وماهية نظام الصوائف والشواتى، الذى كان من النتائج المباشرة لتلك المرحلة من العلاقـات بين المسلمين ودولة الروم، إلى جانب إنشاء إقليمى العـواصم والثـغور، وبعـد أن تعـرفنا على بعض النتـائج البـارزة التى عـادت على دولتى الروم والمسلمين آنذاك من جراء الاحتكاك العسكرى بينهما نعـاود لنستكمل الحديث عن العلاقات بينهما وإلام مضت.





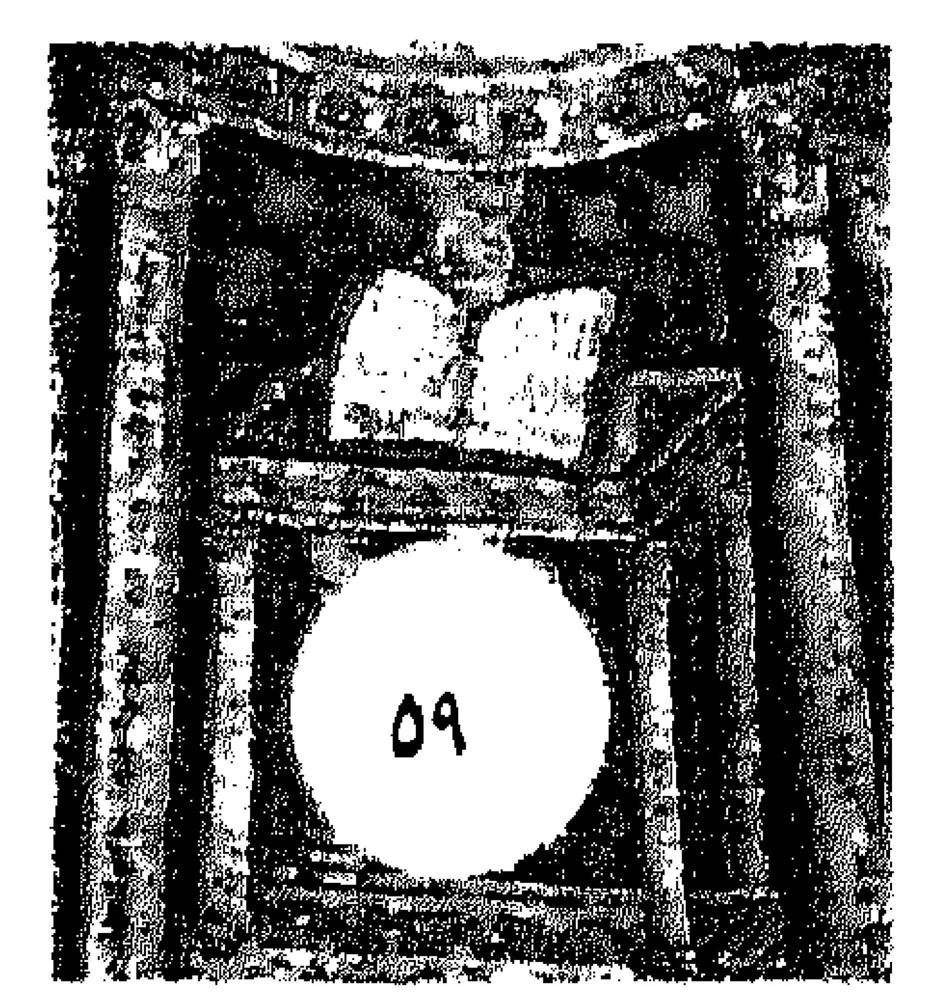
الفصل الخامس
الأمويون والروم

بعد أن مَنَّ اللّه على المسلمين بفتح بلاد الشام وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا وبلاد العراق وفارس، أصبح شغل معاوية بن أبى سفيان الشاغل هو غزو مدينة القسطنطينية ذاتها وفتحها وتحويلها إلى دار الإسلام؛ حيث كانت هذه المدينة ليس فقط عاصمة الدولة البيزنطية بل العاصمة الروحية لمسيحى الشرق، ودرة مدن البحر المتوسط التى تزخر بكل نفيس وغال من التجارات العالمية؛ بل لا نبالغ إذا قلنا أن القسطنطينية كانت رمزا للجمال والثراء فى عالم العصور الوسطى.



خريطة الدولة الأموية

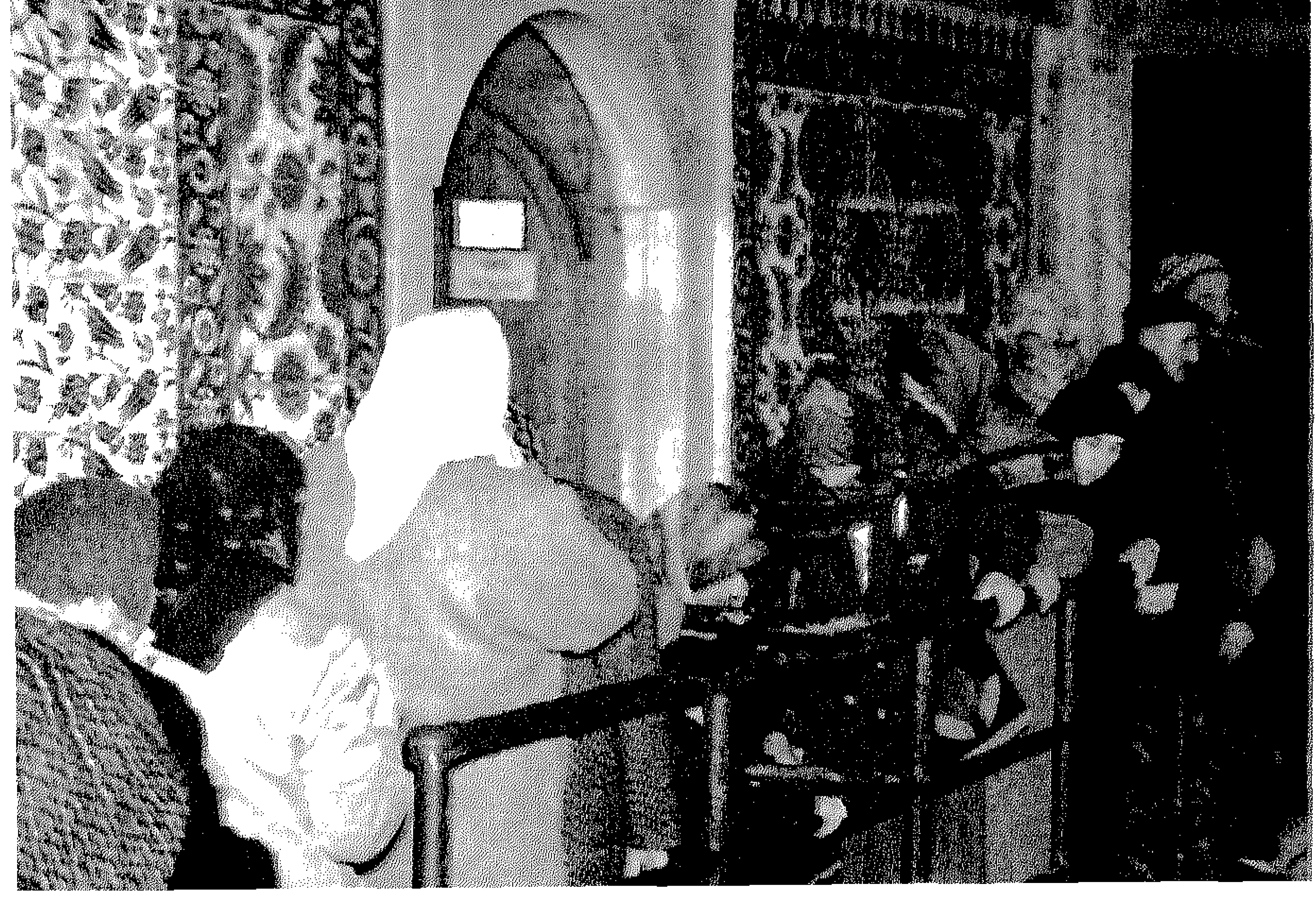
أرسل معاوية حملة استكشافية فى عام ٦٦٨م / ٤٨هـ بقيادة فضالة بن عبيد الأنصارى إلى ضواحى القسطنطينية وهى التى يعتبرها المؤرخون أولى الحملات الإسلامية على القسطنطينية؛ حيث استطاع أن يصل إلى مدينة خلقدونية، وأقام بها شتاء ذلك العام، وكانت العمليات الحربية تتوقف خلال الشتاء نظرا للبرودة الشديدة والثلوج، فظل فضالة طوال شتاء ٦٦٨م-٦٦٩م ينظم قواته انتظارا للمدد الذى سيرسله إليه معاوية من دمشق؛ حيث أرسل معاوية إليه جيشا تولى قيادته ابنه يزيد.



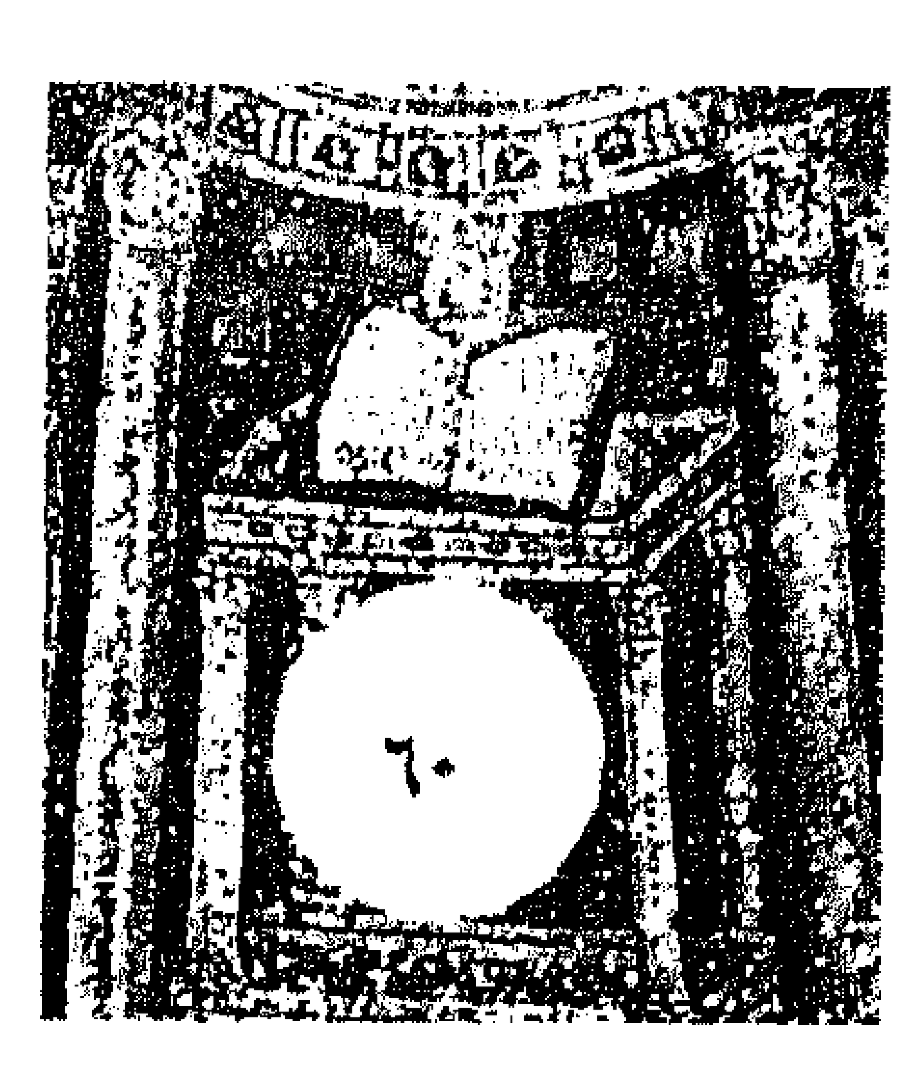
وتجدر الإشارة إلى أن هذه الحملة، التى يصنفها المؤرخون على أنها أولى الحملات الإسلامية على القسطـنطينية، شارك فيها الصحابى الجليل أبو أيـوب الأنصـارى. خـرج جـيش يزيـد إلى أراضى الدولة البيزنطية حيث التحم بقوات فضالة بن عبيد الأنصارى عند خلقدونية، وساروا جميعا نحو مدينة القسطنطينية، التى ألقوا الحصار عليها. وبعد أن حاصر المسلمـون القسطنطينية فترة من الوقت، فكوا الحـصار عنها فى صيف عام ٤٩هـ/ ٦٦٩م، بعد أن لاقوا مقاومة شديدة من البيزنطيين من ناحية، ولعدم كفاءة أدوات الحصار الموجودة فى حوزة المسلمين بما يتناسب مع ضخامة وحصانة أسوار المدينة من ناحية أخرى.

وليس ثمة شك أن وصـول القوات الإسلاميـة إلى القسطنطينية وحـصارها لعدة شهـور قد أحدث صـدمة فى نفوس البيـزنطيين، وكانت مفـاجأة غير سـارة لهم أدخلت الرعب والهلع إلى صدورهم، والأهم من كل هذا أنهـا نبهتهم إلى أن عاصـمتهم ليست بعيـدة عن أيدى المسلمين، وأنها صارت هدفـا لهم. تجدر الإشارة إلى أن أبا أيوب الأنصارى قد لاقى حتـفه فى تلك الحملة ودفن بالقرب من أسوار القسطنطينية. وقد نال قبر الصحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى قدرا كبيرا من التكريم من البيـزنطيين المقيمين فى أجـواره، حيث كانوا يعتقـدون أنه يجلب الأمطار إليهم، وتعهدوه بالترميم والإصلاح على حد قول أحد المؤرخين.

ولم تمض بضع سنوات على عـودة الحملة الإسـلاميـة الأولى على القـسطنطينية حـتى أتم معاوية بن أبى سفيان استعداداته العسكرية للقيام بحملة ثانية على القسطنطينية فى عام ٥٤-٥٥هـ/ ٦٧٣- ٦٧٤م، هدفها الاستيلاء على مدينة القسطنطينية ذاتها. فأرسل قائده عبد الرحمن بن خالد علـى رأس حـمـلة عـسكرية فى عـام ٥٤هـ/ ٦٧٣م إلـى القسطنطينية، مدعومة بأسطول بحرى، حتى يتمكن المـسلمون من حـصـار المديـنة برا



ضريح أبى أيوب الأنصارى



وبحرا. وتجدر الإشارة إلى أن فصل الشتاء لعام ٥٤هـ/ ٦٧٣م قد حل والقوات الإسلامية فى طريقها عبر آسيا الصغرى، فتوقفت السفن البحرية عند شاطئ قيليقيا لحين تحسن المناخ.

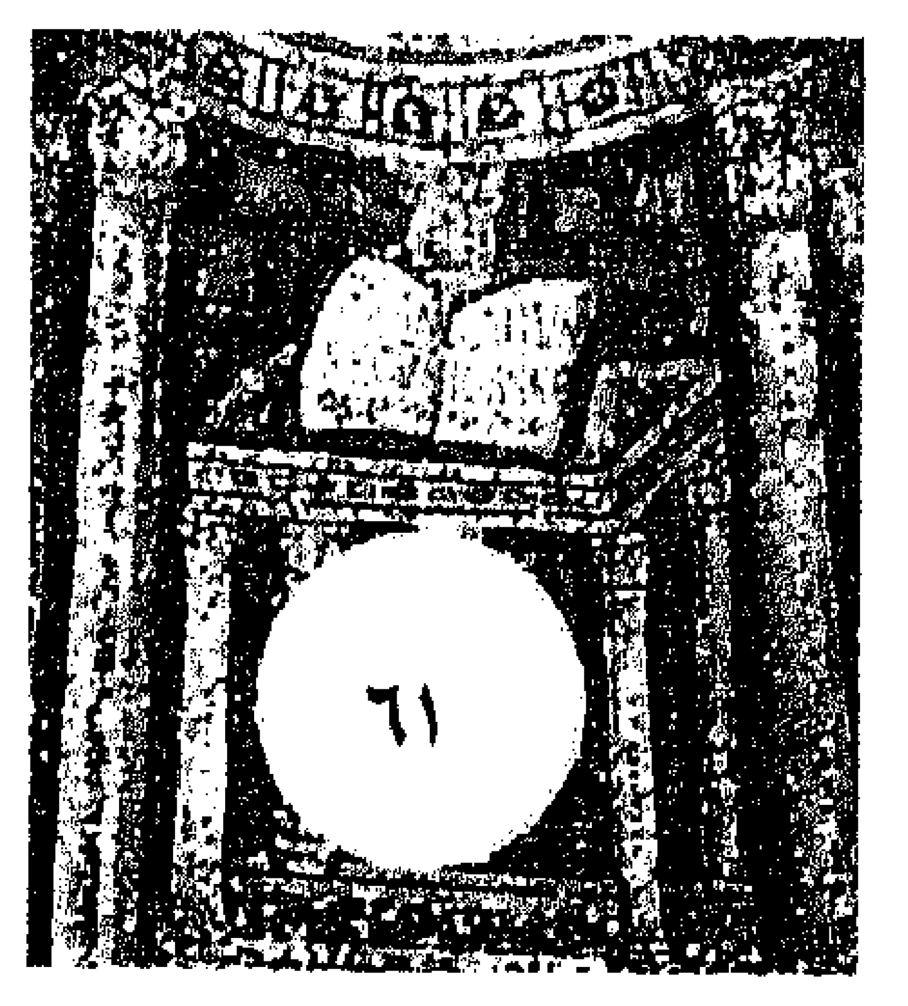
وبمطلع الربيع وصل أسطول إسلامى آخر إلى البوسفور، حيث زحفت القوات الإسلامية جميعا نحو القسطنطينية، وفى شهر أبريل اجتاز الأسطول الإسلامى مضيق الدردنيل دون مقاومة؛ فى الوقت الذى تحركت فيه الجيوش البرية عبر آسيا الصغرى أيضا.

استولى المسلمون آنذاك على جزيرة ارواد (كيزيكوس) الواقعة فى بحر إيجة، واتخذوها مركزا للعمليات الحربية ضد القسطنطينية. وكان الأسطول الإسلامى يقل الجنود وينقلهم إلى القسطنطينية لحصارها برا، فى الوقت الذى كان يتم الأسطول فيه حصاره البحرى لها فى نفس الوقت، وقد استمر الحصار الإسلامى البحرى - البرى منذ شهر أبريل إلى شهر سبتمبر، واستمرت معه المناوشات الحربية بين الطرفين. واضطرت السفن الإسلامية إلى العودة إلى جزيرة أرواد لقضاء الشتاء بها، ثم تعاود الحصار بعد تحسن الأحوال الجوية. وبحلول الربيع عادت السفن الإسلامية محملة بالعتاد والجند لتلقى الحصار برا وبحرا حول القسطنطينية مرة ثانية.

على هذا النحو، استمرت القوات الإسلامية فى إلقاء الحصار حول أسوار القسطنطينية طوال فصلى الربيع والصيف، ورفعه فى فصلى الخريف والشتاء، وذلك لمدة سبعة أعوام، إلا أنه بعد هذه السنوات السبع فشلت حملة معاوية بن أبى سفيان الثانية على القسطنطينية وعادت بقايا السفن الإسلامية بخفى حنين إلى قواعدها ببلاد الشام دون إحراز نصر عسكرى يتلاءم مع سنوات سبع من الحصار والقتال مع البيزنطيين؛ على الرغم من كثرة الجند والعتاد والتسليح الجيد والقادة الأكفاء أمثال عبد الرحمن بن خالد، وسفيان بن عوف ويزيد بن معاوية وغيرهم. ولعل فشل الحملة الإسلامية الثانية على القسطنطينية له أسبابه الوجيهة التى لا حيلة للمسلمين فيها، على الرغم من بلائهم فى القتال بلاء حسنا؛ ويمكن أن نجمل هذه الأسباب فيما يلى:

أولا: سؤ الأحوال الجوية والمناخ القارس البرودة، الذى لم يعتده المسلمون من قبل؛ حيث اضطروا إلى اللجوء إلى جزيرة كيزيكوس، وبناء أكواخ خشبية للاحتماء بها من برد الشتاء؛ بل بلغ سوء الأحوال الجوية أنهم اضطروا إلى أكل لحوم خيولهم على حد ذكر بعض المؤرخين.

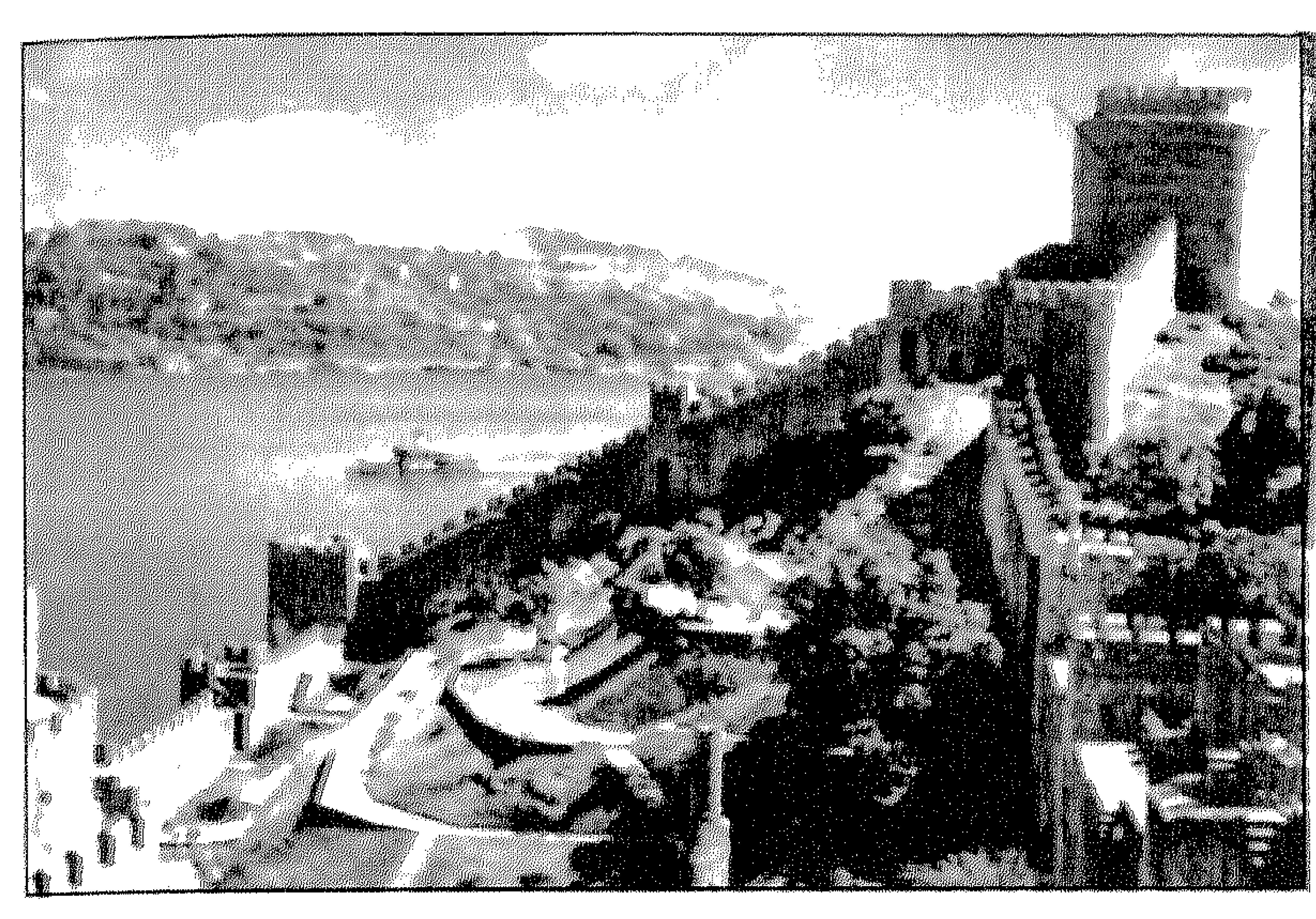
ثانيا: حصانة مدينة القسطنطينية؛ حيث كانت مدينة القسطنطينية محصنة بعدد من الأسوار التى يصعب اقتحامها، دون توافر آلات وأدوات ثقيلة للحصار ونقب الأسوار، فمن المعروف أن معظم مدن العصور الوسطى كان يتم تحصينها، طبقا لمدى أهمية تلك المدينة وماهية وطبوغرافية المدينة أيضا. وفى حالة مدينة كالقسطنطينية، التى كانت درة مدن البحر المتوسط، وراعية المسيحية

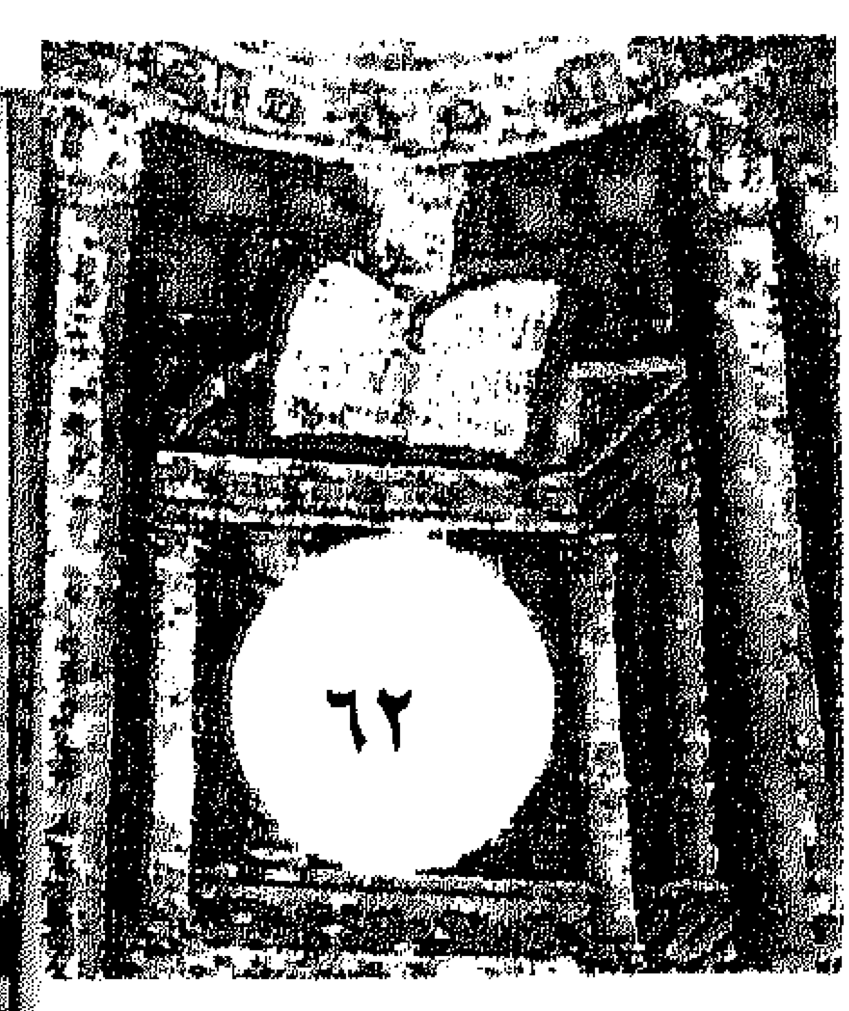


فى الشرق، ورمز الثراء فى الفكر الأوروبى الوسيط، كان لابد أن تتحصن بشكل غير تقليدى يقيها شر هجمات الطامعين فيها من القبائل والأمم المجاورة. فقد كانت المدينة محصنة بثلاثة أسوار برية يعلو كل منها الآخر، وهى الأسوار المعروفة باسم أسوار ثيودوسيوس؛ وكان يتخلل هذه الأسوار مجموعة كبيرة من الأبراج، ذات الطابقين والثلاثة طوابق، ويتخللها سلم داخلى لصعود الجند إلى هذه الطوابق. وأمام السور الثالث وهو الأدنى فى الارتفاع، كان يوجد خندق مائى، يصعب اجتيازه. وتتخلل هذه الأسوار البرية مجموعة من البوابات لمرور السكان والجنود والجيوش الخارجة للقتال؛ كان من أشهرها تلك البوابة المعروفة باسم "باب الذهب". وعلى بعد خمسة كيلومترات من هذه الأسوار كان يقع سور أنستاسيوس الطويل، ليكون خط دفاع وعامل إعاقة أمامى للقوات المغيرة على القسطنطينية من الجانب الأوروبى.

أما من ناحية البحر فقد كانت هناك سلسلة متصلة من الأسوار التى تخرج قواعدها بصورة رأسية حادة من البحر بطول شواطئ المدينة على البوسفور، وكانت هذه الأسوار الشاهقة التى يصعب تسلقها أو خرقها، من الجرانيت المقاوم لمياه البحر، وكانت تتخللها الأبراج متعددة الطوابق أيضا، وتمتد من الجنوب حتى شمال المدينة، حيث يقع القصر الإمبراطورى المعروف باسم "قصر البلاشيرن". وحتى يُحكم البيزنطيون تحصينات المدينة، وضعوا سلسلة حديدية طويلة تمتد من الطرف الجنوبى للشاطئ الغربى لآسيا الصغرى إلى الجهة المقابلة لها على الجانب الأوروبى، أو الجانب الشرقى لشبه جزيرة البلقان، وبهذا تسد هذه السلسلة فم خليج القرن الذهبى أمام سفن الأعداء، التى تسعى إلى دخول الدردنيل لمحاصرة المدينة. وهكذا، لم يكن من السهولة بمكان على المسلمين اختراق كل هذه التحصينات، التى اختبر الزمان حصانتها ومناعتها قبل ظهور المسلمين مرارا.

ثالثا: أما العامل الثالث الذى أفضى إلى فشل الحملة الإسلامية الثانية على القسطنطينية فتمثل فيما عرف باسم "النار الإغريقية"، فقد هاجمت سفن الأسطول البيزنطى قطع الأسطول الإسلامى مرارا وكانت تقذفه بألسنة من اللهب، عبر أنابيب فى مقدمة السفن البيزنطية، عرفت باسم السيفونات Siphons؛ وهذا اللهب لا ينطفئ بالماء بل يظل مشتعلا بالسفن حتى يؤتى عليها، وهو الأمر الذى أرهق المسلمين آنذاك وقضى على الكثير من سفنهم. بل مما زاد الأمر سوءا أن البيزنطيين كانوا يصنعون كرات من الأحجار أو الحديد تحتوى على المادة الفعالة للنار الإغريقية، يتم إشعالها وإلقائها من أعلى الأسوار على الجنود المسلمين الذين يحاصرون المدينة برا.





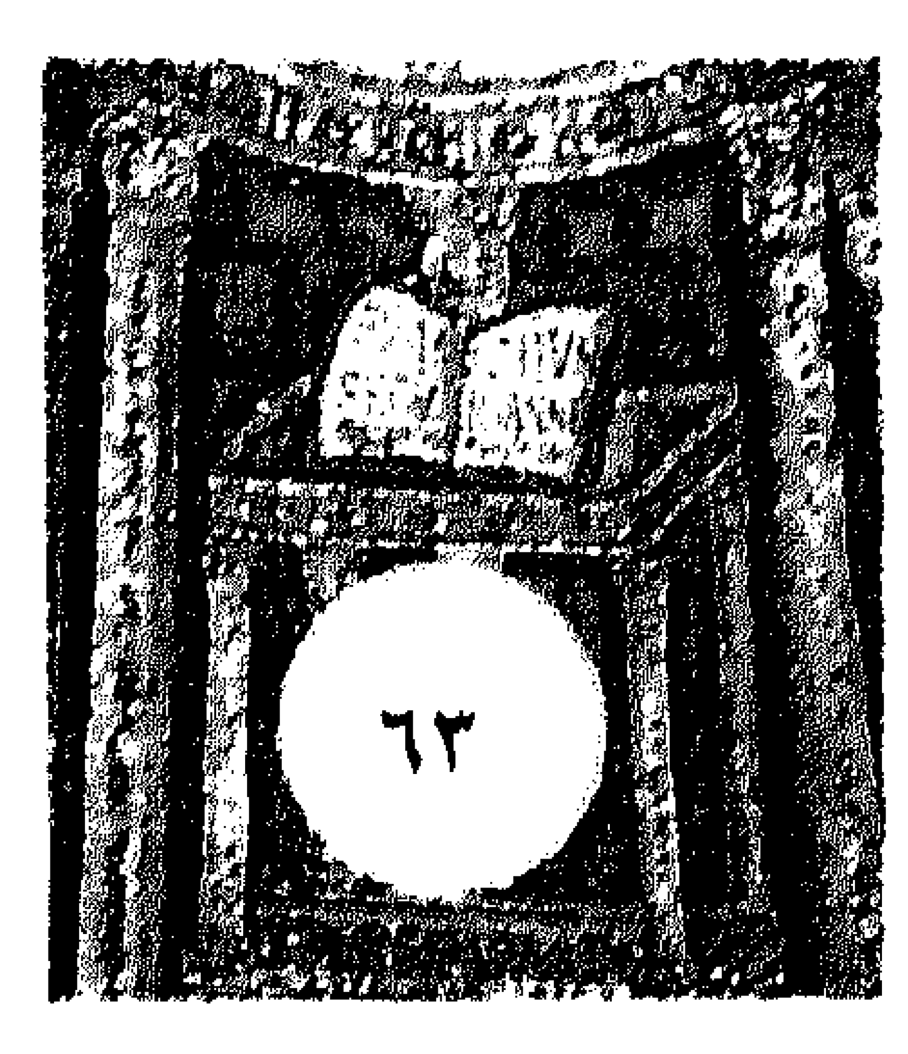
جانب من مدينة القسطنطينية، ويظهر فيه الأسوار البحرية

ويشير المؤرخ البيزنطى ثيوفانيس إلى أن هذه النار كانت من ابتكار مهندس يدعى كالينيكوس، من مواليد بعلبك بلاد الشام، هاجر إلى أراضى الدولة البيزنطية هربا من المسلمين، وهناك قدم ابتكاره للإمبراطور البيزنطى، الذى اعتبره سرا من أسرار الدولة التى ينبغى الحفاظ عليها وعدم البوح بطبيعتها أو ماهيتها أو عناصرها إلى الأعداء.

رابعا: أخيرا يمكن القول أن حركة التيارات المائية فى الدردنيل، سواء كانت التيارات السطحية للمياه أو التيارات الداخلية المعاكسة، ربما كانت عاملا أعاق حركة السفن الملاحية، لاسيما عند هبوب الرياح عليها، على أية حال، استطاع البيزنطيون وإمبراطورهم قسطنطين الرابع ٦٦٨-٦٨٥م الزود عن مدينتهم، ورد المسلمين بعيدا عن أسوار مدينتهم دون إحرازهم لنصر يذكر يتلاءم مع السنوات السبع التى قضتها الحملة الإسلامية حول القسطنطينية؛ بل طلب المسلمون الصلح مع البيزنطيين بشروط كانت جميعها فى صالح البيزنطيين.

على أية حال، يعتبر موت الإمبراطور قسطنطين الرابع Constantine VI عام ٦٦هـ/ ٦٨٥م علامة فاصلة بين فترتين تاريخيتين متميزتين فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية. حيث تعتبر الفترة الأولى فترة التحدى والاستجابة إذا جاز لنا القول، والتى تبتدئ بعصر الإمبراطور هرقل وتنتهى بعهد قسطنطين الرابع ٤٨-٦٦هـ/ ٦٦٨-٦٨٥م مرورا بقنسطانز الثانى Constans II ٢١-٤٨هـ/ ٦٤١-٦٦٨م.

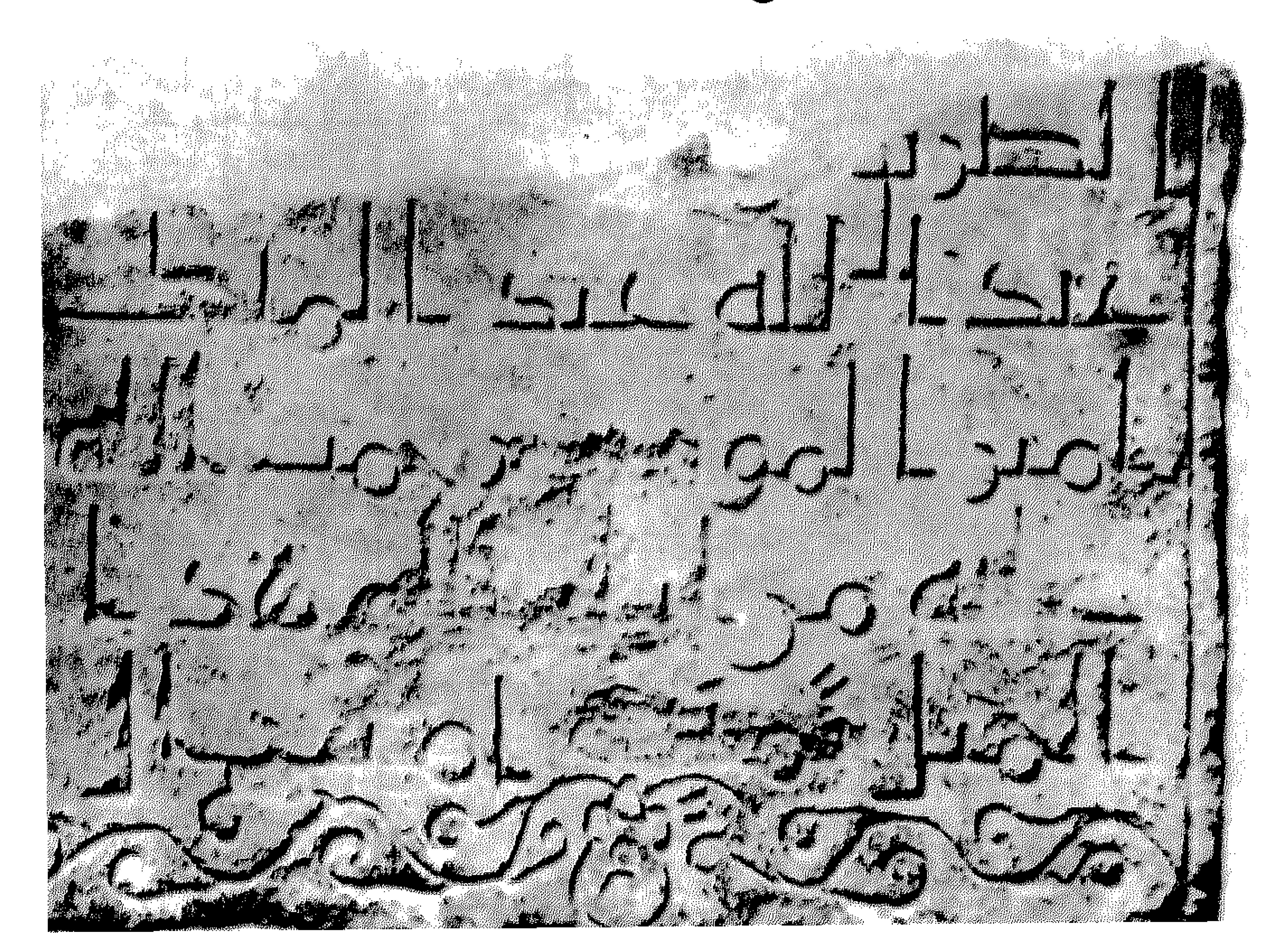
ففى الفترة الأولى منيت الإمبراطورية بضربات شديدة لا سيما على الصعيد الخارجى من جانب المسلمين، بالإضافة إلى التغلغل السلافى فى البلقان المضطرب. وقد نتج عن هذه الفترة العصيبة فقدان الإمبراطورية لبلاد الشام ومصر وفلسطين وشمال إفريقيا، واستيلاء المسلمين عليها. وقد امتد التهديد الخارجى إلى قيام المسلمين بتهديد القسطنطينية ذاتها مرتين متتاليتين، كما سبق



وذكرنا. وقد امتدت الأخطار المحيقة بالدولة البيزنطية إلى الكيان الاجتماعى الذى كانت تعيشه الأقاليم البيزنطية. وكانت السياسة الدينية للإمبراطورية عاملا من العوامل التى زادت التمزق الاجتماعى، إذ أعلن الإمبراطور هرقل مبدأه الدينى المعروف باسم المونوثليتية، أى أن للمسيح عليه السلام مشيئة واحدة فقط، وسعى إلى تطبيقه على سائر أنحاء الإمبراطورية البيزنطية، رغم عدم رضى سكانها.

هذا عن الفترة الأولى، أما الفترة الثانية فتبدأ باعتلاء الإمبراطور جستنيان الثانى Justinian II عرش الإمبراطورية البيزنطية عام ٦٦-٧٦هـ/ ٦٨٥-٦٩٥م، ثم عزله وتوليه العرش ثانية عام ٨٦-٩٣هـ/ ٧٠٥-٧١١م؛ وهذه الفترة الثانية قضاها فى الانتقام ممن عزلوه عن العرش الإمبراطورى وتولوا الحكم بدلا منه، ولم يكن لها من الإنجازات سواء كانت الداخلية أو الخارجية ما يجعلها تسير على نفس نهج أجداده من الأسرة الهرقلية.

وإذا كانت الإمبراطورية البيزنطية قد تمتعت بمركز قوى فى الشرق فإنما يرجع ذلك إلى جهود قسطنطين الرابع، فى وقت بدت فيه الخلافة الأموية وقد أعاقتها المشكلات الداخلية التى ظهرت على مسرح الأحداث بعد وفاة معاوية وانتقال الخلافة من الفرع السفيانى إلى الفرع المروانى ثم قيام فتنة ابن الزبير. وقد حاول عبد الملك ابن مروان، الذى تولى الخلافة عام ٦٥هـ/ ٦٨٥م، أن يجدد معاهدة السلام التى سبق لمعاوية أن عقدها مع قسطنطين الرابع. وابتدأ جستنيان الثانى عهده بتجديد المعاهدة، وبدا للوهلة الأولى أن الاتفاقية الجديدة جاءت بفوائد مباشرة أكثر من سابقتها، وتم التوصل إلى تسوية بالنسبة للولايات المتنازع عليها وهى قبرص وأرمينيا وأيبريا، على



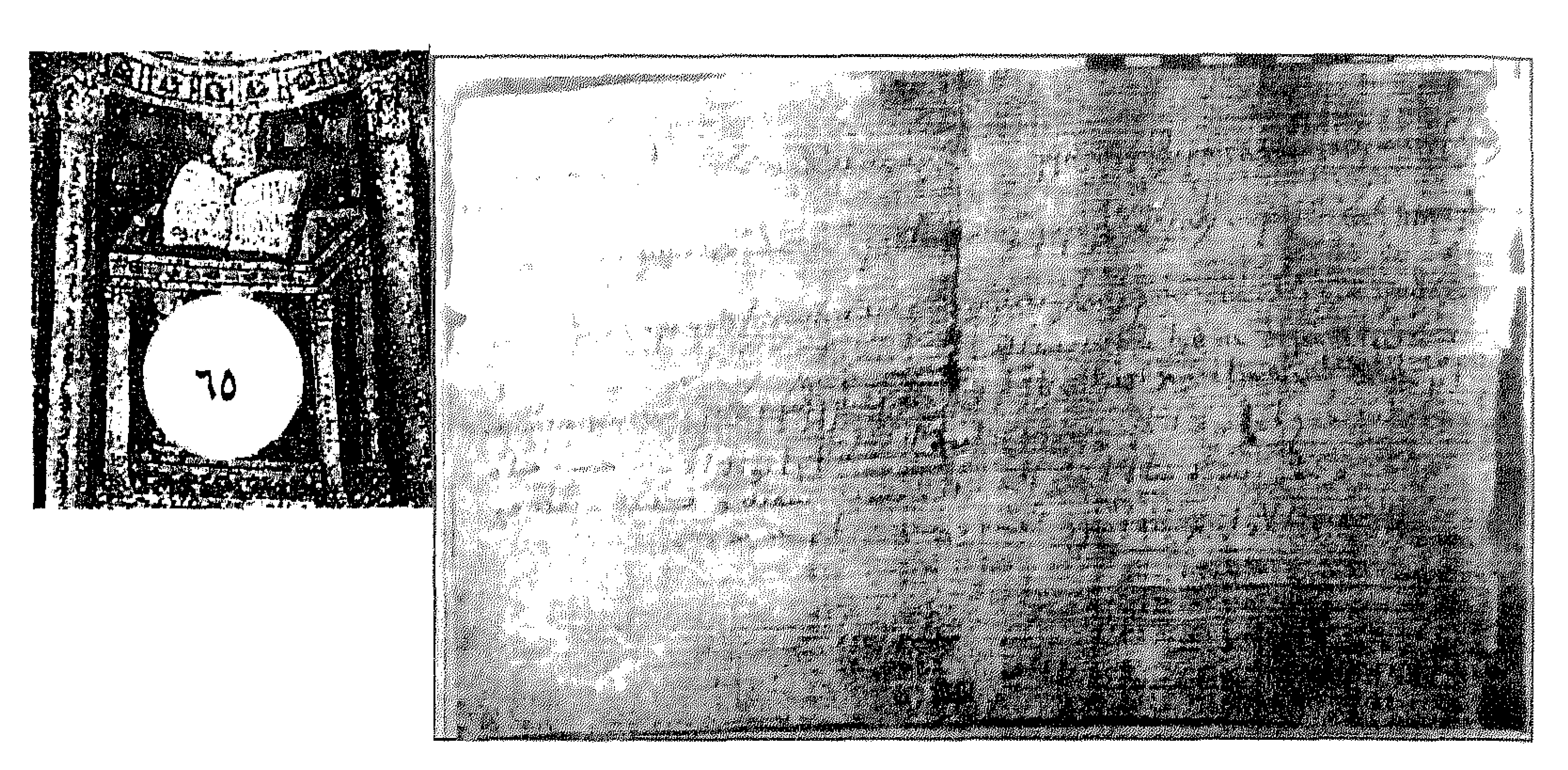
أحد أميال عبد الملك بن مروان



أساس أن يقسم دخل هذه الأقاليم بين الطرفين مناصفة؛ إلا أن الإمبراطور جستنيان وافق فى مقابل هذا على نقل جماعات المردة (الجراجمة) من شمال بلاد الشام وبالتحديد من جبل اللكام بلبنان إلى داخل أراضى الإمبراطورية البيزنطية. ويشير المؤرخون إلى سوء تدبير جستنيان الثانى، عندما نقل هؤلاء المردة، الذى كانوا يشكلون سورا نحاسيا على حد قول البلاذرى يصد غارات المسلمين عن بيزنطة.

وسرعان ما أدرك الإمبراطور جستنيان الثانى خطأ تشتيته المردة، واحتياج الدولة لهم حين تجددت إغارات الجيش البيزنطى بآسيا الصغرى على أراضى الحدود الإسلامية. إذ أدرك ضرورة سد الثغرة التى أحدثها نقل المردة، وعول على وضع عناصر جديدة ذات بأس وشدة فى الأماكن المعرضة للخطر، لحمايتها على نحو ما فعل الجراجمة من قبل واتجهت أنظار جستنيان الثانى نحو العناصر السلافية القاطنة فى البلقان. وكانت الدولة البيزنطية تدفع لهم ضريبة سنوية مقابل احتفاظهم بالهدوء والسكينة فى الأراضى البيزنطية التى استقروا بها. ورأى جستنيان الفرصة مواتية للتخلص من التزاماته المالية والهجوم على هذه العناصر وأخذ عددا كبيرا منها أسرى لإحلالهم محل المردة ونجح فى مهاجمة العناصر السلافية المقيمة بالقرب من سالونيكا وأسر عددا كبيرا حملهم معه إلى آسيا الصغرى، مكونا منهم فرقة كبرى بلغت ٣٠,٠٠٠ جندى، وجعل مقرها الرئيسى فى المنطقة المطلة على الدردنيل، والتى عرفت إذ ذاك بثيم الأوبسيق. وكانت هذه المنطقة محط رحال القوات الإسلامية حيث عملت على إقامة نقط ارتكاز لها هناك قبل عبورها المياه لحصار القسطنطينية. وأراد جستنيان بعد ذلك شد أزر جماعات السلاف بنقل عدد كبير من أهالى جزيرة قبرص إلى ثيم الأوبسيق أيضا. وكانت خطوته تحمل فى طياتها الكثير من العسف والعنت، إذ واجهت السفن التى تقل أهالى قبرص عاصفة عاتية أغرقت الكثيرين منهم، ولم ينج إلا القليل عاد أدراجه إلى جزيرة قبرص.

وسرعان ما دب الخلاف بين عبد الملك بن مروان وجستنيان الثانى حول مسألة القراطيس، أو الورق الذى كانت تستورده الإمبراطورية البيزنطية من الدولة الإسلامية، وتدفع مقابل ذلك دنانير بيزنطية، وهى العملة المستخدمة فى التعاملات التجارية بين المسلمين. وكانت مصر هى التى تصدر القراطيس للدولة البيزنطية منذ تبعيتها لها قبل الفتح الإسلامى. وقد جرت عادة أقباط مصر على كتابة اسم المسيح وعبارة التثليث فى رؤوس الطوامير أو قطع الورق الكبيرة. ولكن عبد الملك بن مروان رأى أن هذه الصيغة لا تتفق ومظهر الدولة الإسلامية الجديدة، فأمر أن يستبدل بهذه الصيغة عبارة "قل هو اللّه أحد".

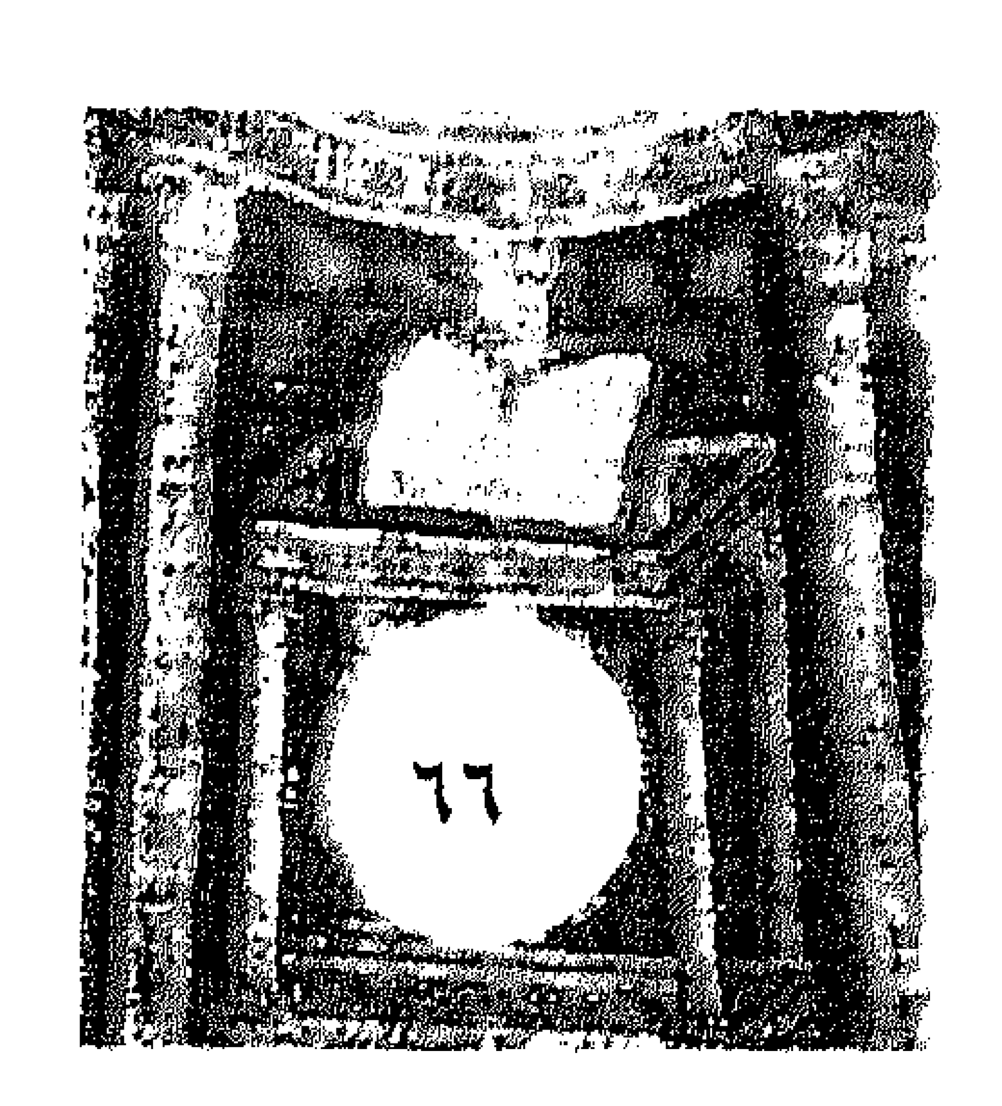


اشتهرت مصر بصناعة الورق- ووثيقة أهناسيا أول وثيقة عربية

ووصلت هذه القراطيس الجديدة إلى الإمبراطورية البيزنطية وأحدثت ضجة كبرى فى البلاط البيزنطى، إذ غضب الإمبراطور جستنيان الثانى واستكبر قيام الدولة الإسلامية بهذا العمل الجديد. فكتب إلى الخليفة عبد الملك "إنكم أحدثتم فى قراطيسكم كتابا على نكرهه، فإن تركتموه، وإلا أتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه" وقد أغضب هذا الخطاب الخليفة عبد الملك كثيرا، وخشى اضطراب أحوال العملة بسبب تهديد الإمبراطور البيزنطى، وما قد تحدثه من أثر سيئ فى نفوس عامة المسلمين، إذ إن الدنانير البيزنطية كانت العملة الرسمية للتجارة فى الأسواق الإسلامية.

وأشار خالد بن يزيد على الخليفة عبد الملك بالتمسك بالقراطيس الجديدة دون أن يخشى تهديد البيزنطيين، فقال له: "يا أمير المؤمنين حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها، وأضرب للناس سككا، ولا تعف هؤلاء الكفرة مما كرهوا فى الطوامير". وجاء هذا الحل مقنعا للخليفة، ورأى أنه يصلح خطوة أساسية لصبغ الدولة الإسلامية بصبغة عربية خالصة، وخلق وحدة اقتصادية عن طريق عملة خاصة بها.

وأقبل عبد الملك على سك دنانير إسلامية جديدة عليها آيات من القرآن، عرفت باسم الدنانير الدمشقية. وهكذا خلص عبد الملك الدولة الإسلامية من التبعية الاقتصادية ومن العملات الأجنبية التى كانت متداولة فيها منذ زمن بعيد، إذ كانت دنانير بيزنطة ترد إلى بلاد العرب منذ الجاهلية، وتعتبر العملة الأساسية فى المعاملات التجارية الكبرى، على حين يستخدم الدرهم الفارسى فى المعاملات المحلية. وظل أمر العملة الأجنبية معلقا فى الشئون التجارية الإسلامية حتى نشب الخلاف بين عبد الملك وجستنيان الثانى، حيث ضرب عملته الجديدة (سنة ٧٤-٧٥هـ/ ٦٩٣-٦٩٤م) ليتخلص من تهديد البيزنطيين.







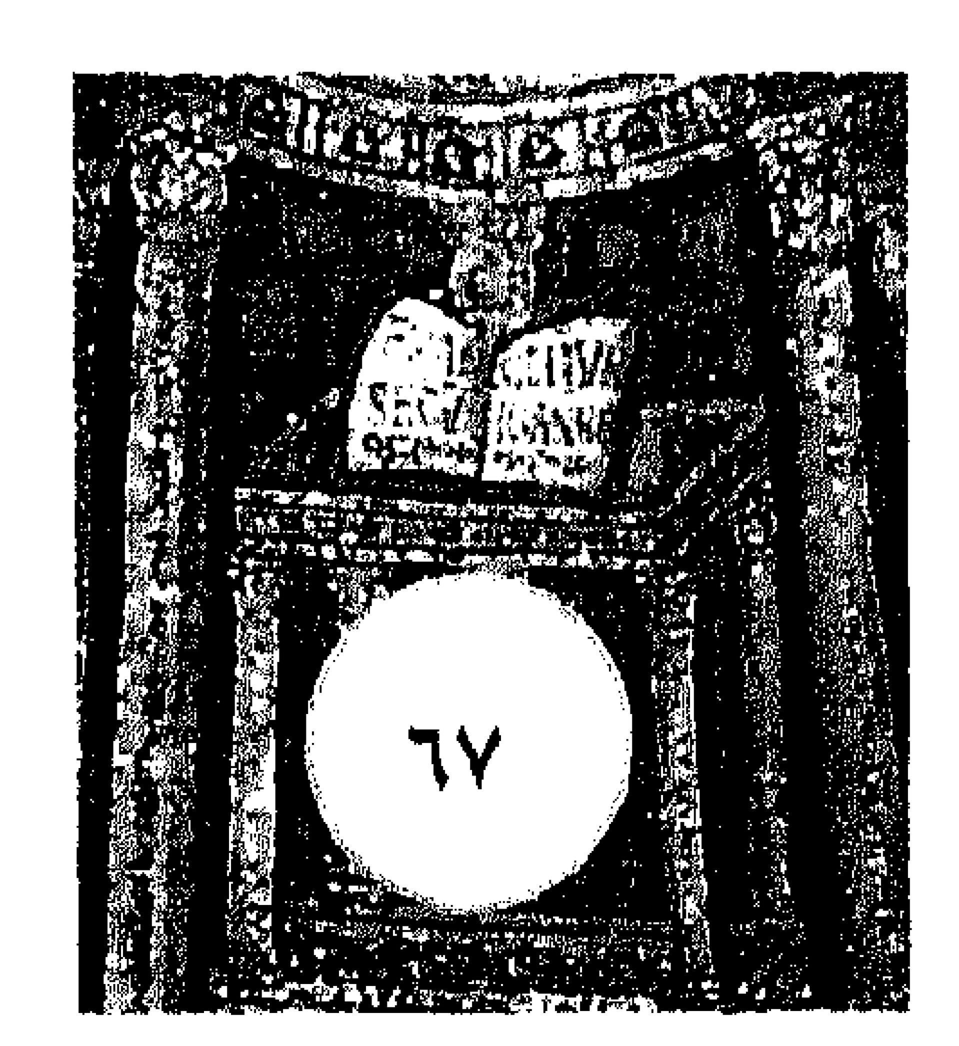
دينار بيزنطى نقش عليه: الإمبراطور جستنيان الثانى

وفى عام ٧٣هـ/ ٦٩٢م أعلن جستنيان الثانى الحرب على المسلمين، بسبب وصول الجزية السنوية، التى كان يرسلها عبد الملك بن مروان إليه نقدا نظير إبعاد المردة، فى هيئة مختلفة عما كانت تسك عليه. حيث ضرب الخليفة الأموى آنذاك دينارا إسلاميا بدلا من الدينار البيزنطى، ونقش عليه عبارة" لا إله إلا الله"بدلا من صور الأباطرة البيزنطيين التى كانت تسك على أحد وجهى العملة مع بعض الرموز الدينية المسيحية. وأيا كانت الأسباب، سواء الدينية أو الاقتصادية، التى دفعت جستنيان الثانى إلى الغضب وإعلان الحرب على المسلمين، فالثابت أن هذه الخطوة الجريئة التى اتخذها الأمويون كانت البداية الحقيقية للتخلص من سيطرة الدينار البيزنطى على التعاملات التجارية آنذاك، وإحلال عملة إسلامية جديدة منافسة له. وقد صادف آنذاك تخلص الخليفة عبد الملك بن مروان من مشاكله الداخلية فعمل على تلقين الإمبراطور درسا قاسيا فى الحرب والقتال.

ودارت رحى القتال بين الطرفين عند مدينة سباستوبوليس، وانتهت بانتصار المسلمين، وفرار جستنيان الثانى مع بقايا قواته نحو نيقوميديا. وتجدر الإشارة إلى أن ما يقرب من عشرين ألفا من السلاف العاملين فى جيش الإمبراطور البيزنطى تخلوا عنه وقت القتال وانضموا إلى جانب المسلمين، مما فت فى عضد الإمبراطور وجعله أسير الانتقام من بقايا السلاف العاملين فى جيشه. وإذا كان بعض المؤرخين يفسرون سبب انضمام السلاف إلى القوات الإسلامية بالعطاء الذى قدمه



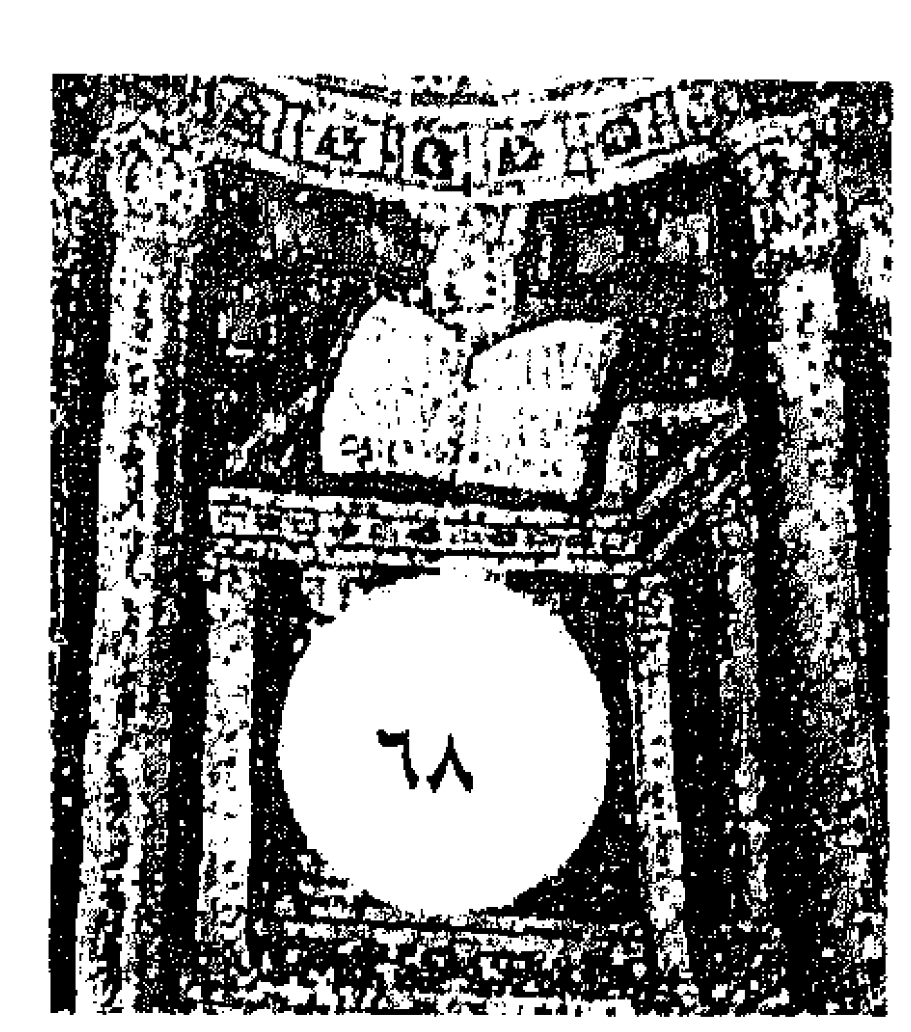
أول دينار أموى نقش عليه (١) لا إله إلا الله لا شريك له (٢) الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد- أمير المؤمنين



المسلمون إلى زعماء أولئك السلاف، إلا أن السبب الرئيسى الذى حدا بالسلاف إلى عمل ذلك هو سوء معاملة جستنيان الثانى لهم وتهجيرهم من شبه جزيرة البلقان بالقوة عندما غزا بلادهم فى فترة سابقة على حربه مع المسلمين، كما سبق القول، بل قام بتجنيد فرقة مختارة منهم فى الجيش وقام بتوزيع بقيتهم على الأقاليم البيزنطية ليشتت شملهم، ويضمن عدم تمردهم أو هجماتهم على القسطنطينية. وقد استفاد المسلمون كثيرا من ولاء السلاف لهم، إذ كانوا على علم بدروب آسيا الصغرى والمسالك التى تصل بين مدنها المختلفة. فقاموا بوظيفة الأدلاء للجيوش الإسلامية، يهدونها إلى أسهل الطرق وأيسرها للاستيلاء على المعاقل الهامة بهذه البلاد؛ ولذا تابعت الجيوش الأموية انتصاراتها وإغاراتها على مدن آسيا الصغرى دون أن تلقى جهدا كبيرا.

يبدو أن هذا التوتر فى العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين، الذى مس عصب اقتصاد الدولتين، دفع المسلمين إلى استكمال مسيرة الجهاد ضد البيزنطيين فكان الوليد بن عبد الملك خير خلف لأبيه، إذ تابع الفتوحات التى بدأها أبوه فى آسيا الصغرى، وجعل هدف حركاته الحربية الاستيلاء على المعاقل الهامة الواقعة فى الطريق الرئيسى المؤدى إلى القسطنطينية. واستهل الوليد تنفيذ خطته الجديدة بحصار مدينة طوانة مفتاح الطريق الهام بين الشام والبسفور والذى تسلكه الجيوش الإسلامية فى طريقها لمهاجمة القسطنطينية. وحاصر المسلمون هذه المدينة عامين متتاليين،

المسجد الأموى بدمشق الذى أنشاءه الخليفة الوليد بن عبد الملك



لشدة تحصيناتها ولاستماتة البيزنطيين فى الدفاع عنها. وأرسل الإمبراطور جستنيان الثانى قائدين من قادة الدولة البيزنطية على رأس قوات من الجند النظامى، ومعهم عدد من الجند غير النظامى لإنقاذ المدينة وتخفيف حدة الهجوم على حامياتها، ولكن المسلمين قضوا على هذه الإمدادات، وتابعوا حصارهم للمدينة. ولم تجد الحاميات البيزنطية مفرا من التسليم بعد أن أنهك الجوع جندها وضج سكان المدينة من العناء. ودخلت القوات الإسلامية مدينة الطوانة سنة ٨٩هـ/ ٧٠٧م وأصبحوا يتحكمون فى أهم معامل إقليم قباوقيا بآسيا الصغرى.

وتابع المسلمون إغاراتهم على مدن آسيا الصغرى، وامتازت سنوات ٧١٠ م/ ٩٢هـ، ٧١١م/ ٩٣هـ بما لازم الجيوش الإسلامية من توفيق فى نشر الذعر والاضطراب بين صفوف الجنود البيزنطيين. وفى سنة ٩٤هـ/ ٧١٢م وصلت الجيوش الإسلامية إلى البسفور واستولت على بعض المعاقل المهمة بالقرب منه. وكانت هذه العمليات الحربية الإسلامية حملات استطلاعية ومقدمة للزحف المباشر على العاصمة البيزنطية، وقدساهم الأسطول الإسلامى فى تلك التحركات الحربية أيضا. ومن ثم عمل البيزنطيون على حمل المسلمين وديا على إيقاف زحفهم صوب القسطنطينية. إذ أسر الأسطول البيزنطى فى سنة ٩٠هـ/٧٠٨م خالد بن كيسان أمير البحر على السفن الإسلامية، فبادر الإمبراطور البيزنطى إلى إعادته للخليفة الوليد دليلا على رغبته فى استئناف العلاقات الودية مع المسلمين.

وانتقل الخليفة الوليد بعد نجاح جيوشه فى السيطرة على معاقل آسيا الصغرى الهامة إلى إعداد حملة لمهاجمة القسطنطينية نفسها. وكان الإمبراطور البيزنطى إذ ذاك هو أنستاسيوس الثانى الذى أدرك الفوضى التى سادت أقاليم آسيا الصغرى الحربية. فبدأ الإمبراطور يقوى جبهة آسيا الصغرى لمواجهة الحملات الإسلامية المتكررة. وعين على ثيم الأناضول أى الإقليم الحربى العسكرى الشرقى بآسيا الصغرى، قائدا واعدا سيصبح له دور هام فى الأحداث التالية.

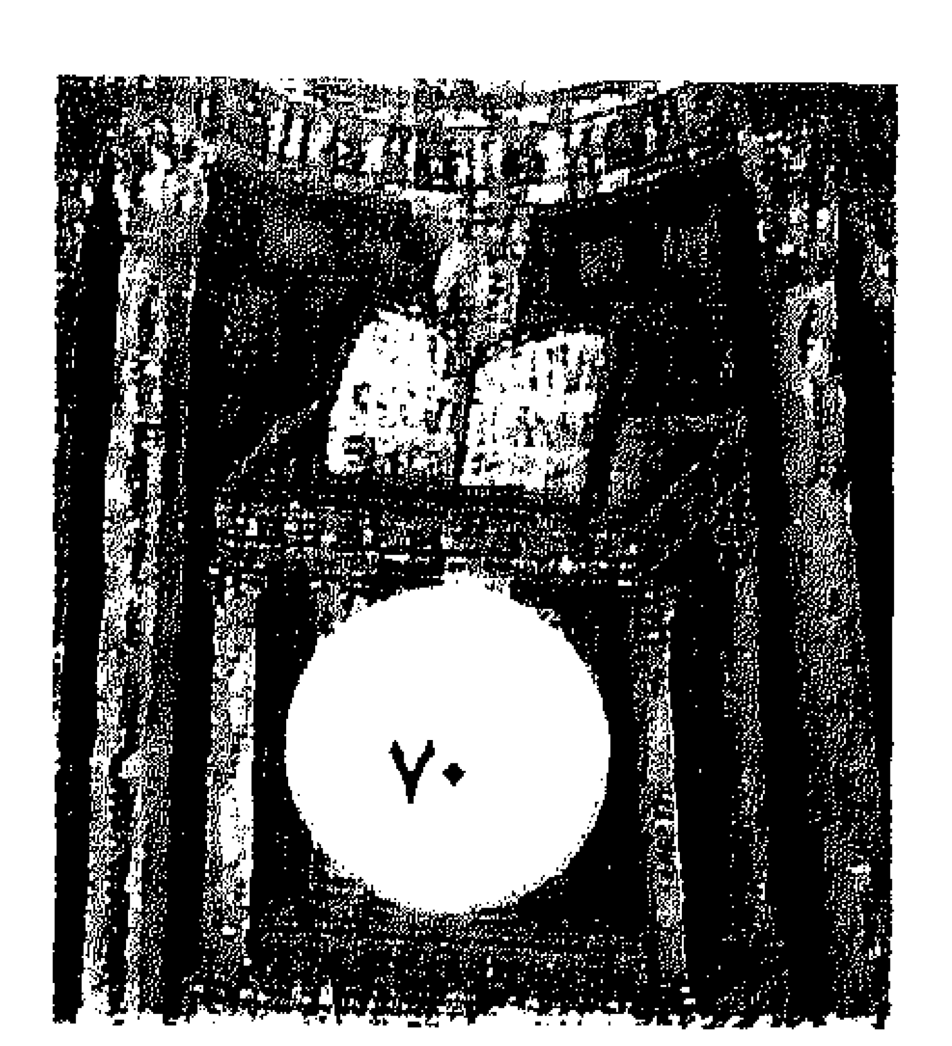
كان هذا القائد البيزنطى الجديد يدعى ليو، وهو من مواطنى إقليم إيسوريا، ولكنه قضى فترة طفولته فى مدينة مرعش(جرمانيكا) على الحدود الإسلامية البيزنطية. عمل فى خدمة الإمبراطور جستنيان الثانى الذى أوفده إلى القبائل الضاربة على حدود الإمبراطورية فى الشمال لبذر بذور التفرقة والشقاق بينها. وعاد مكللا بالنجاح من مهمته على عهد الإمبراطور انستاسيوس الثانى الذى كان يبحث عن رجال جدد يعهد إليهم بإدارة الأقاليم العسكرية فى آسيا الصغرى، لا سيما بعد أن تحولت حملات المسلمين عليها إلى نشاط منظم هدفه الاستيلاء على القسطنطينية. فاختار الإمبراطور أنستاسيوس الثانى ليو ليدير إقليم الأناضول بآسيا الصغرى، ومهد بذلك لهذا القائد طريق الاحتكاك بالمسلمين خلال أحداث حصارهم الثالث لمدينة القسطنطينية.

وفى الوقت الذى كان الإمبـراطور البيزنطى يرفع فيه شخـصية ليـو إلى مسـرح الأحداث، كـان الخليفـة الوليد بن عـبد الملك يعـد شـخصـيـة أخرى اضطـلعت ببطولة الحـصار الأمـوى الثـالث لمدينة القـسطنطينيـة. إذ عهـد إلى أخيـه مسلـمة ابن عـبد الملك إدارة دفة الحملات الإسـلامية التى استولت على مـعظم المعاقل البيزنطيـة بآسيا الصغرى، والمؤدية إلى القسطنطينية.

أقبل مسلمـة بن عبد الملك على مساعـدة أخيه الخليفة الوليـد فى تجهيز الحملة الإسـلامية المتجهة إلى حصار القسطنطينية. وكانت الاسـتعدادات الإسلامية واسعة النطاق بحيث ترامت أنباء هذه الحملة إلى السلطات البيـزنطية فى العاصمة سنة ٧١٤م فـأوفد الإمبراطور انستاسيـوس الثانى سفارة إلى دمشق لتـتباحث مع السلطات الإسلامية فى شأن عـقد هدنة بين الدولتين، ولكنه زود السفارة البيزنطية بتـعليمات سرية تقضى بالتجسس على مدى استعـداد المسلمين الحربى، والتحقق من صدق عزمهم على مهاجمة القسطنطينيـة. وكان رئيس هذه السفارة رجلا حصيفا يدعى دانيال حاكم مدينة سينوب الواقـعة على الشاطئ الجنوبى للبحر الأسود، ومن الشخـصيات الكبرى التى تعتمد الدولة البيزنطية على صدق تقاريره.

ولما وصلت السفارة البـيزنطية إلى دمشق رصـدت نشاط الخليفة الأموى فى إعـداد الجيوش لتوجيهها ضد القسطنطينية. فعادت السفارة تحمل إلى الإمبراطور البيزنطى صدق ما بلغه من أنباء، وتنصح بضرورة اتخـاذ الاحتياطات للدفاع عن العـاصمة. ونفذ انستـاسيوس تعليمـات السفارة، فأعلن فى القسطنطينية أخبار الحملة الإسلاميـة المنتظرة، وأمر كل فرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات، وأن يخرج من المـدينة كل معوز وغـير قادر على تدبيـر مؤونته. ثم مـلأ صوامع الإمبراطورية بكميـات هائلة من القمح وغيره من الاحتياجات التى يتطلبـها المدافعون عن المدينة. واهتم كذلك بتجديد أسوار المدينة ولا سيما الجـهات المطلة منها على المياه، حيث كان التداعى قد دب فيـها، ووضع على الأسـوار البرية كل الآلات الحـربية من المـنجنيقـات وغيرها مـن وسائل الدفاع.

وفى تلك الفترة من الاستـعدادات الإسلامية البيزنطية توفى الخليـفة الوليد، ولكن المشروع الإسلامى لحصار القسطنطينية سار قدما دون أى تغـيير، إذ تبناه أخوه سليمان بن عبد الملك الذى خلفه على عرش الدولة الإسلامية، فقد بلغ اهتمام المسلمين فى أرجاء الدولة الإسلامية شأنا كبيرا بالمساهمة فى مجهودات الخليفة سليمان. وتكاتـفت مصر والشام وشمال إفريقيا على تزويد الحملة الإسلاميـة بكل ما تحتاج إليـه من عدة وعتاد. فـأبحر أسطول من مصر إلى شواطـئ الشام لجمع أخشـاب من سواحل لبنان ليـصنع منها سـفنا جديدة فى دور الصناعـة بمصر، لتـعزيز الأسطول الإسلامى المتجه لحصار القسطنطينية.



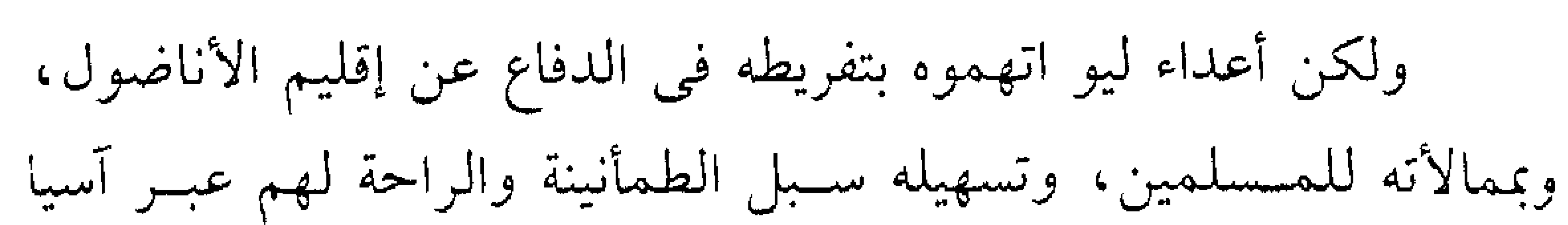
وعلم الإمبراطور انستاسيوس بأخبار نشاط المسلمين وازدياد استعدادهم الحربى على عهد الخليفة سليمان، وآثر أن يعرقل هذه الاستعدادات، لاسيما البحرية منها. فعمد إلى مهاجمة الأسطول المصرى وتخريب الأخشاب قبل وصولها إلى مصر، وعهد إلى جند إقليم الأوبسيق بتنفيذ هذه المهمة، ولكن باءت مجهودات الإمبراطور انستاسيوس الثانى بالفشل لعصيان الفرق الإمبراطورية لأوامره وكراهيتها له، إذ شقت عليه عصا الطاعة حين وصلت جزيرة رودس وهى فى طريقها لمهاجمة سواحل الشام، وقتلت القائد الذى عينه الإمبراطور عليها لإدارة عمليات الهجوم، وعادت إلى القسطنطينية وعزلت الإمبراطور وعينت على العرش إمبراطورا آخر.

رأى الخليفة سليمان بن عبد الملك ملاءمة أحوال الإمبراطورية البيزنطية لحصار القسطنطينية، ولا سيما بعد أن سرى الفساد فى جميع مرافقها وإدارتها. فأعد فى دابق بشمال الشام معسكرا كبيرا ليكون مقرا لإدارة دفة العمليات الحربية ضد القسطنطينية وقضى الخليفة معظم وقته فى هذا المعسكر ليشرف بنفسه على سير العمل فيه، "وأعطى اللّه عهدا أن لا ينصرف حتى يدخل الجيش الذى وجهه إلى الروم القسطنطينية".

وفى سنة ٩٨هـ/ ٧١٦م تحركت الجيوش الإسلامية نحو القسطنطينية تحت قيادة مسلمة بن عبد الملك أخى الخليفة نفسه. وأمر سليمان أخاه "أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه أمره". فبعث مسلمة أحد قادته ويدعى سليمان على رأس جيش يستطلع له الطريق عبر آسيا الصغرى. وتوغل سليمان فى إقليم الأناضول حتى بلغ مدينة عمورية، عاصمة الإقليم، التى كانت منذ أيام معاوية بن أبى سفيان مقصد الجيوش الإسلامية الزاحفة على القسطنطينية. وألقى سليمان الحصار على هذه المدينة، وعلم إذ ذاك أن حاكمها المدعو ليو، يدين بمركزه للإمبراطور السابق انستاسيوس، ويناهض الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث الذى تولى الحكم بالقسطنطينية.

وبدأ القائد سليمان يدبر خططا هدفها كسب ليو إلى صفه وإدخاله فى تبعية المسلمين، والاستفادة من خبرته فى فتح القسطنطينية. فكتب إلى ليو خطابا جاء فيه "نحن نعلم أن مآل الإمبراطورية الرومانية إليك، فاخرج لنا لنتفق على شروط الصلح، "ثم أمر القوات الإسلامية المرابطة أمام أسوار عمورية بأن تهتف "يحيا الإمبراطور ليو" وأجاب ليو على خطاب سليمان متسائلا "لماذا يحاصر المسلمون مدينة عمورية إذا كانوا يريدون عقد صلح معه؟. فرد عليه سليمان مبينا، أن الحصار سيرفع عن المدينة عندما تبدأ المحادثات الرسمية بينهما".

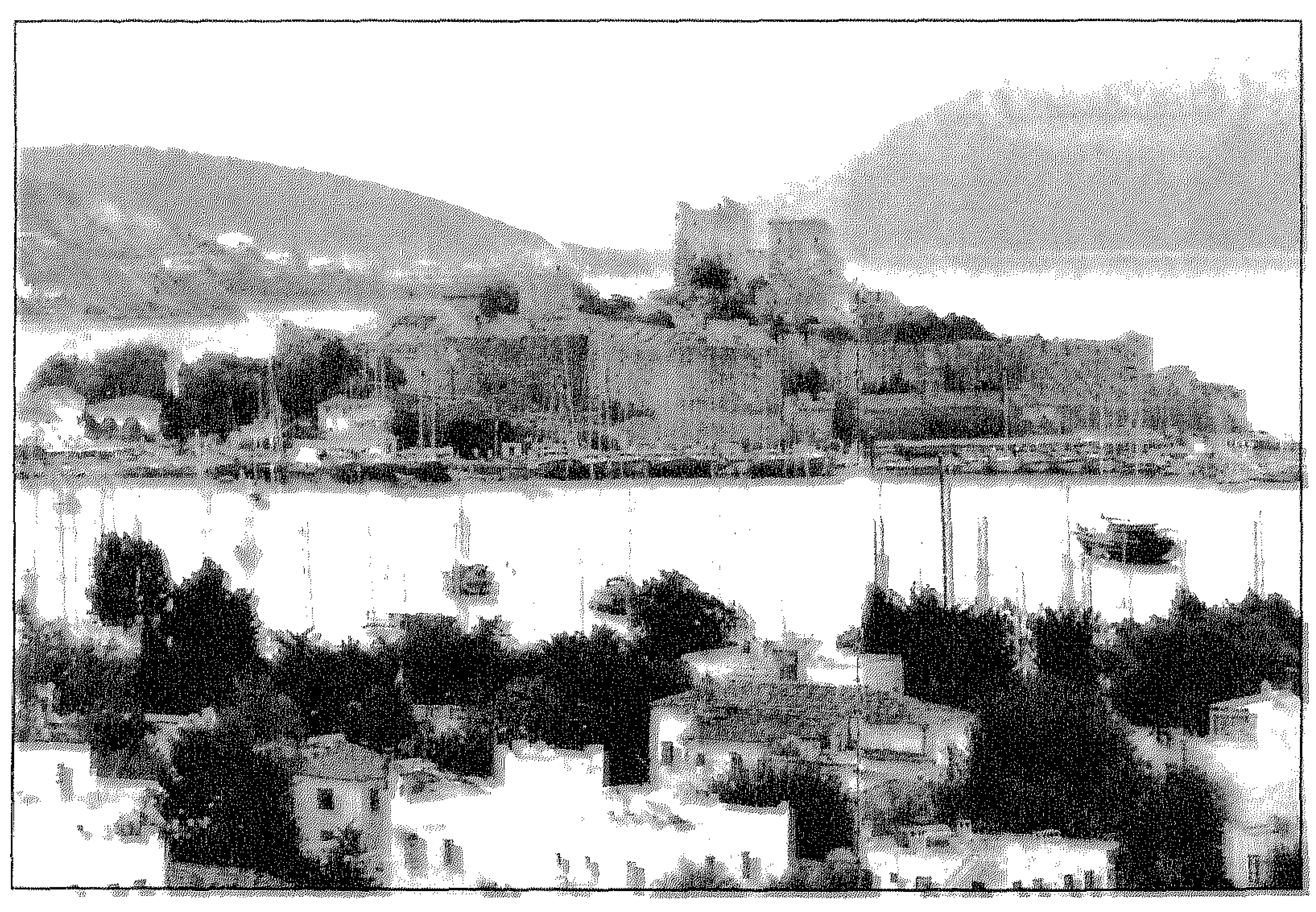
وأدرك ليو أن المسلمين سيواصلون الزحف على القسطنطينية، وأنه لابد أن يسلم لهم. فدخل ليو فى مفاوضات مع المسلمين أعلن لهم فيها انضمامه إليهم، وطلب منهم رفع الحصار



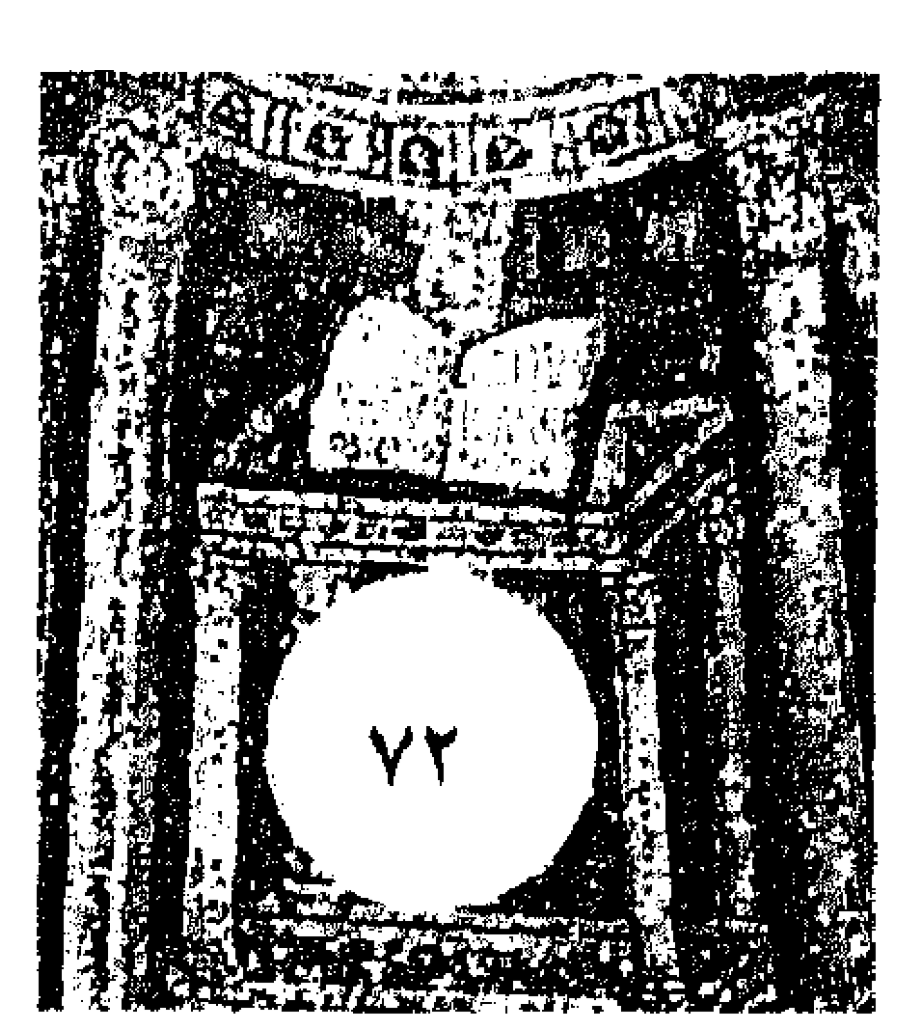
عن عمورية، ثم صاحب الجيوش الإسلامية بعد نجاح مفاوضاته قاصدا القسطنطينية. وكسب ليو من وراء ذلك ولاء أهل عمورية الذين حفظوا له تجنيبهم ويلات الحصار، ونادوا به إمبراطورا على الدولة البيزنطية عند وصوله إلى القسطنطينية.

ولكن أعداء ليو اتهموه بتفريطه فى الدفاع عن إقليم الأناضول، وبممالأته للمسلمين، وتسهيله سبل الطمأنينة والراحة لهم عبر آسيا الصغرى. وكان هذا الاتهام عاملا جعل ليو موضع ثقة المسلمين، وسمحوا له بأن يسبقهم إلى القسطنطينية ليمهد لهم سبل الاستيلاء عليها، بعد أن رفعوا الحصار عن مدينة عمورية، عاصمة إقليم الأناضول. وبدأ ليو حينئذ ينفذ ما عزم عليه من الحصول على السلطان وعرش الإمبراطورية، فأخذ يعمل على إضعاف جبهة الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث المقيم بالقسطنطينية. وكان هذا الإمبراطور يعتمد فى قوته على الجند المقيم فى إقليم الأوبسيق ونصب عليها ابنه قائدا ليحقق لنفسه أسباب الطمأنينة والسلام.

ولذا ناهض ابن الإمبراطور ليوالايسورى واستعد لصد هجومه عند مدبنة نيقوميديا بآسيا الصغرى. ولكن ليو تمكن من هزيمة ابن الإمبراطور، وعبر البسفور إلى القسطنطينية. واستطاع أن يقتحم المدينة من باب الذهب ودخلها ليوطد نفوذه بها. وسرعان ما كشف عن نواياه الحقيقية



قلعة بيزنطية من القرون الوسطى على خليج دورويليوم

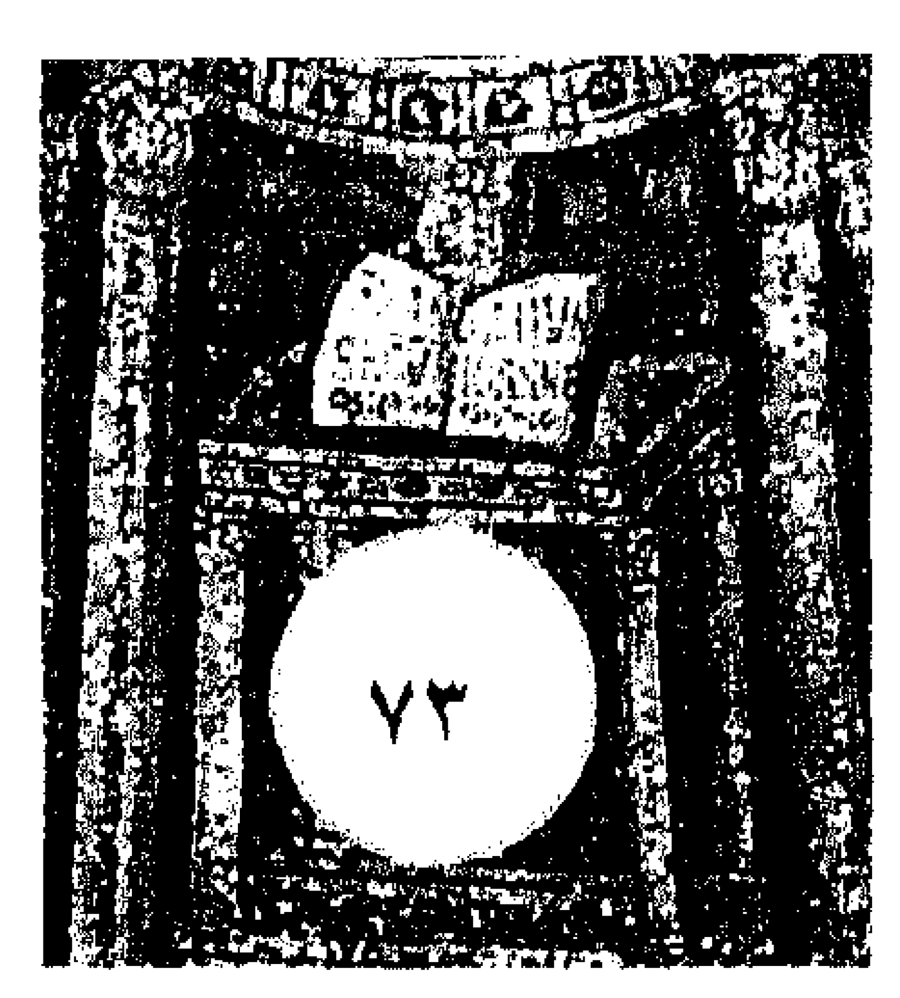


عندما احتل العاصمة، وأخذ يعمل على الوصول إلى العرش الإمبراطورى، واستغل أخبار الحملة الإسلامية وقرب وصولها إلى القسطنطينية ليجذب الأنصار حوله. فأعلن أن المدينة معرضة لحصار طويل، وأن جيش المسلمين قوى العدة والعتاد، وأن الموقف يتطلب شخصية حازمة لمواجهة الأزمة التى توشك أن تحل بالعاصمة. وساعد ليو على نجاح دعوته العناصر الآسيوية المقيمة بالقسطنطينية، إذ انضمت إليه ونادت به إمبراطورا وكذلك قوات الأناضول التى كانت برفقته.

وفى ٢٥ مارس سنة ٧١٧م/ ٩٩هـ عقد اجتماع من كبار رجال العاصمة، قرر عزل ثيودوسيوس عن العرش وتنصيب ليو إمبراطورا تحت اسم ليو الثالث. وبذلك حقق ليو ما كانت تصبو إليه نفسه من آمال، حيث وصل إلى عرش الإمبراطورية، ولكن لم يتمتع بهذا الظفر طويلا، إذ كانت الجيوش الإسلامية تقترب حثيثا من القسطنطينية. وكان ليو يعلم الكثير عن مطامح المسلمين وأغراضهم فى هذه الحملة الكبرى ولا سيما أنه صاحب جيوشها فترة من الزمن، فأسرع فى تحصين العاصمة وتقويتها لمواجهة الحصار الإسلامى الوشيك.

كان أمام ليو فترة خمسة أشهر لإتمام استعداداته الحربية، إذ قضى المسلمون هذه الفترة فى تدعيم خطوط مواصلاتهم وتأمين مؤخرتهم، فاستولى مسلمة بجيشه البالغ ٨٠,٠٠٠ جندى على مدينة برجامه، ثم عبر الدردنيل عند أبيدوس وعسكر أمام أسوار القسطنطينية فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٧م/ ٩٩هـ. وكان مسلمة يدرك أهمية تدبير مؤونة جيوشه، فأمر "كل فارس أن يحمل على عجل فرسه مدين من طعام حتى يأتى به القسطنطينية". واحتفظ بقدر كبير آخر من المؤن لتزويد جنده بها أثناء الحصار.

وبعد ستة عشر يوما من وصول مسلمة إلى أسوار القسطنطينية، دخل مياه البسفور فى أول سبتمبر أسطول إسلامى كبير، مكون من ١٨٠٠ سفينة كبيرة عدا سفن صغيرة أخرى كثيرة. وأخذ مسلمة ينظم قواته لإتمام حلقة الحصار على القسطنطينية. فاضطلعت قوات مسلمة البرية بحصار أسوار المدينة من الناحية البرية، على حين عمد سليمان أمير البحر المسلم على سد المنافذ والمسالك المائية التى يمكن أن تحصل منها العاصمة على الإمداد والمؤن، ثم حصار أسوار المدينة البحرية كذلك. فاحتل الأسطول الإسلامى مدخل البسفور الجنوبى لقطع الاتصال بين المدينة وبحر مرمرة وبحر إيجه أيضا ثم انتهز أمير البحر فرصة هبوب رياح جنوبية وبعث شطرا من أسطوله لاحتلال مدخل البسفور الشمالى لمنع وصول أى مدد يأتى للمدينة من البحر الأسود، ولاسيما أن شواطئه الشمالية كانت غنية بحقول القمح التى تزود القسطنطينية بالغلال.



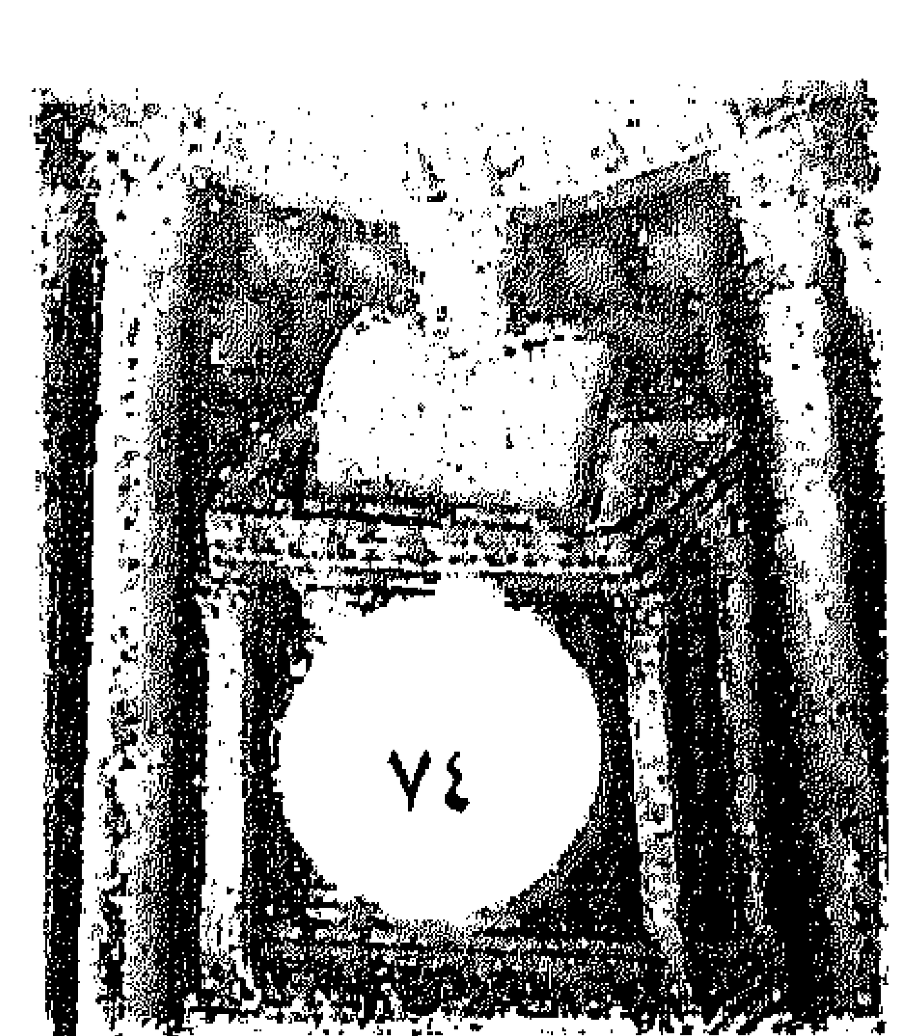
وسارت السفن الإسلامية سيـرا بطيئا بسبب الرياح الناجمة عن التيار المائى الشديد الذى يتدفق من البحر الأسود عبر البسفور إلى بحر مرمرة ثم غيرت الرياح اتجاهها فجـأة فاختل سير السفن لسوء الأحوال الطبيـعية ورداءة الملاحة فى هذه الميـاه الإقليمية للقـسطنطينية. عندئذ انتهز البيـزنطيون هذه الفرصة، وبعثوا بسفنـهم المزودة بالنار الإغريقية ليزيدوا من متاعب السفن الإسلامية.

وحاصـر المسلمون القسطنطينيـة حصارا قاسـيا شديدا برغم بقـاء جهتهـا المطلة على القرن الذهبى مفتوحـة. وظل الحصار مستمرا حـتى جاء الشتاء، وهو قارس جدا، ويعـتبر من العوامل الطبيعية الأخرى التى تعتمد عليها القسطنطينية فى الدفاع عن نفسها وإطالة مدة مقاومتها، غير أن مسلمـة احتاط لهذه العـوامل الطبيعيـة "وعمل بيوتا من خشب، شـتا فيهـا وزرع الناس.. وأقام بالقسطنطينية قاهرا لأهلها، ومعه وجوه أهل الشام".

وبمطلع الربيع وصلت نجدات بحرية وبرية للقائد مسلـمة بن عبد الملك، فجاءه أسطول من مصر بقيادة أمير بحر يدعى سفيان، وآخر من شمال إفريقيا تحت إمرة شخص يدعى يزيد. وتعاون القائدان مع مسلمـة؛ لأن أمير البحر السـابق سليمان توفى من قبل أثناء الشـتاء. وكذلك وصلت نجدات برية بقيادة رجل يدعى مرداس، عبرت آسيا الصغرى عن طريق البوابات القيليقية وعسكرت فى نيقومـيديا ونيقية. وأخـذت القوات الأخيرة تهاجم من شـواطئ آسيا الصغرى الغـربية السفن البيزنطية التى تحاول الخروج، طلبا للصيد أو الذهاب إلى البحر الأسود لجلب الغلال من شواطئه.

وقد استخدم المسلمـون النفط آنذاك، واستعانوا بنوع أشبه بالمدفعية فـى حصار القسطنطينية وأبلى الجند من ضروب الشجاعـة ما شهد لهم بعلو روحهم المعنوية وحبهم للاستـشهاد فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام. وظهـر من الجند الإسلامى رجل يدعى عبد اللّه البطال، وكان كـبير حراس مسلمة بن عبـد الملك، أبلى فى هذا الحصار بلاء حسنا أكسبه لقب زعيم الأبطـال. واستشهد هذا البطل فى معركة أكروينون فيـما بعد (١٢٣هـ/ ٧٤٠م) بعـد انتهاء الحصار الإسلامى، حيث كان دائبا على الجـهاد. وعرف فى القـصص التى تداولت عن شجاعـته باسم السيـد غازى، واعتـبره الأتراك فيـما بعد بطلا من أبطال أمتـهم. وتسرد القصص عن البطال أيضـا أن البيزنطيين رسـموا صورته على بعض كنائسهم لتذكير الناس بما له من بأس وسطوة بين جند المسلمين.

وفى تلك الفترة التى اشتد فيها الحصـار الإسلامى لمدينة القسطنطينية، توفى الخليفة سليمان ابن عبد الملك، وتولى بعده الخليفة عمر بن عبد العزيز. وتردد صدى هذا التغيير فى ميدان الحملة الإسلامـية المحاصرة للعـاصمة البـيزنطية. حيث عـمد عمر ابـن عبد العزيز إلى سـحب القوات الإسلامـية المحاصـرة للقسطنطينيـة، حفاظا على أرواح المسلمـين. فأرسل فى ١٥ أغـسطس عام

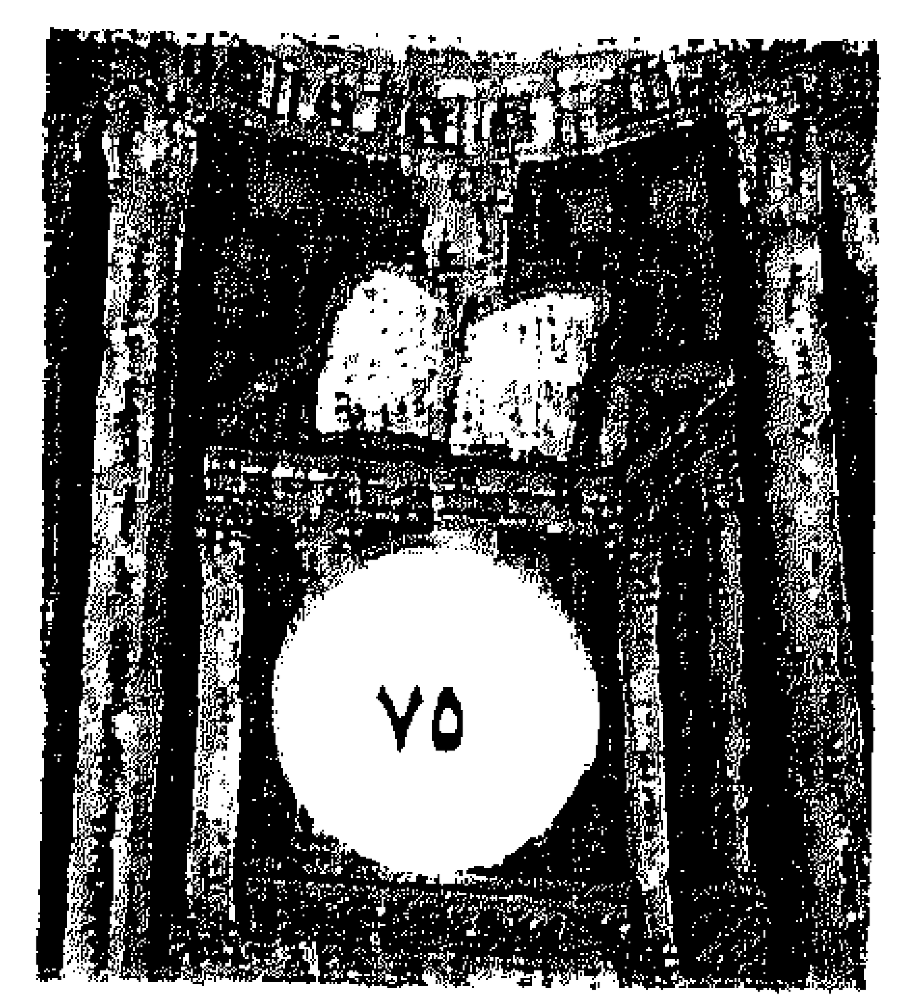


١٠٠هـ/ ٧١٨م، بعد اثنى عشر شهرا من الحصار، يطلب من مسلمة بن عبد الملك العودة بجيوشه وأساطيله إلى بلاد الشام. وانصاع مسلمة إلى أمر الخليفة وعاد بأسطوله وقواته إلى بلاد الشام دون إتمام الهدف الرئيسى من الحملة وهو فتح القسطنطينية.

وإذا كان الأمويون قد تركوا مهمة الاستيلاء على القسطنطينية لغيرهم من المسلمين، فإن جهودهم وحملاتهم على هذه العاصمة لم تضع سدى، إذ تردد صدى هذه الحملات فى إقليم شمال إفريقيا، الذى اتجهت إليه جيوشهم أيضا لطرد البيزنطيين منه، وضمه إلى رقعة الإسلام، فقد صرفت أحداث الحصار الأموى للقسطنطينية أنظار الأباطرة عن التفرغ لدفع المسلمين عن شمال إفريقيا، واعتبروا حماية هذا الإقليم فى المرتبة الثانية بالقياس إلى الدفاع عن عاصمتهم. وهكذا جنى الأمويون ثمار جهودهم ضد القسطنطينية، حيث جعلوا من شمال إفريقيا ركنا هاما من أركان الدولة الإسلامية القوية الأوتاد.

وتجدر الإشارة إلى أن عمر بن عبد العزيز، برغم الأسباب التى ساقها المؤرخون لدوافع عمر بن عبد العزيز لعودة الحملة الإسلامية الثالثة التى خرجت لحصار القسطنطينية لقواعدها ببلاد الشام، قد أعطى الفرصة بقراره هذا للبيزنطيين ليعيدوا تنظيم صفوفهم ثانية، بعد أن شكل المسلمون عليهم ضغطا عسكريا من خلال محاولاتهم المستميتة لفتح القسطنطينية. ويكفى القول أن الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى قد اتجه بدفة الإصلاح إلى شتى أرجاء دولته، وتجلت إصلاحاته فى التطورات الإدارية التى أدخلها على الثيمات، وفى الكتيبات والقوانين العسكرية والاقتصادية التى أصدرها.

لقد كان الإمبراطور ليو الثالث يدرك جيدا، بحكم التجربة، خطورة ترك أقاليم شاسعة فى أيدى حكام وقادة ممن يتمتعون بقوة الشكيمة. فعمل على إنشاء إقليم عسكرى جديد سمى "إقليم التراقيسيان"، اقتطع أراضيه من "إقليم الأناضول" الفسيح، وقد سمى بهذا الاسم نسبة إلى الجنود التراقيين الذين كانوا يرابطون به؛ كذلك أنشأ إقليما ثانيا فى آسيا الصغرى عرف باسم "إقليم البقلار"، اقتطع أراضيه من "إقليم الأوبسيق"؛ وعرف بهذا الاسم نسبة إلى فرق البقلار التى كانت تتلقى خبزا جافا يعرف باسم "البقلا" وترابط فى تلك المناطق، وهكذا تم زيادة عدد الأقاليم العسكرية فى آسيا الصغرى، والحد من سلطات قادة الأقاليم العظام الأناضول، الأرمنياق، الأوبسيق، ولم يكتف ليو الثالث بهذا، بل قام بتقسيم الإقليم البحرى المسمى كاربيزيانى إلى إقليمين بحريين هما إقليم كيبرايوت وإقليم بحر إيجة. على هذا النحو، أعاد ليو الثالث ترتيب دفاعات الإمبراطورية البيزنطية فى مواجهة المسلمين فى الفترة القادمة.

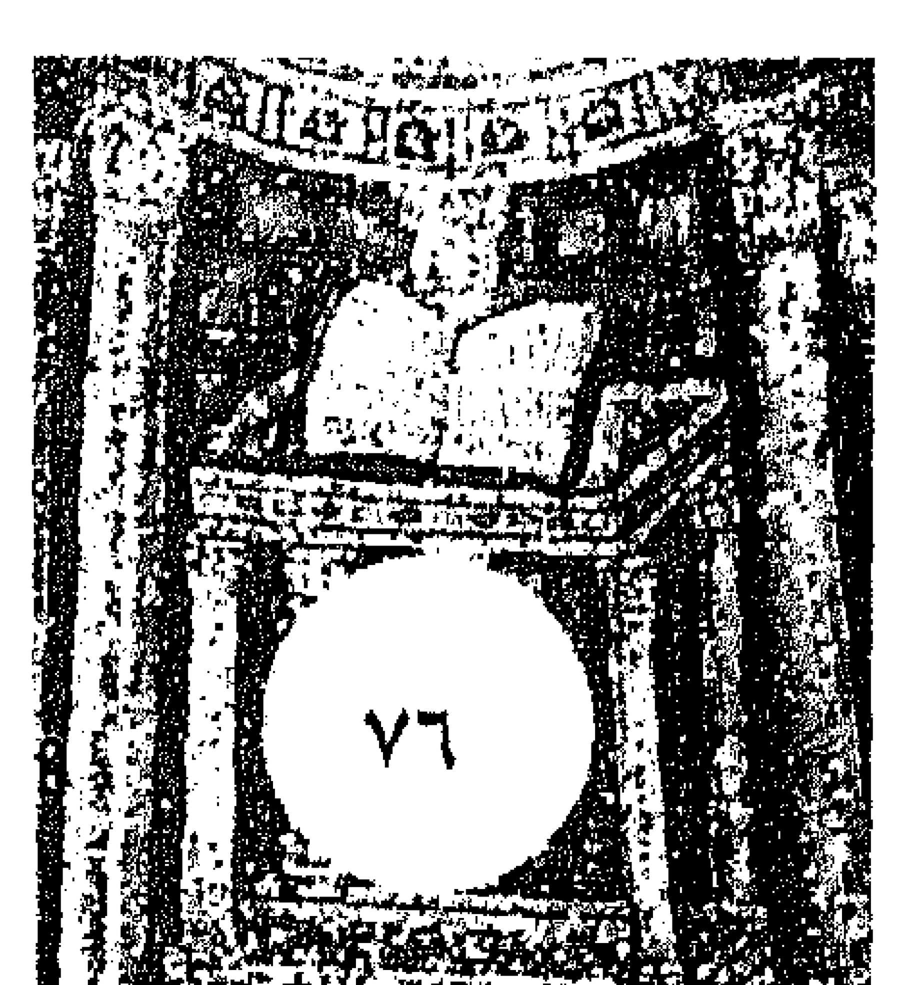


ويمكن تلخيص شخصية ليو الثالث وما أداه للإمبراطورية البيزنطية فى كلمات المؤرخ اوستروجورسكى التالية "لقد أسس الإمبراطور ليو الأيسورى أسرة جديدة، وأنقذ القسطنطينية، وأصلح الكنيسة والدولة، كما كان أول إمبراطور بيزنطى استطاع أن يوقف سيل الفتوح الإسلامية الجارفة، بخطوات مدروسة منظمة تعكس عبقرية عسكرية وكفاءة إدارية. وكان عمله الخاص بتقسيم الثيمات رائعا لأنه أعطى الجهاز الإدارى المرونة اللازمة، وأكمل خللا فى النظام العسكرى، وبعث الروح من جديد فى دفاعات بيزنطة الشرقية مكمن الخطر.

وعلى الرغم من الروح التى بثها ليو الثالث فى جسد الإمبراطورية البيزنطية إلا أن سياسة دولته لم تتحول إلى السياسة الهجومية تجاه المسلمين؛ وفى المقابل لم تتوقف الغزوات التقليدية للمسلمين والمتمثلة فى الصوائف والشواتى على أراضى الدولة البيزنطية.

وابتداء من عهد يزيد بن عبد الملك بدأت العلاقات بين المسلمين والروم تأخذ طابعا جديدا، حيث نشط البيزنطيون فى حروبهم مع المسلمين، بعد أن استقرت أحوال الإمبراطورية

مشهد عام للقسطنطينية



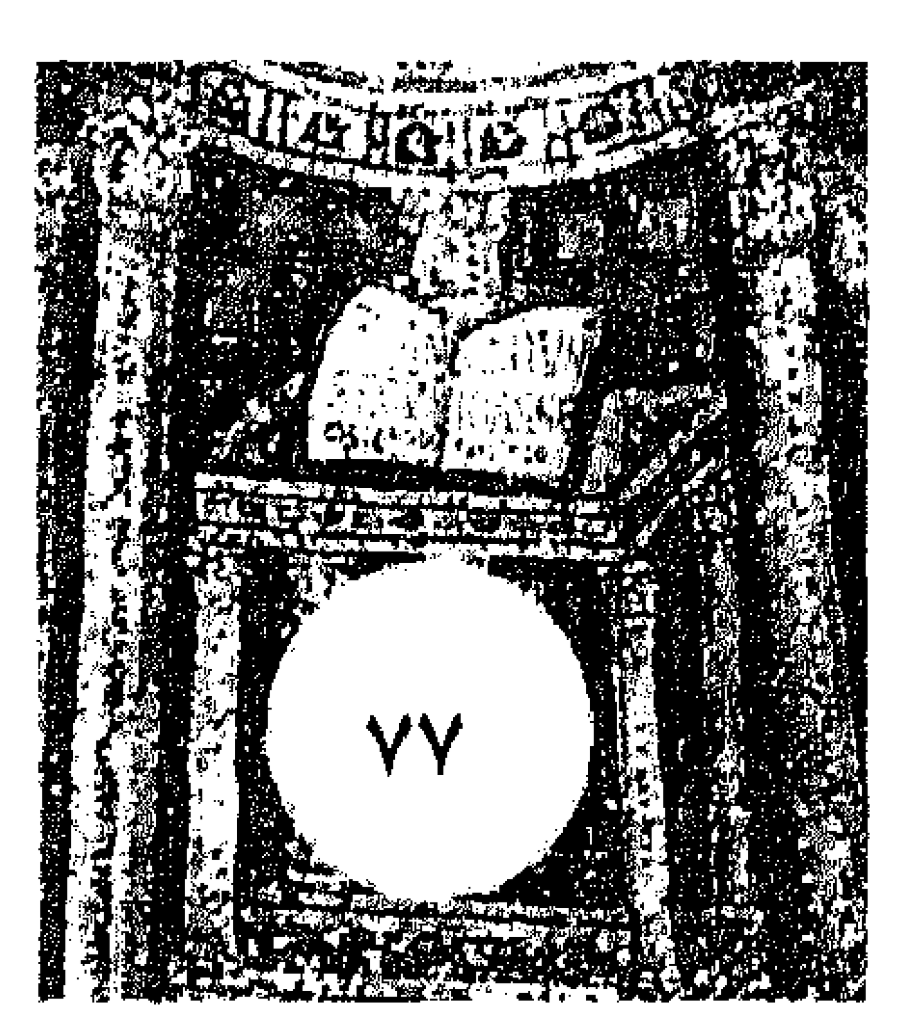
البيزنطية على عهـد ليو الأيسورى. وفى تلك المرحلة من الصراع بين القوتين العـظمتين، المسلمـون والروم، ظهرت قـوى جديدة فى ذلك الصراع هما قوة الخزر والأرمن، حيث لعبا دورا بارزا بين الطرفين.

وتجدر الإشـارة إلى أن الروم أغاروا على مـصر بحـرا فى عام ١٠٢هـ/ ٧٢٠م ونزلوا إلى مدينة تنيس حيث قـتلوا أميرها مزاحم بن مسلمة المرادى فى جمع من أعـوانه. ثم أعادوا الإغارة على مصر فى عام ١٠٧هـ/ ٧٢٥م. ويبدو أن الخليـفة هشام بن عبد الملك قد آثر الرد على هذا الـهجوم بصورة سريعة، حـيث أرسل جيوشا إسـلامية عام ١١١هـ/ ٧٢٩م لتغـزو آسيا الصغـرى. حيث استطاع أخاه مسلمة بن عبد الملك أن يستولى على قيصرية آسيا الصغرى؛ بينما تمكن جيـشا إسلاميا آخر بقيـادة معاوية بن هشـام من الوصول إلى مدينة نيـقية حيث ألقى عـليها الحصـار، إلا أن القوات البيزنطية تمكنت من صد المسلمين عند نيقية وردهم إلى قواعدهم ثانية دون انتصارات تذكر.

وقد استـمـرت حلقة الـصراع الحربى بـين الروم والمسلمين، حـيث هاجم المسلمـون عام ١١٩هـ/٧٣٧ م آسيا الصغرى بحملتين خرجتـا من الثغور الشامية والجزرية، استطاع المسلمون من خلالها الوصول إلى برجامة، غربى آسيا الصغرى. وإزاء المد الإسلامى الحربى فى بلاد الروم، لم يقف الروم مكتوفى الأيدى فشـنوا حملة بحرية على مدينة بيروت عـام ١٢٠هـ/ ٨٣٨م، استولوا فيها على سفن إسلامية وأسروا وسبوا.

وفى عام ١٢٢هـ/ ٧٣٩م شن الروم هجوما بحريا على الشواطئ المصرية حيث نزلوا مدينة دمياط فى عهـد هشام بن عبد الملك بأسطول مكون من ٣٦٠ مركبا، فـقتلوا وسبوا. ومن المرجح أن ذلك الهجـوم أحرز نجاحا جزئيـا، نتيجة للظروف التى كـانت تمر بها مصر آنذاك، عـندما قام الأقباط بثورة كبرى، بالإضافة إلى هجوم أقباط النوبة على حدود مصر الجنوبية.

ويبدو أن المسلمين ردوا على الهجـوم البيزنطى على مصر بشن حملة كبـيرة فى قلب آسيا الصغـرى عام ١٢٢-١٢٣هـ/ ٧٣٩م - ٧٤٠م، والتـقت جيوش الطرفـين فى واحدة من أشـهر المعارك الحربية بينهما والتى عرفت باسم معركة أكروينون؛ استطاع فيها الإمبراطور ليو الثالث وابنه قسطنطين الخـامس أن ينزلا بالمسلمين هزيمة شنعاء، أجـبرتهم على إخلاء الجزء الغـربى من آسيا الصغرى تماما، والتقهقر شرقـا. ويجمع المؤرخون المحدثون على أن النصر الذى أحرزه البيزنطيون فى هذه المعركة كان بفضل الدعم الذى قدمه الخزر للبيزنطيين، وقيامهم بالضغط على المسلمين فى



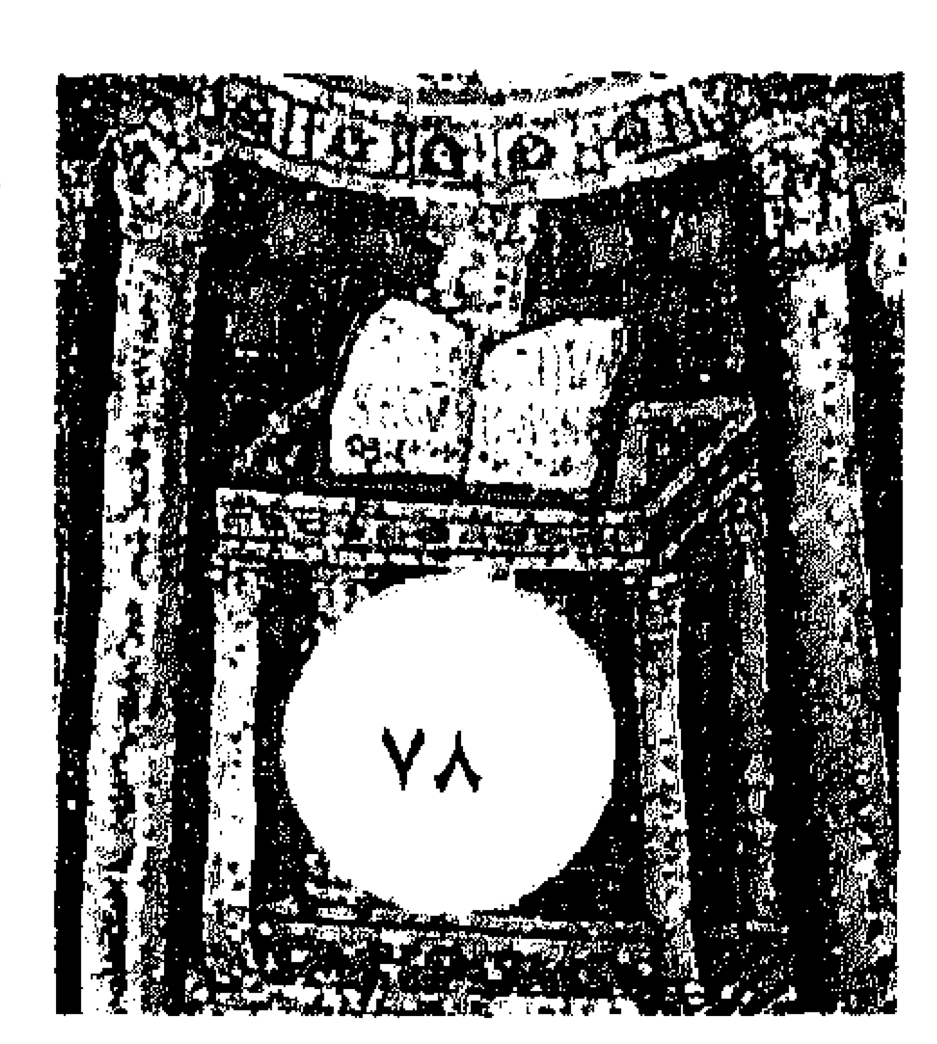
جبهة القوقاز فى نفس الوقت الذى يقاتلون فيه الروم. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المعركة استشهد فيها بطل إسلامى سبق ذكره وهو عبد الله البطال، الذى نال شهرة واسعة فى قتال الروم، وكان مضربا للشجاعة والإقدام، ونموذجا شعبيا يحتذى به فى قتال الروم. وقد زودنا ابن كثير بتفاصيل قيمة عن قتاله للروم واستشهاده حيث يقول:

" . . . وكان سبب شهادته أن ليون ملك الروم خرج من القسطنطينية، فهى مائة ألف فارس، فبعث البطريق، متزوج ابنته، إلى البطال يخبره بذلك، فأخبر البطال أمير عساكر المسلمين بذلك، وكان الأمير مالك بن شبيب، وقال له: المصلحة تقتضى أن نتحصن فى مدينة حران فنكون بها حتى يقدم علينا سليمان بن هشام فى الجيوش الإسلامية، فأبى عليه ذلك، ودهمهم الجيش فاقتتلوا قتالا شديدا والأبطال تحوم بين يدى البطال ولا يتجاسر أحد أن ينوه باسمه خوفا عليه من الروم، فاتفق أن ناداه بعضهم وذكر اسمه دون أن يدرى، فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه حملة واحدة فاقتلعوا من سرجه برماحهم فألقوه إلى الأرض، وراح الناس يقتلون ويأسرون، وقتل الأمير الكبير مالك بن شبيب وانكسر المسلمون. ويستكمل ابن كثير روايته قائلا: "وأصبح إليون فوقف على مكان المعركة فإذا البطال بآخر رمق، فقال له إليون: ما هذا يا أبا يحيى؟ . . .

فقال: هكذا تقتل الأبطال!! فاستدعى إليون الأطباء ليداووه، فإذا جراحه قد وصلت إلى مقاتلة، فقال له إليون: هل من حاجة يا أبا يحيى؟ قال: نعم فأمر من معك من المسلمين أن يلوا غسلى والصلاة على ودفنى ففعل الملك ذلك، وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى وانطلق إليون إلى جيش المسلمين الذين تحصنوا نحاصرهم فبينما هم فى تلك الشدة والحصار، إذ جاءتهم البرد بقدوم سليمان بن هشام فى الجيوش الإسلامية ففر إليون فى جيشه الخبيث هاربا راجعا إلى بلاده قبحه الله، فدخل القسطنطينية وتحصن بها".

كانت هذه هى قصة استشهاد البطال على الرغم مما بها من بعض المبالغة والتشوش التاريخى.

وبعد هذه المعركة المهمة فى تاريخ العلاقات بين الدولتين خفت وطأة هجمات المسلمين على آسيا الصغرى، واتخذت الإمبراطورية البيزنطية زمام المبادرة الحربية؛ حيث بدأت بيزنطة فى المد العسكرى داخل أراضى الدولة الإسلامية على حساب الفتن الداخلية والقلاقل، فى عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس Constantine V ‏١٢٣-١٥٩هـ/ ٧٤٠-٧٧٥م، الذى وصلت

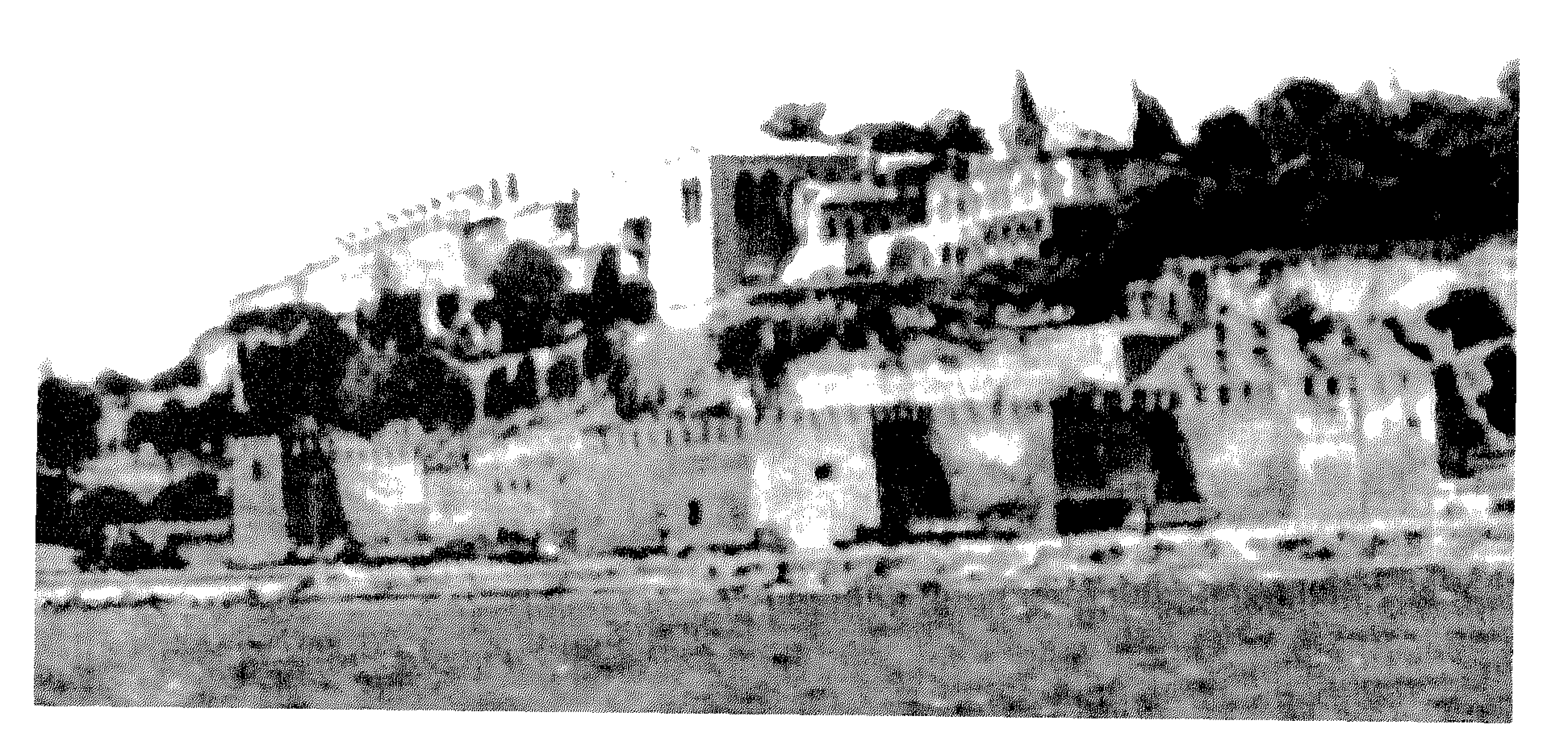


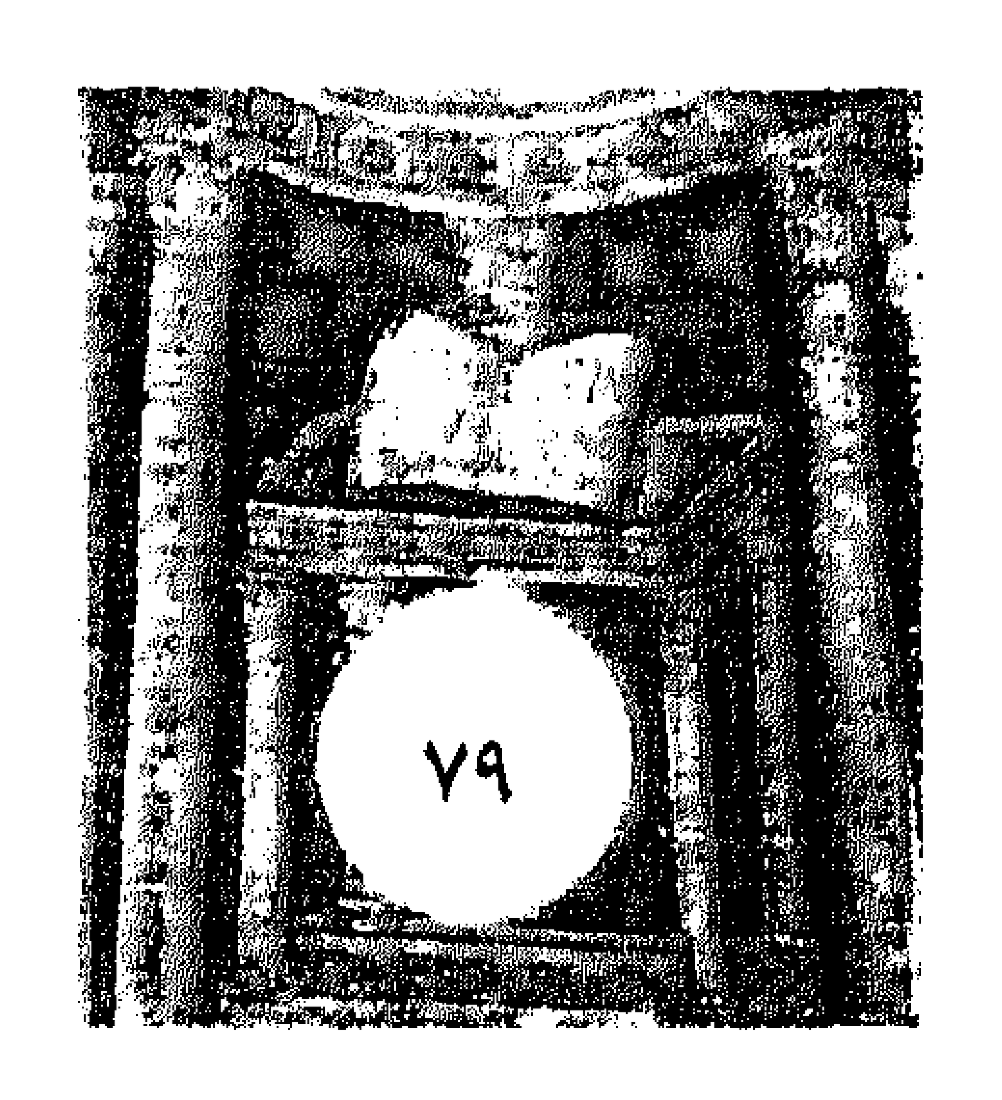
جيوشه إلى أعالى الفرات، بعد أن هاجمت حصونا إسلامية عديدة كملطية ومرعش.

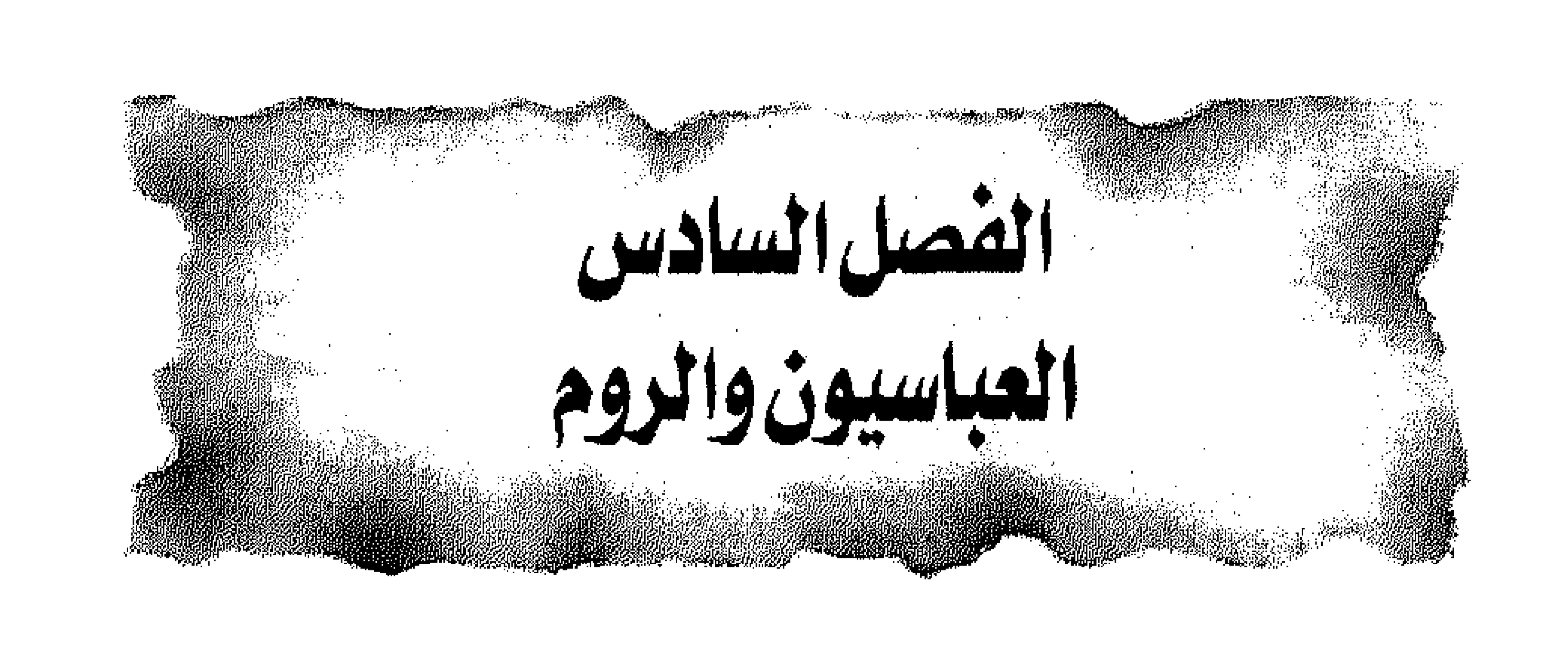
أما فى المجال البحرى، فقد وقعت معركة بحرية بين المسلمين والروم بالقرب من سواحل قبرص عام ١٣٠هـ/ ٧٤٧م، حيث حاصر الأسطول البيزنطى ما يقرب من ألف سفينة إسلامية، وتمكن الأسطول البيزنطى بفضل استخدام النار الإغريقية أن ينزل الهزيمة بالمسلمين ويقضى على أسطولهم هذا، الذى لم ينج منه سوى ثلاث قطع بحرية فقط. وقد أنهى هذا الانتصار البحرى البيزنطى السيادة الإسلامية البحرية على شرقى البحر المتوسط، ولم يستطع المسلمون فى مصر والشام أن يعوضوا تلك الخسارة واختفت قوة البحرية الإسلامية لما يقرب من قرن من الزمان.

على أية حال تعرضت الدولة الإسلامية آنذاك إلى مجموعة من القلاقل الداخلية التى أودت بالخلافة الأموية وأدت إلى ظهور الدعوة العباسية، ثم قيام الخلافة العباسية فى نهاية المطاف.

أسوار القسطنطينية- بداخلها قصر طوب قابى الذى بناه المسلمون بعد الفتح العثمانى







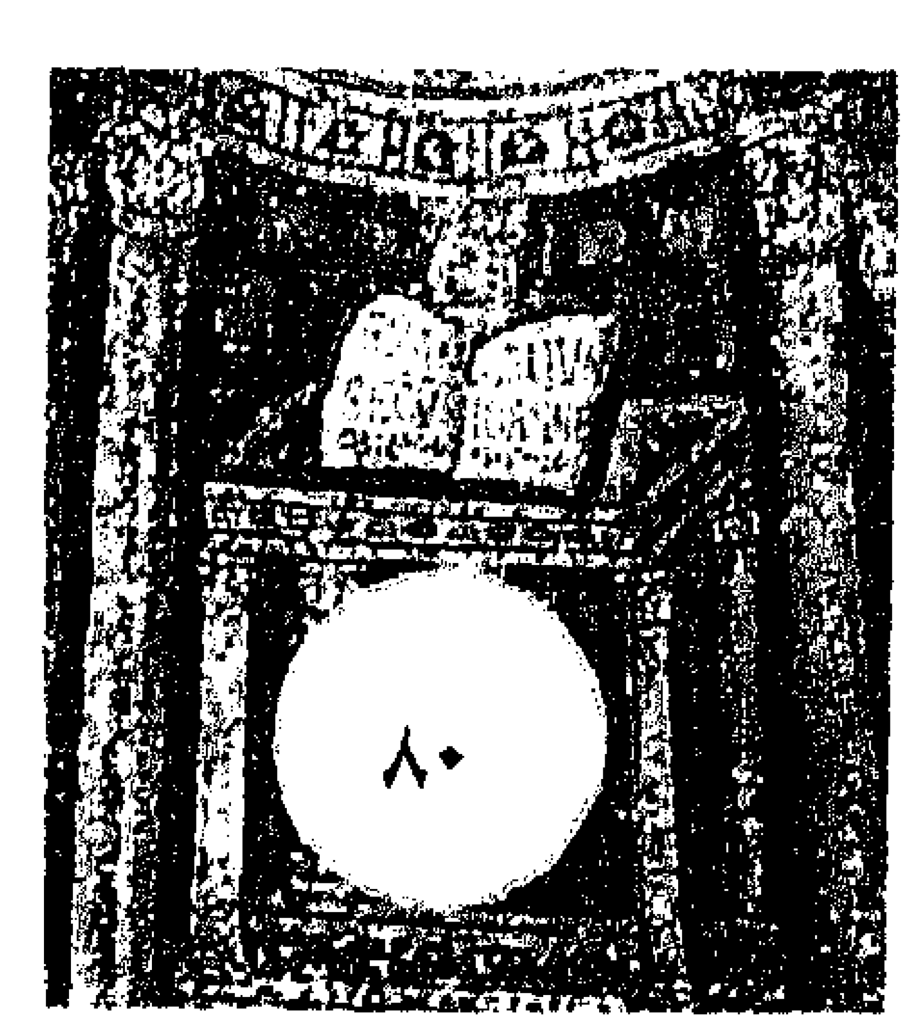
كانت الحدود بين المسلمين والبيزنطيين فى عهد العباسيين ميدانا لنشاط حربى محدود يكاد يكون متصلا؛ ومن الملاحظ أن ذلك النشاط لم يكن على نمط نشاط المسلمين فى العهد الأموى، إذ كان هدف الأمويين الزحف والتوسع، واحتلال القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، ليتم بذلك فتح بلاد الروم كما تم من قبل فتح فارس. أما المسلمون العباسيون فقد غيروا هذه السياسة وجعلوا نشاطهم الحربى عبارة عن غارات الغرض منها إظهار القوة، وإرهاب العدو، والرد على ما قد يقوم به من نشاط مماثل، وقبل أن نسير فى وصف هذه الإغارات يجدر بنا أن نسأل: لماذا لم يسر العباسيون على سياسة الأمويين فى الزحف والتوسع؟ وما الذى أقعدهم دون العمل على إسقاط القسطنطينية؟

من المحتمل أن ذلك يرجع إلى سببين هما:

أولهما: مناوأة أهالى بلاد الشام للعباسيين؛ لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين(مع ملاحظة أن أى تحرك للزحف تجاه القسطنطينية كان لابد أن تتخذ بلاد الشام قاعدة لها، فإذا لم تكن هذه القاعدة مأمونة الجانب مؤيدة للجيوش المعسكرة فيها والمتحركة منها، فإن النصر سيكون صعبا).

ثانيهما: كانت الدولة الإسلامية قد اتسعت اتساعا عظيما يستلزم جهدا كبيرا للسيطرة عليها، وتأمين

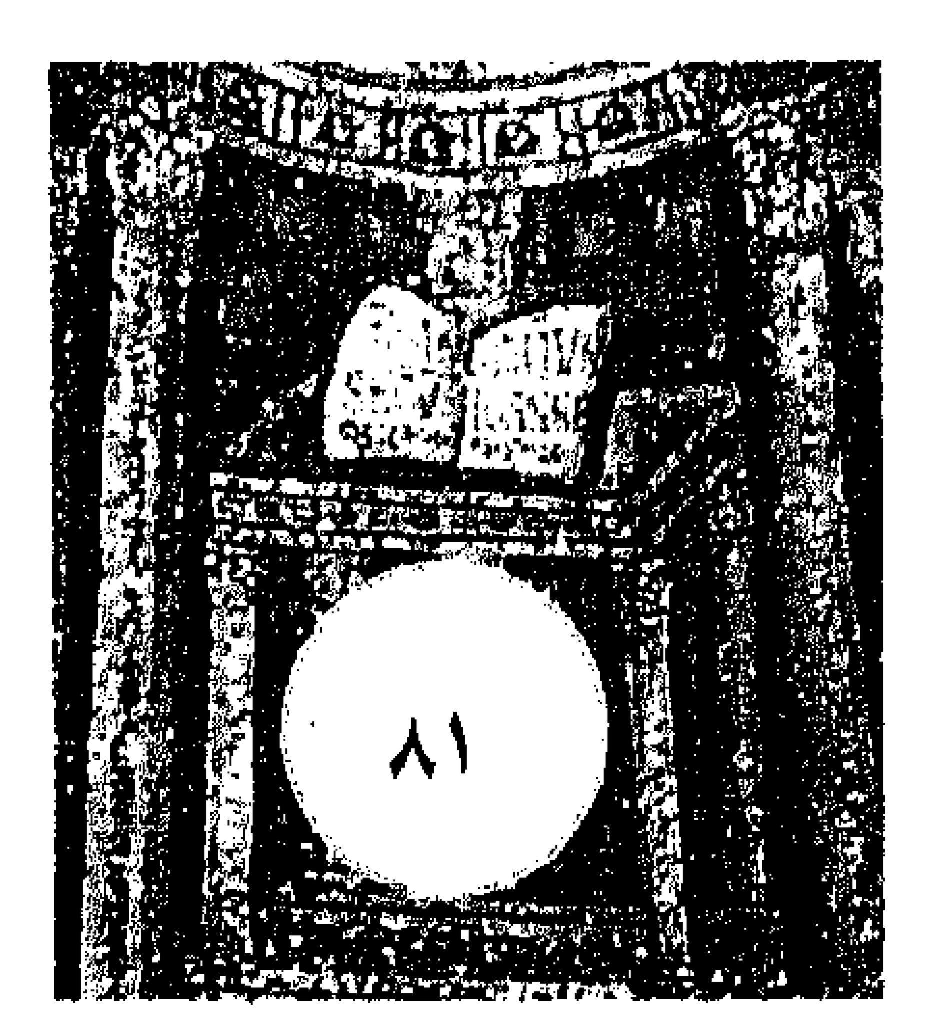
بغداد - قصر الأخيضر يعتبر قصر الحكم العباسى زمن الخليفة المنصور



حدودها، ثم إن العباسيين رأوا أنهم فقدوا الأندلس، وأن بلاد شمالى إفريقيا تثير التمرد عليه من حين إلى آخر، فأدركوا أن من الخير لهم أن يتجهوا إلى السيطرة على ما فى أيديهم، والمحافظة على دولتهم المترامية الأطراف، بدلا من أن يوجهوا قوتهم إلى التوسع فتضعف شوكتهم فى الداخل، ويعرضهم ذلك إلى فقدان أجزاء أخرى من الإمبراطورية. هذا بالإضافة إلى كثرة الحركات الداخلية التى شغلت العباسيين فى عصرهم الزاهر الذى كان يمكن أن يكون عصر فتوح. واكتفى العباسيون بالإغارات ليظهروا قوتهم للأعداء، وأنهم دائما على أهبة الاستعداد للزحف عليهم والإيقاع بهم، وقد اتخذت هذه الإغارات شكلا منتظما، وكانت تسمى الصوائف والشواتى، كما سبق القول.

ويتضح أن جل نشاط العباسيين الحربى كان يتم فى الصيف، وأنهم كانوا يتحاشون القيام بإغارات فى الشتاء إذا لم تدع الضرورة لذلك، أما الصوائف فمن الممكن أن نقول إنها كانت منتظمة؛ وقد بكر العباسيون بالقيام بها منذ نشأة دولتهم، حتى يوقعوا فى خلد عدوهم، أن الأحداث الداخلية لم تضعف شوكتهم، ولم تشغلهم عن الهجوم على الأعداء وأول صائفة قام بها العباسيون كانت سنة ١٣٣هـ/ ٧٥٠م وقد قام بها سعيد بن عبد الله. ثم انتظمت بعد ذلك، فنجد الطبرى وابن الأثير يقرنان الحج بالناس بالقيام بغزو الصائفة، فيقولان: وحج بالناس فلان وغزا الصائفة فلانا، فإذا لم يقم العباسيون بغزو الصائفة فإننا نجد ابن الأثير يذكر ذلك معللا له، فهو يقول فى حوادث سنة ١٣٧هـ/ ٧٥٤م: "ولم يكن للناس فى هذه السنة صائفة لشغل السلطان بحرب سنباذ"، ويقول فى حوادث سنة ١٣٩هـ/ ٧٥٦م"... ولم يكن بعد ذلك صائفة فيما قيل إلا سنة ١٤٦هـ/ ٧٦٣م لاشتغال المنصور بابنى عبد الله بن الحسن". وهكذا كان شن الصائفة حلقة من برنامج العباسيين لا تتخلف لغير ضرورة قاسية. ومن أهم الصوائف التى حدثت فى عهد المنصور تلك الصائفة التى مرت الإشارة إليها والتى ذكرها ابن الأثير فى حوادث سنة ١٣٩هـ/ ٧٥٦م، وكانت ردا على غارة شنها إمبراطور الروم على ملطية سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م، فهدم أسوارها ودخلها عنوة، وقد أعد المنصور رده على هذه الغارة فى الصائفة التالية، وجعل قيادتها لأخيه العباس بن محمد وعمه صالح بن على. وقد بدأ صالح بإصلاح ما أفسده الروم فى السور، ثم دخل فى أرض الروم، وثأر للمسلمين واستنقذ أسراهم.

وطالما كانت الجيوش الزاحفة لغزو الصائفة تسير بقيادة الخليفة نفسه أو ولى عهده، ومما يجب أن يذكر أن الصوائف التى تمت فى عهد هارون الرشيد كانت من أقسى الصوائف وطأة على البيزنطيين، وأكثرها إذلالا لهم، وطالما تولاها الرشيد بنفسه.



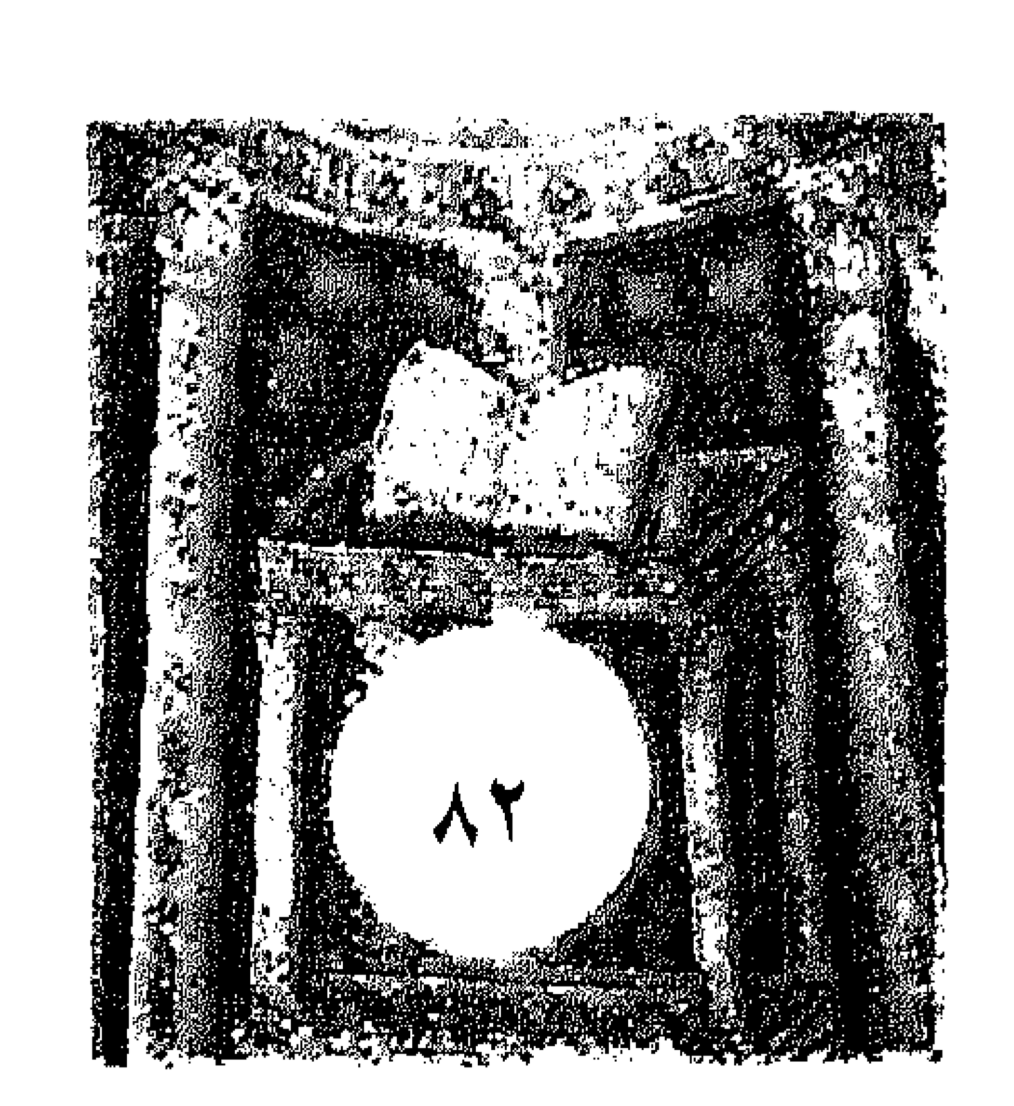
وقد عمد العباسيون إلى إنشاء إقليم العواصم لحماية أطراف الدولة الإسلامية من هجمات الروم. ويقصد بلفظ العواصم سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية؛ لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات البيزنطيين؛ ولأن المسلمين كانوا يعتصمون بها من العدو، ثم هى للتمييز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجية الملاصقة للحدود البيزنطية وهى الحصون التى سميت بإقليم الثغور، لمواجهتها للثغرات أو المنافذ التى فى أرض العدو، وكان إقليم الثغور ينقسم إلى قسمين: أحدهما فى الشمال الشرقى، ويسمى بالثغور الجزيرية نسبة إلى أرض الجزيرة شمال العراق) ومن حصونها الهامة زبطرة وحصن منصور والحدث، والقسم الثانى بالثغور الشامية فى الجنوب الغربى حيث تقترب من ساحل خليج الإسكندرونة، ومن أهم حصون هذا القسم المصيصة وأذنة وطرسوس.

وقصة إنشاء العواصم والثغور هى أن الرشيد لم يكتف بنظام الصوائف لإبراز قوته وحماية بلاده، ولكنه اقتدى بالبيزنطيين الذين أقاموا على أطراف بلادهم المجاورة لبلاد المسلمين خطا دفاعيا وضعوه تحت إشراف رجال حربيين لقبوا بحكام الثغور الطرفية(الكليزورات)، ولما رأى الرشيد أن هذا الخط الدفاعى البيزنطى على حدود البلاد الإسلامية الشمالية، وسماه إقليم العواصم والثغور، وكان هذا الإقليم جزءا من أرض قنسرين والجزيرة، ففصله هارون الرشيد عنه، وعين ابنه المعتصم أميرا له، وجعل عاصمته أنطاكية وامتد إلى حلب ومنبج وشمال أنطاكية ومنطقة الساحل.

ومع أن نظام الصوائف والشواتى كان يمثل العلاقات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين فى هذه الفترة، فقد كانت ظروف خاصة تجد أحيانا، فتجعل الصائفة أو الشاتية تتوغل فى قلب بلاد الروم، أو معركة حربية حامية أوسع مدى، وأشد عنفا من الهجوم الخاطف الذى كان يميز الصوائف والشواتى، وقد لمع اسم هارون الرشيد فى هذه المعارك خلال خلافة أبيه وخلال خلافته هو، كما لمع فيها اسم المعتصم ابنه، وقد سجل التاريخ والشعر العربى بعضا من هذه المعارك التى نقدم أمثلة منها:

موقعة خليج القسطنطينية:

كانت الصائفة التى شنها المهدى على البيزنطيين سنة ١٦٥هـ/ ٧٨١م قوية جارفة بسبب النشاط العدائى الذى قام به البيزنطيون على الحدود الإسلامية قبيل هذا الزحف، وقد سير المهدى ابنه الرشيد عام ١٦٥هـ/ ٧٨١م على رأس هذه الصائفة فى حوالى مائة ألف مقاتل. وكان مع الرشيد القائد العظيم يزيد بن مزيد الشيبانى، وقد كتب لجيش المسلمين النصر فى زحفه، واستطاع





دينار ذهبى ضرب فى عهد هارون الرشيد (١٨٣ هـ) مكتوب على مركز الظهر (الله ربى)

الرشيد أن يصل بجيشه إلى خليج القسطنطينية. فأوقع الرعب فى قلب الإمبراطورة إيرين أرملة الإمبراطور ليو الرابع ١٥٩-١٦٤هـ/ ٧٧٥-٧٨٠م وكانت وصية على ابنها، فطلبت الصلح، وتم الصلح على جزية قدرها سبعون ألف دينار كل عام، وأن تقيم لجيش المسلمين الأدلاء والأسواق فى طريق عودتهم، وقتل وجرح من الروم فى هذه الوقائع ٥٤,٠٠٠ وكانت مدة الهدنة ثلاث سنوات.

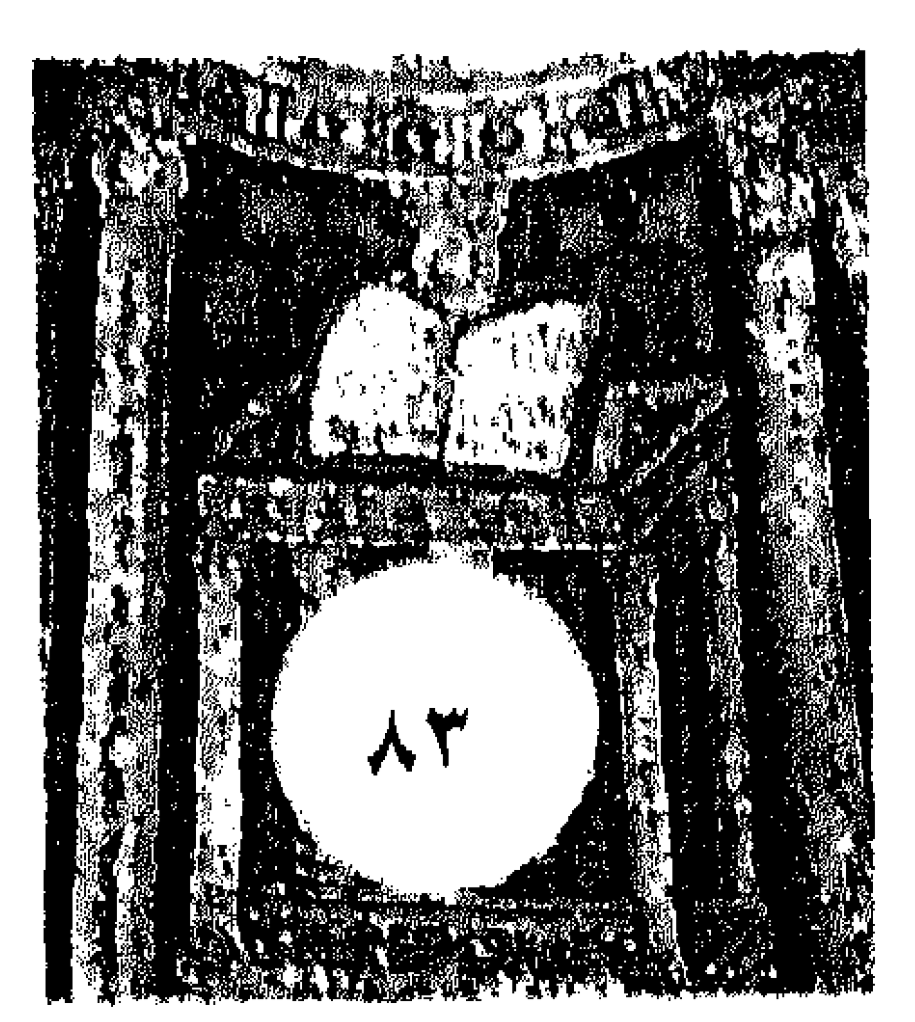
وفى هذه الغزوة يقول مروان بن أبى حفصة مخاطبا الرشيد:

أطفت بقسطنطينية الروم مسندا ... إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها

وما رمتها حتى أتتك ملوكها ... بجزيتها، والحرب تغلي قدورها

وتعرضت بعد ذلك الحياة الداخلية فى الدولة البيزنطية إلى أحداث جسام وتصارعت فيها قوة ثلاثة: قو الإمبراطورة إيرين وقوة ابنها قسطنطين السادس ٧٨٠-٧٩٧م/ ١٦٤-١٨١هـ الذى تخطى مرحلة الصبا إلى مرحلة الرشد، وقوة ثالثة يقودها بعض قواد الجيش الساخطين، وانهزمت إيرين أولا، واعتلى الأمير العرش، باسم قسطنطين السادس، ولكن إيرين عادت

كنيسة القديسة إيرين



فقبضت على ابنها وسملت عينيه واستولت على الحكم بصورة مطلقة. وفى أثناء حكمها تمت معركة خليج القسطنطينية التى تحدثنا عنها آنفا، والتى قادها هارون الرشيد، وانتهت بهزيمة ساحقة للبيزنطيين وبصلح يدفعون بمقتضاه جزية كبيرة، غير أن قوة الجيش ظلت فى طريقها إلى أن نجحت، وأعلن نقفور الذى كان وزيرا للمالية، نفسه إمبراطورا على الدولة البيزنطية سنة ٨٠٢م/ ١٨٧هـ.

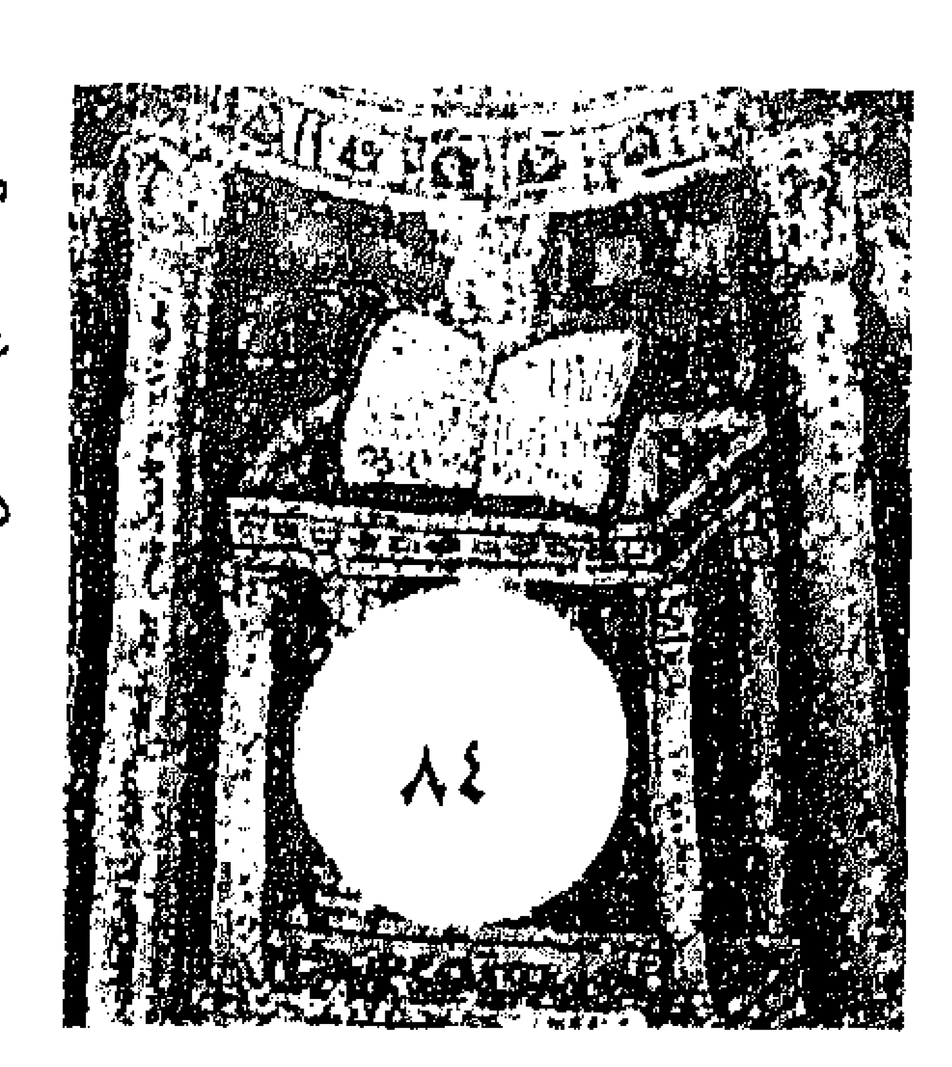
وكان الجيش البيزنطى يعتقد أن الضعف الذى ظهرت به الإمبراطورية البيزنطية أمام جيوش المسلمين، راجع إلى أن الدولة تحكمها امرأة؛ ولذلك بعث نقفور إلى هارون الرشيد الذى كان قد آلت إليه خلافة المسلمين بالرسالة التالية: "**من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب. أما بعد، فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها، ما كنت خليقا بحمل أمثالها إليك، لكن ذاك ضعف النساء؛ فإذا قرأت كتابى فأردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع له المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك**".

فلما قرأ الخليفة هذه الرسالة استشاط غضبا، حتى لم يستطع أحد من جلسائه أن ينظر إليه: ثم دعا بدواة، وكتب على ظهر الكتاب: "**من عبد الله هارون أمير المؤمنين، إلى نقفور كلب الروم: أما بعد فقد فهمت كتابك يابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام على من اتبع الهدى**".

وشخص الرشيد من يومه إلى أعدائه ومعه جيش هائل عام ٨٠٦م/ ١٩١هـ، وعجزت القوات البيزنطية أن توقف ذلك الجيش الزاحف حتى وصل إلى مدينة هرقلة، وقد غنم فى طريقه وأفنى، كما شاءت له رغبته، وعسكر جيش المسلمين حول هرقلة، وبدأ يقذف حصونها بحجارة ملتهبة حتى سقطت، وقد سجل الشاعر العربى هذه الصورة فى قوله:

هوت هرقلة لما أن رأت عجبا	**جواثما ترتمى بالنفط والنار**
كأن نيراننا فى قلب قلعتهم	**مصبغات على أرسان قصار**

وأدرك نقفور أن الإمبراطورة إيرين لم تكن سبب الهزائم التى حلت ببيزنطة، إنما سببها هو قوة المسلمين الجارفة، وإيمانهم بالهدف الذى يحاربون من أجله، فسأل الصلح على مال يؤدى كما كانت إيرين تفعل من قبل، وقبل هارون الرشيد ذلك بعد أن أدبه، ولكن الرجل لم يستطع أن يبر بما وعد، فما أن غادر الرشيد أرض الروم حتى نقض نقفور العهد، ظانا أن شدة البرد ستمنع الرشيد من العودة إليه، وقد كان النكث شديد الوقع على قادة المسلمين، حتى أن أحدا



منهم لم يستطع نقله للرشيد، فاحتيل بشاعر من جنده يكنى أبا محمد عبد الله بن يوسف، ويقال هو الحجاج بن يوسف التيمى ليقول فى ذلك شعرا وينشده الرشيد، فقال:

نقض الذى أعطيته نقفور ... فعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فإنه ... غنم أتاك به الإله كبير

فعرف الرشيد بذلك خبر النكث، وعاد من فوره، وأثخن فى بلاد الروم، وفتح هرقلة، ولم يبرحها حتى أخذ الجزية من نقفور عنه وعن آله ورجاله، وكان مقدارها ٧٠,٠٠٠ دينار.

كانت هذه أشهر الاحتكاكات الحربية بين هارون الرشيد، الذى كان مكتوبا على قلنسوته "غاز حاج" وبين أباطرة الروم ولننتقل الآن إلى واحدة من أهم المواقع بين الطرفين والمعروفة باسم "يوم عمورية".

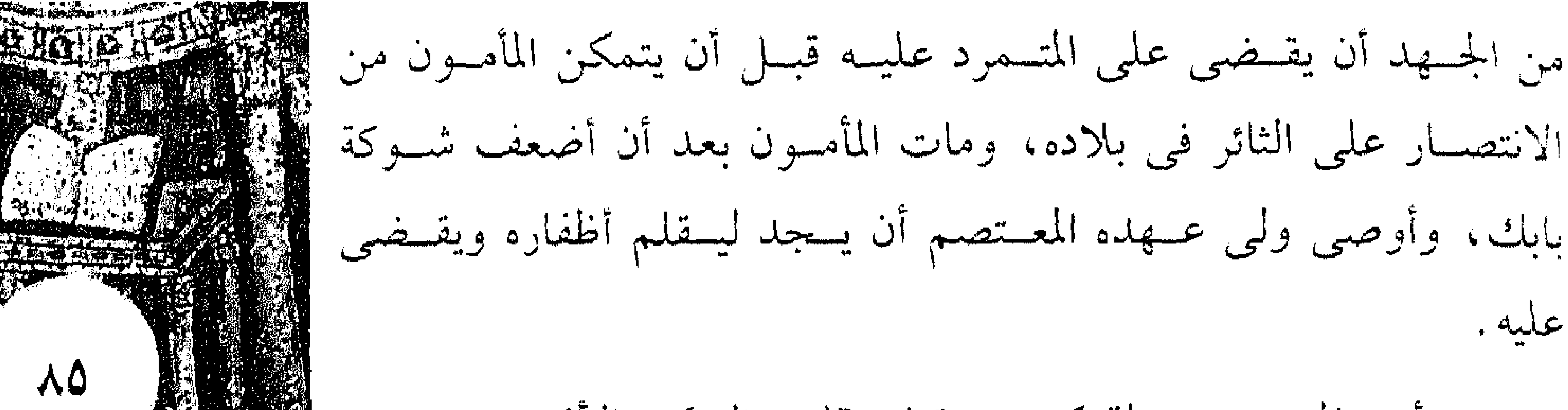
فتح عمورية:

كان الإمبراطور ميخائيل الثانى العمورى ٢٠٥-٢١٤هـ/ ٨٢٠-٨٢٩م معاصرا للخليفة العباسى المأمون، وقد منى كل منهما بثائر عنيد أشعل نار الفتنة فى الداخل، وأثار القلاقل فى وجه سيده، منى المأمون ببابك الخرمى، ومنى ميخائيل بتوماس Thomas Sclavinian الصقلبى، وبابك هو زعيم الخرمية ورئيسها الأكبر، وكانت هذه الطائفة إحدى طوائف الفرس التى تعيث فى الأرض فسادا، وتخيف السبيل، وتبيح الحرمات.

أما توماس الصقلبى فهو رجل سلافى الأصل، قاد الثائرين على الإمبراطور لعدد من الأسباب الخاصة به والعامة، وقويت هاتان الثورتان واستفحل شأنهما، إذ أيد المأمون ثورة توماس وأمده بالعون، وفعل ميخائيل وخلفه ثيوفيل ٢١٤-٢٢٨هـ/ ٨٢٩-٨٤٢م مثل ذلك بالنسبة إلى بابك الخرمى، ولكن ميخائيل العمورى استطاع بعد كثير



دينار صك فى عهد المأمون ٢١٦هـ/ ٨١١م - مركز الظهر للخليفة المأمون



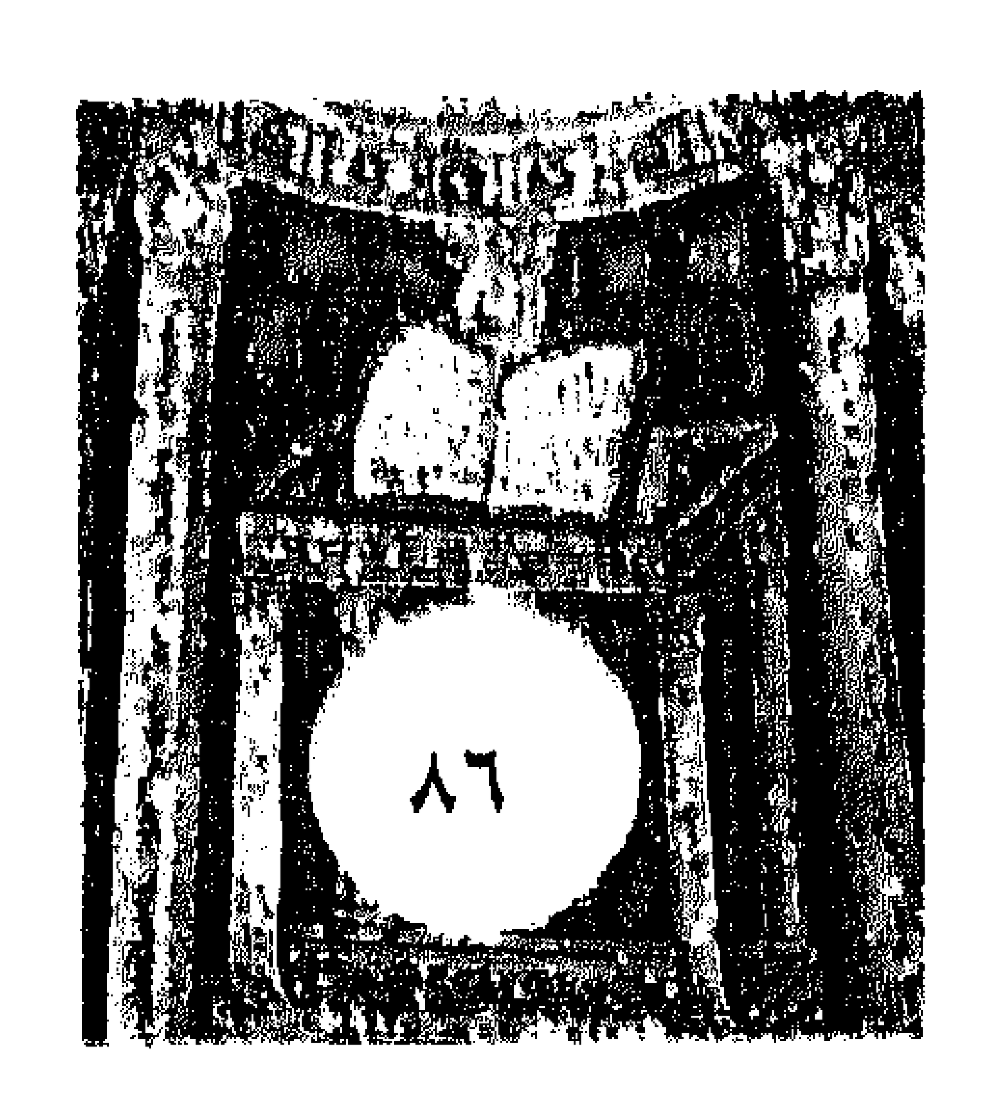
من الجهد أن يقضى على المتمرد عليه قبل أن يتمكن المأمون من الانتصار على الثائر فى بلاده، ومات المأمون بعد أن أضعف شوكة بابك، وأوصى ولى عهده المعتصم أن يجد ليقلم أظفاره ويقضى عليه.

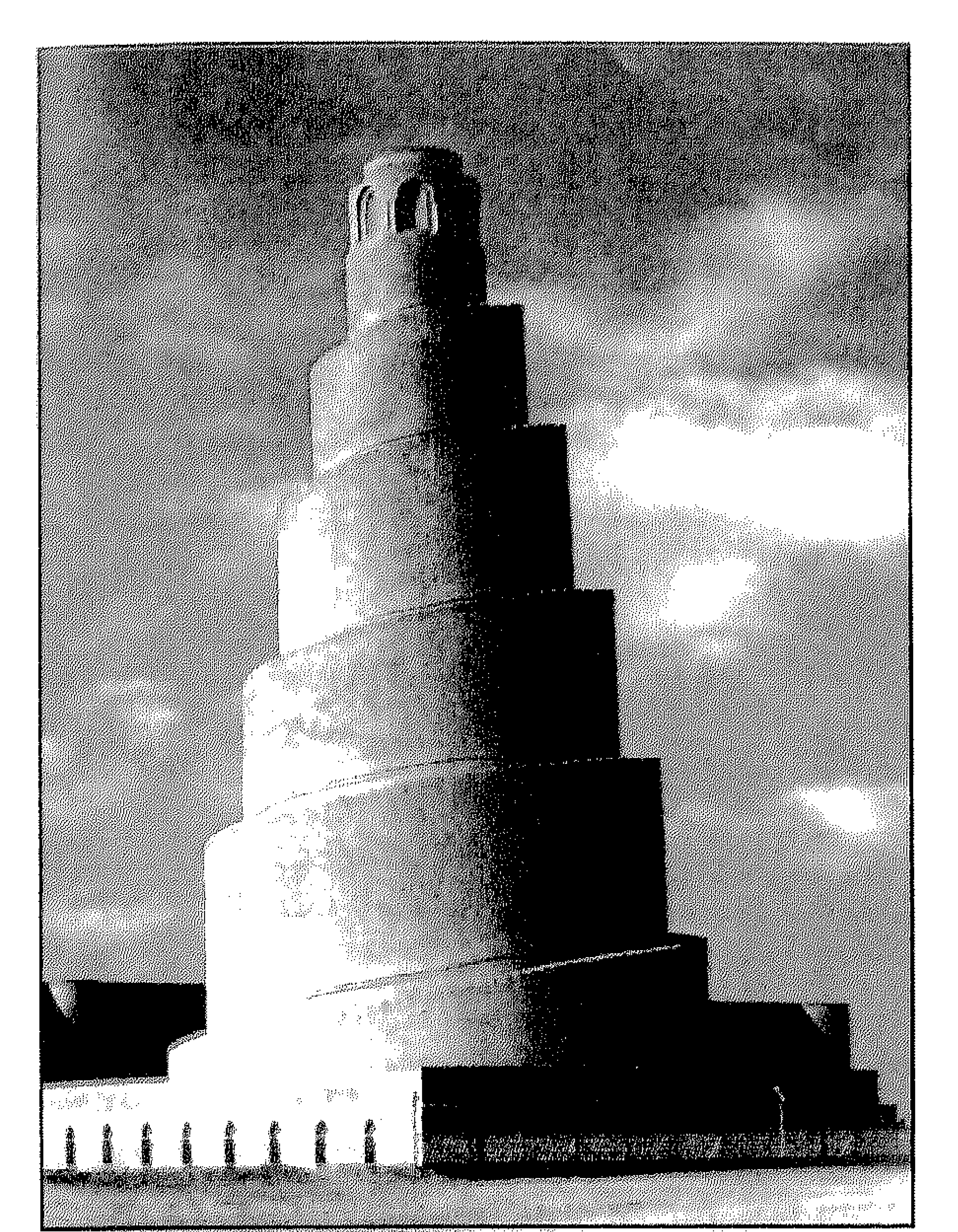
وأعد المعتصم حملة كبيرة بقيادة قائده التركى الأفشين، وبعث بها لمحاربة هذا الثائر، ولما ضيق عليه الخناق، وأحس بابك أن الدنيا ضاقت به، أرسل إلى الإمبراطور ثيوفيل بن ميخائيل، يخبره أن جيوش المسلمين اجتمعت عليه، ويغريه بالخروج لغزو بلاد المسلمين ويمنيه بأن الغزو سيكون سهلا ما دامت جيوش المسلمين مشغولة فى حربها معه، واستجاب ثيوفيل لنداء بابك، وكان بذلك يخدم غرضين، فهو يخفف الضغط عن حليفه، ثم هو يثأر لأمته من المسلمين الذين طالما نكلوا به وبقومه، ولكن المعتصم كان فطنا، فاحتمل طغيان البيزنطيين على أرضه دون أن يخفف ضغطه على بابك، وظل كذلك إلى أن انتصر عليه، وشتت شمل جيشه، ومثل به.

أما ثيوفيل فكان قد اتخذ زبطرة، مسقط رأس المعتصم، هدفا لهجومه. ويحدثنا ابن الأثير أنه قتل من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء وأغار كذلك على أهل ملطية وغيرها من حصون المسلمين، ومثل بمن صار فى يده من المسلمين، وسمل عيونهم، وقطع أنوفهم وآذانهم، وكان من بين من أسر من النساء امرأة هاشمية كبر عليها الضيم والقسوة، فصاحت: وامعتصماه، ونقل بعض الحاضرين خبر هذه الصيحة إلى المعتصم وقد انتهى من بابك فأجاب: لبيك يا أماه.

على أن ما أصاب زبطرة الإمبراطورية التخريب والحريق بلغت أنباؤه المعتصم فى عاصمته سامرا، فعزم على أن يثأر لها، وما كاد ينتهى من فتنة بابك التى انتهت بمصرعه سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م، حتى أعد عدته بأن يصوب ضربة قاصمة لذلك الإمبراطور وتقضى على هيبته، فالمعروف أن عمورية هى مسقط رأس الإمبراطور ثيوفيل Theophilus ٢١٤-٢٢٨هـ/ ٨٢٩-٨٤٢م، فعزم المعتصم على إزالتها من الوجود. على أن لعمورية أهمية أخرى، إذ إن الاستيلاء عليها، يعتبر خطوة فى سبيل الوصول إلى القسطنطينية؛ فهى من أهم وأحصن مدن آسيا الصغرى الواقعة على الطريق إلى القسطنطينية. فلم تكن حملة المعتصم كالحملات السابقة موجهة إلى الحصون الواقعة على الأطراف، بل موجهة إلى أهم موقع فى جوف آسيا الصغرى، إذ اعتبرها الطبرى "عين النصرانية".

غادر المعتصم سامرا فى أبريل سنة ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م، وقد كتب على ألوية الجيش وتروسه "عمورية"، لقد اشتهر المعتصم بالفروسية والبسالة، وقد جعل على مقدمة الجيش أشناس التركى، وشارك فى هذه الحملة الأفشين، الذى اشتهر بأنه قضى على الفتنة التى حدثت بمصر، واشترك فى قتال بابك.





المئذنة الملوية أشهر معالم سامراء
فى العصر العباسى الذهبى

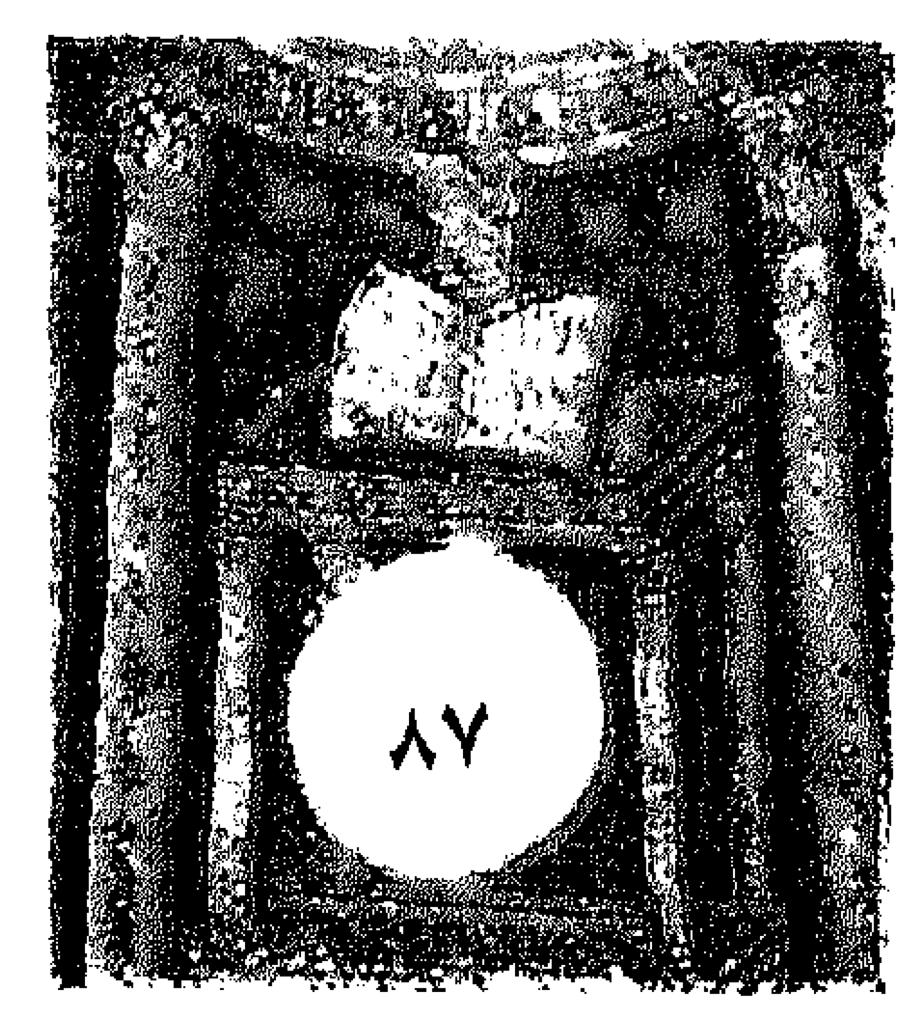
وجعل المعتصم أنقرة أول هدف للحملة، فزحف جيش الشرق، بقيادة الأفشين وقد سلك طريق مرعش، فعبر الحدود عن طريق درب الحدث، فى وقت جرى الاتفاق عليه، حتى يتهيأ له الالتقاء بالجيش القادم من الغرب، فى سهل أنقرة وأنضم إلى هذا الجيش، فيما يبدو، جند من الأرمن وأمير ملطية. أما الخليفة (المعتصم)، فتهيأ فى نفس الوقت إلى المسير إلى أنقره وليس إلى عمورية فقط.

لم يخف على الإمبراطور البيزنطى ما وضعه الخليفة من خطط عن انقره وعمورية، خرج ثيوفيل من القسطنطينية فى مايو سنة ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م، وفى دورويليوم على مسيرة ثلاثة أيام من عمورية، وتقع على الطريق المؤدى إلى الحدود الإسلامية، أخذ يجمع من



مدخل مدينة سامراء





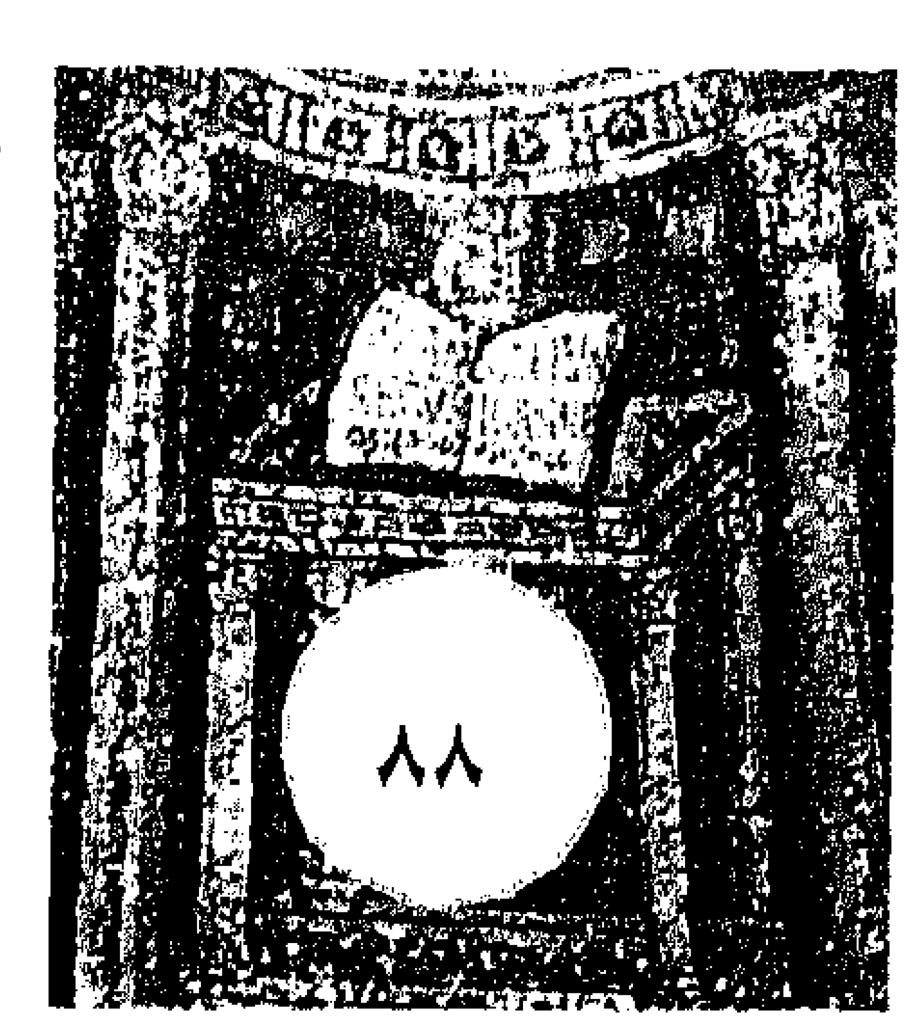
المؤن والعتاد ما يقوى به أسوار عمورية وحاميتها. ومن الطبيعى أن يقوم اثيتيوس قائد ثيم الأناضول بالدفاع عن عمورية، عاصمة ذلك الثيم.

وأعد الإمبراطور خطته، على أن يقوم بمهاجمة قوات المسلمين، أثناء سيرها صوب الشمال إلى أنقرة. ولما لم يكن يعلم شيئا عن الجيش الشرقى الذى يقوده الأفشين، عبر نهر الهاليس Halys، وعسكر بجيشه بموضع يقع فى أقصى خرشنة، ولا يبعد كثيرا عن النهر؛ وذلك لأنه ظن أن الجيش الإسلامى، سوف يجتاز درب قيليقية، فى طريقه إلى أنقرة، فيستطيع بذلك أن يهاجم جناحه.

على أن جيش الخليفة القادم من جهة الغرب، إنما زحف من طوانة صوب الشمال، غير أن الخليفة أصدر أوامره بالتوقف، ريثما يقف على مواقع العدو. وحدث فى الوقت ذاته أن علم



لوحة فنية حديثة تمثل المعركة

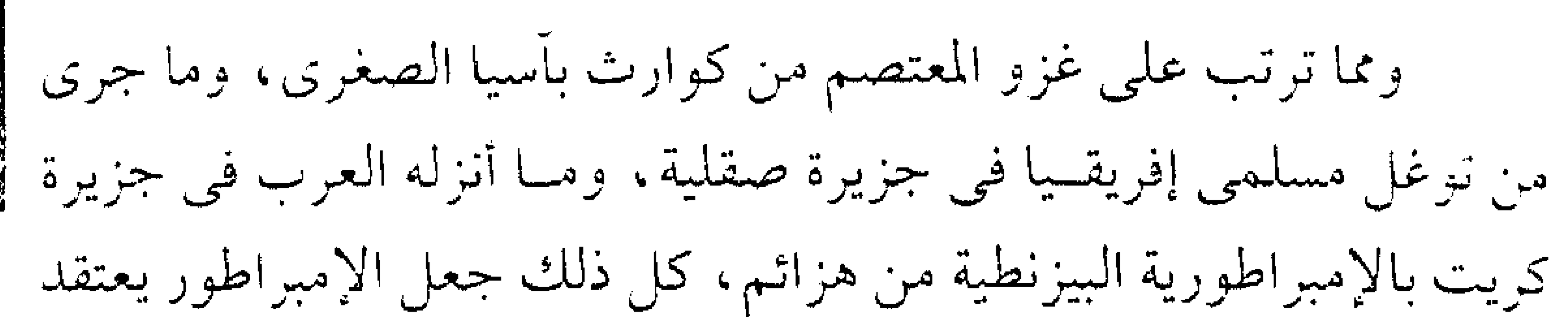


ثيوفيل بزحف الجيش القادم من الشرق، فاضطرب بذلك ما وضعه من الخطط، إذ تحتم عليه أن يقسم قواته، فجعل الجانب الأكبر من الجيش تحت قيادته، وتوجه لمواجهة الأفشين، بينما ترك بقية الجيش لمنع تقدم الخليفة. وما كاد الأفشين يجتاز سواس، وأضحى فى إقليم دازيمون حتى تحتم أن تنشب معركة بينه وبين الإمبراطور.

وابتدأت المعركة فى أول ساعات الصباح من يوم الخميس ٢٥ شعبان / ٢٢ يوليه، وعلى الرغم من أن البيزنطيين أحرزوا النصر أول الأمر، فإن المسلمين سيطروا على الموقف، ووقع الاضطراب فى صفوف البيزنطيين، حين شاع الخبر بأن الإمبراطور لقى مصرعه، غير أن الإمبراطور عاد إلى معسكره، وأنزل العقاب بمن هرب من الجنود. وأرسل من قبله طواشيا إلى أنقرة للدفاع عنها، غير أن الأمر جاء متأخرا، إذ احتل المدينة الجيش الإسلامى القادم من الغرب دون أن يجد مقاومة؛ ذلك أن أهل المدينة أفزعهم ما بلغهم من نبأ انتصار الأفشين، فغادروا المدينة، واعتصموا بالجبال، ولم يلبث اشناس أن اكتشف مواضعهم فأنزل بهم هزيمة ساحقة. ولم يلبث أن انضم الأفشين بقواته إلى المعتصم وأشناس وقواتهما بأنقرة، فأنزلوا بها الخراب والدمار. ولم يسع الإمبراطور إلا أن يلتمس من الخليفة الصفح عنه وإجراء الصلح فأرسل إليه مبعوثين يطلبون عقد هدنة. ويعرضون تعهد الإمبراطور بإعادة بناء زبطرة، وإعادة السكان إليها، وأن يطلق سراح من عنده من أسرى المسلمين وأن يسلم إلى الخليفة كل من ارتكب فى زبطرة شيئا من أعمال العنف والقوة. غير أن الخليفة لم يستجب لتوسلات الإمبراطور، وشيع رسله بالاحتقار والسخرية.

أما الإمبراطور ثيوفيل فإنه توجه إلى دوريليوم، منتظرا ما سوف يحل بمدينة عمورية من المصير المحتوم بعد تدمير أنقرة، لجعل جيشه ثلاثة أقسام، على أن يفصل بين كل قسم وقسم فرسخان، فكان أشناس على المقدمة، واتخذ الخليفة موضعه فى القلب، بينما كان الأفشين فى المؤخرة، وأنزلوا أثناء سيرهم الخراب والدمار بكل ما يجتازونه من الجهات، حتى وصلوا إلى عمورية بعد سبعة أيام من سيرهم. وشرع المعتصم فى حصار عمورية فى أول أغسطس. واشتهرت المدينة بشدة مناعتها وحصانتها، حيث كان يحيط بها سور مرتفع يزيد من مناعته ما يقع عليه من أبراج بلغ عددها أربعا وأربعين برجا، وأحاط بها خندق واسع، وتولى الدفاع عنها اثيتيوس قائد ثيم الأناضول وساعده قادة آخرون.

وبعد حصار استمر أسبوعين، أعلنت المدينة التسليم فى ١٣ أغسطس ٨٣٨ م/ ٢٢٤هـ، فوقع فى أيدى الخليفة عدد وفير من الأسرى من النساء والأطفال، فضلا عن الغنائم الوفيرة، ونقل المعتصم معه إلى سامرا اثنين وأربعين أسيرا من ذوى المكانة، حيث ظلوا فى الحبس سبع سنوات.



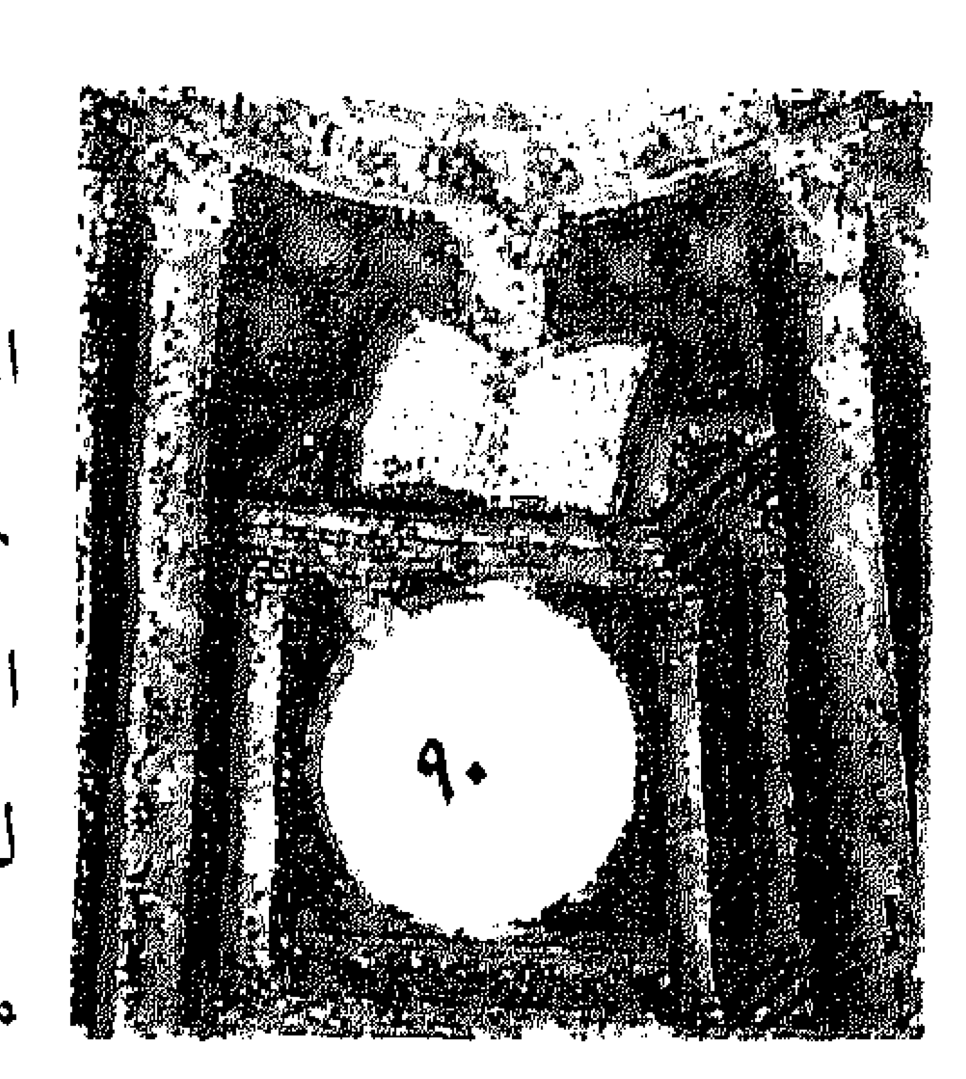
وأرسل ثيوفيل إلى المعتصم باسيل قائد ثيم خرشنة بالهدايا، وبرسالة تتضمن أسفه لما حل بزبطرة من الدمار، ويطلب إلى الخليفة أن يطلق سراح اثيتيوس، مقابل أن يطلق سراح من عنده من الأسرى المسلمين، غير أن الخليفة رفض أيضا ذلك الطلب.

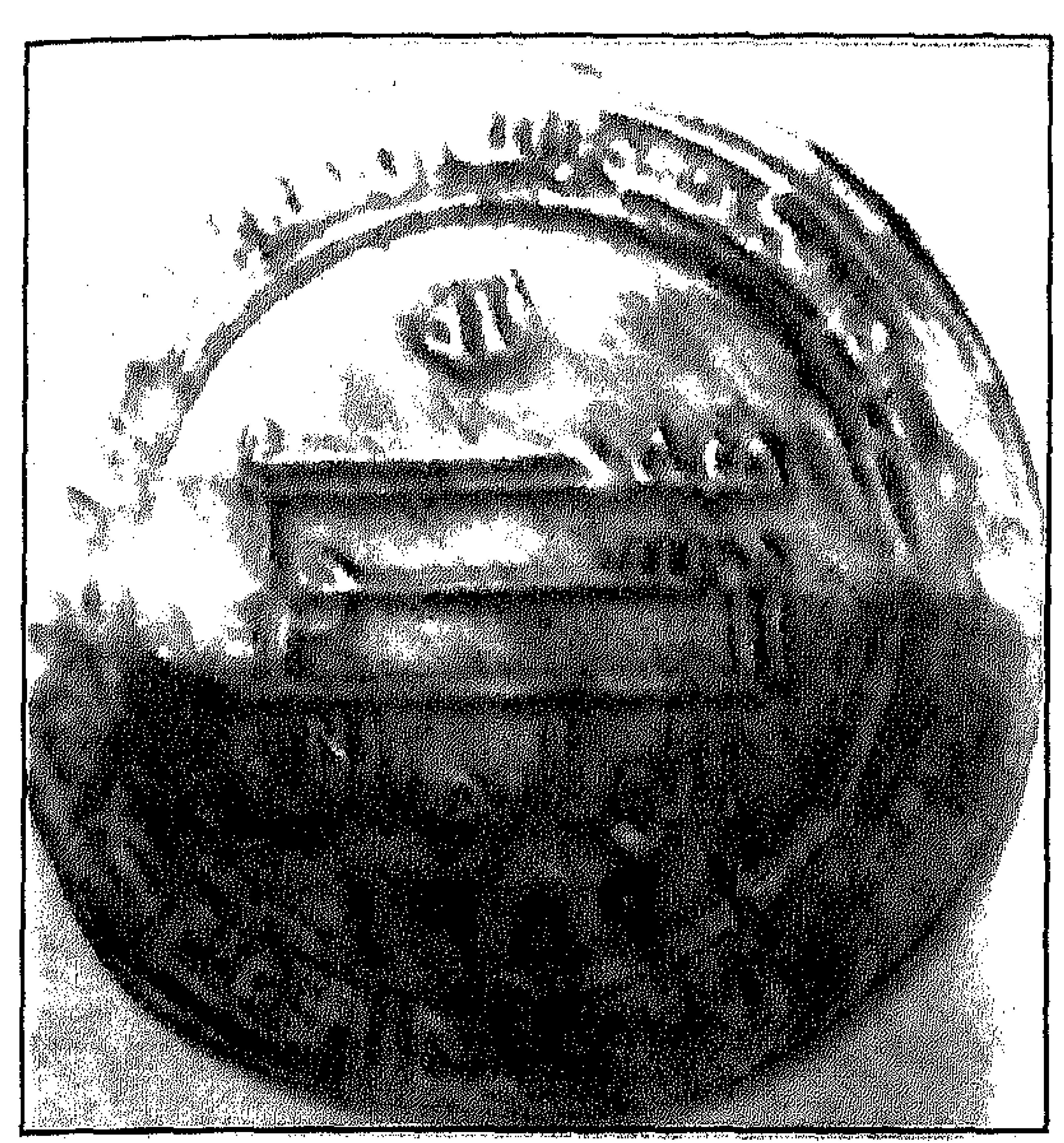
ومما ترتب على غزو المعتصم من كوارث بآسيا الصغرى، وما جرى من توغل مسلمى إفريقيا فى جزيرة صقلية، وما أنزله العرب فى جزيرة كريت بالإمبراطورية البيزنطية من هزائم، كل ذلك جعل الإمبراطور يعتقد أنه لا قبل له بقوة المسلمين المتزايدة فى البحر المتوسط، فعزم على أن يلتمس المساعدة من الدول الأخرى. فأرسل إلى لويس التقى Loius the Pious، الإمبراطور الفرنجى سفارة، تضم أسقفا وبطريقا، فطلبت إلى الإمبراطور أن يبعث بجيش قوى لمهاجمة مصر أو الشام، حتى يضعف من قوة الخليفة وتشتيتها. ولقيت السفارة ترحيبا فى انجلهيم (فى ١٧ يونيه سنة ٨٣٩م)، غير أنه لم يترتب عليها نتيجة من النتائج.

وما سعى إليه من حث أمير الأندلس، عبد الرحمن الثانى، على التعاون معه ضد الخليفة العباسى، لم يلق إلا الفشل الذريع. إذ إن أحوال الأندلس وقتذاك بلغت من السوء ما جعل من المستحيل أن توجه حملة لمساندة الإمبراطور، غير أنه (عبد الرحمن الثانى) أظهر من النية الحسنة ما جعله يرسل مع السفارة صديقه الشاعر يحيى الغزال، وطلب إليه أن يذكر للإمبراطور بأنه سوف يرسل إليه أسطولا إذا هدأت الأمور فى بلاده، غير أنه لم يتم شىء من هذا القبيل.

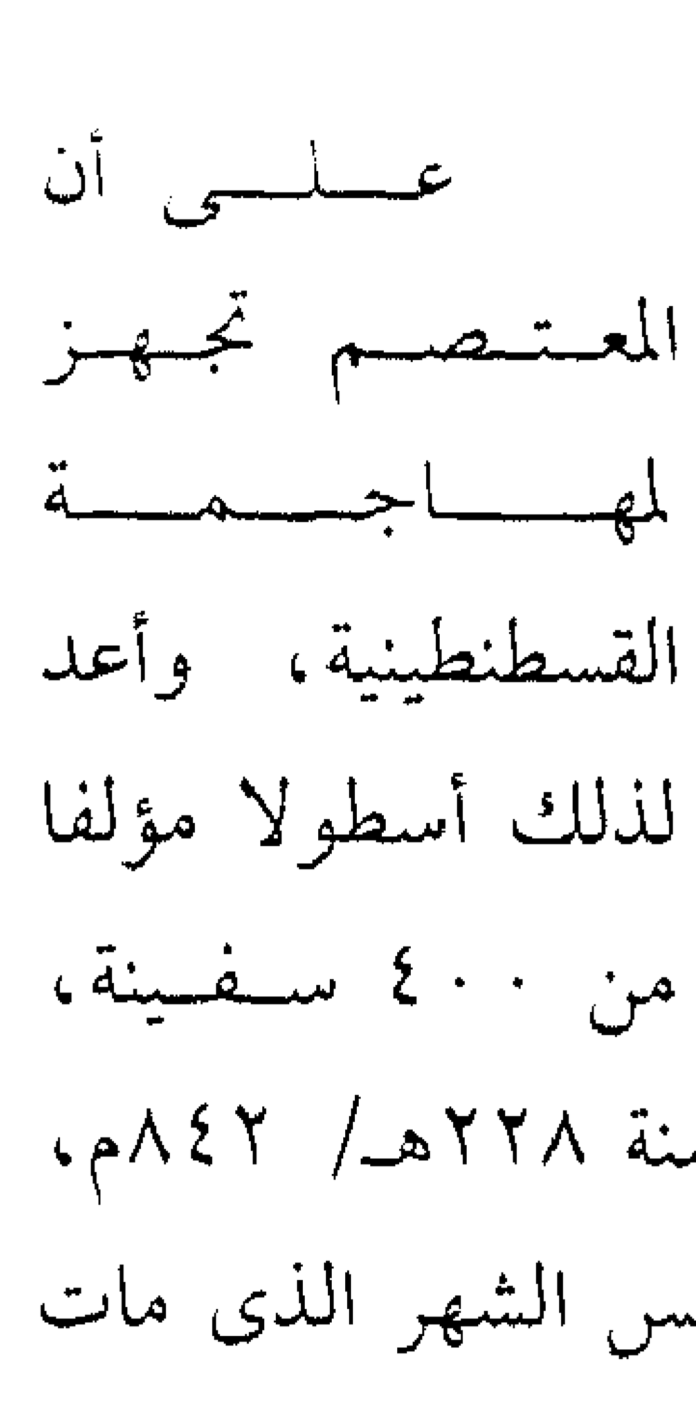
ثم حدث أن عرض ثيوفيل من جديد على الخليفة المعتصم تبادل الأسرى، فرد عليه المعتصم، أنه إذا أردت أن ترد علينا من كان لديك من المسلمين، دون أن تطلب مقابلا لذلك، فإننا نرد عليك أضعاف من تطلق سراحه، وبذلك فإنه لم يطلق سراح أثيتيوس، وتقرر عقد الهدنة عام ٢٢٧هـ/ ٨٤١م. وقد خلد الشاعر العباسى أبو تمام قصة هذه الواقعة فى قصيدته التى يقول فيها:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك أنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد ... والمشركين ودار الشرك فى وصب
أم لهم، لو رجوا أن تفتدى جعلوا ... فداءها كل أم برة وأب
من عهد إسكندري أو قبل ذلك قد ... شابت نواصى الليالى وهى لم تشب
لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيهم بهيم الليل وهو ضحى ... يغله وسطها صبح من اللهب
إن كان بين ليالى الدهر من رحم ... موصولة أو ذمام غير مقتضب
فبين أيامك اللاتى نصرت بها ... وبين أيام بدر أقرب النسب





سكة باسم «الواثق بالله» (٢٢٧ / ٢٣٢هـ)



علـــى أن المعتـصـم تجـهـز لمهـــاجـــمـــة القسطنطينية، وأعد لذلك أسطولا مؤلفا من ٤٠٠ سـفـينة، أبحرت من مـوانئ الشام سنة ٢٢٨هـ/ ٨٤٢م، غير أن المعتصم مات فى نفس الشهر الذى مات فيه ثيوفيل، وتحطمت السفن على صخور جزائر خيلدونيا فلم ينج منها إلا سبع سفن فقط.

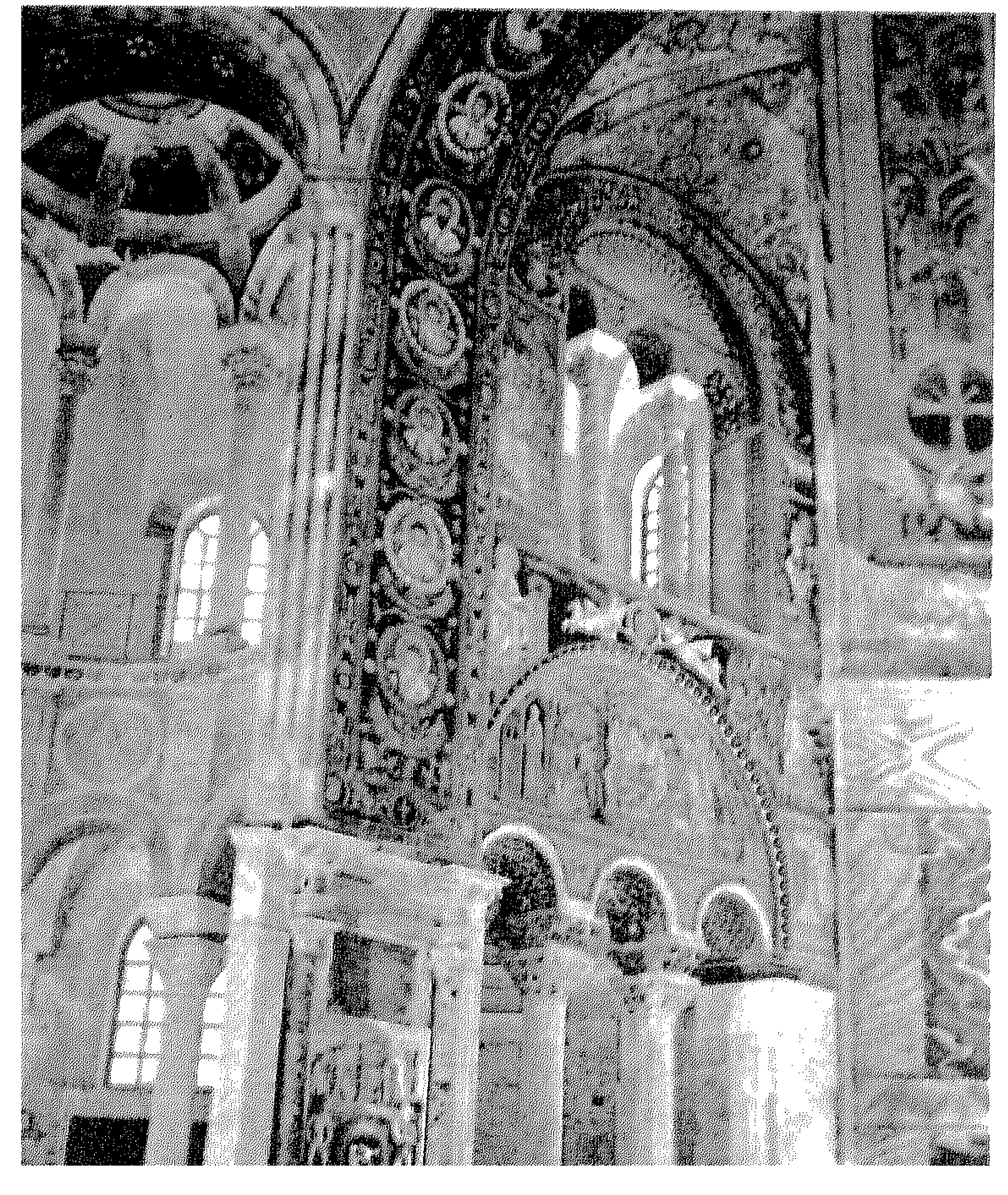
وتولى الخلافة من بعد المعتـصم، الخليفة الـواثـق ٢٢٨-٢٣٣هــ/ ٨٤٢ - ٨٤٧م الـذى جرى فى زمنه من الفتن الدينية والثورات فى بلاد العـرب ودمشق، والسخط والكراهية فى بغداد، ما جعله عاجزا عن مواصلة الجهاد الدينى، وعـلى الرغم من أنه لم تعقد بين البيزنطيين والمسلمين هدنة، فإنه تم تبادل الأسرى، وتوقفت الأعمال الحربية عدة سنوات.

وما كـادت تعود عبـادة الصور إلى سـابق عهدها قـبل عهد لـيو الأيسورى، حـتى جرى استئناف الحرب ضد المسلمين. إذ إن الوزير ثيوكتستـوس قادة حملة بحرية ضخمة لمهاجمة جزيرة كريت فى مارس سنة ٢٢٩هـ/ ٨٤٣م، وبلغت هذه الحملة من القوة والاستعداد ما لـم تبلغه سائر الحمـلات التى وجههـا من قبل ميـخائيل الثانى. ولم يـلق ثيوكتـستوس صـعوبة فى الوصل إلى كريت، والنزول بعسـاكره بها، غير أن المسلمـين بكريت استطاعوا أن يثيروا مـخاوف القائد على مركزه ومكانته عند ثيودورا Theodora، فشاع الخبر بأن الإمبراطورة جعلت أحد منافسيه قيما فى الحكم، فلم يسع القائد إلا أن يعـجل بالعودة إلى القسطنطينية، وأن يترك جـانبا كبيرا من جـيشه بكريت، فتعرض للهزيمة الساحقة التى أنزلها به المسلمون.

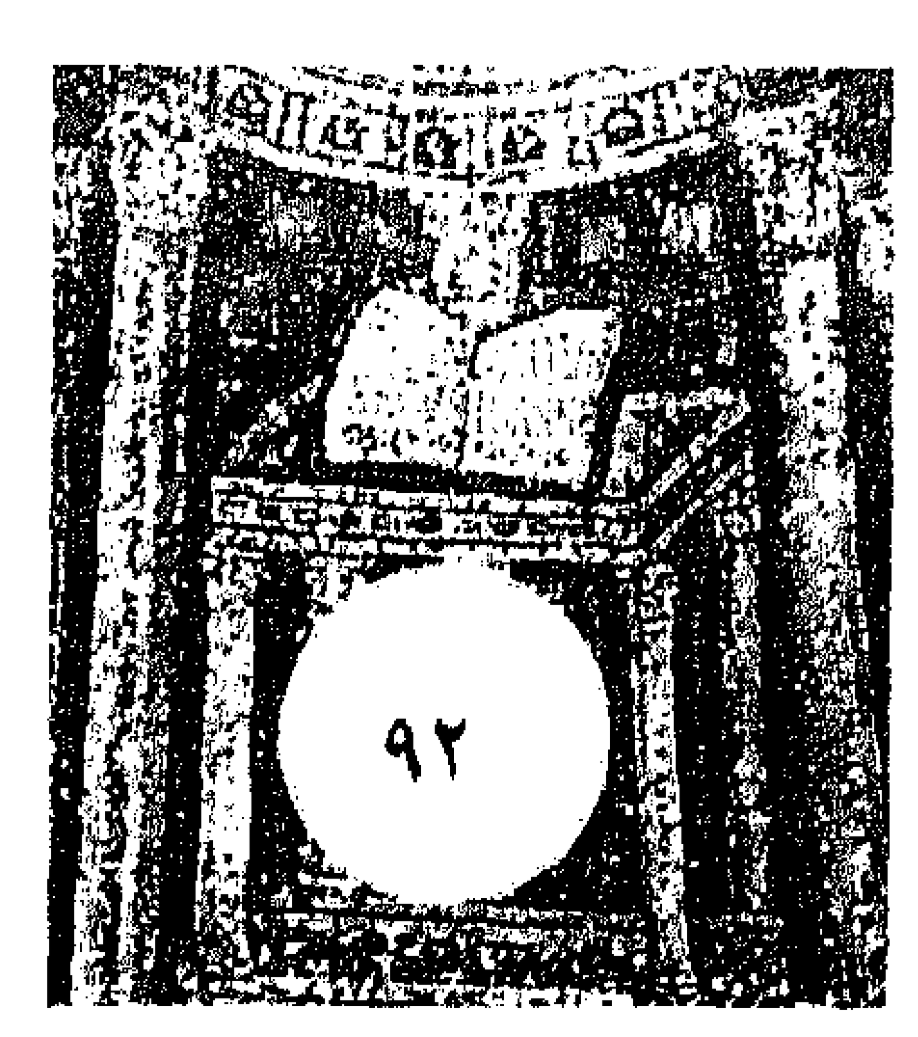
وعلى الرغم من أن أمراء كـريت كانوا مسـتقلين فعـلا، فإنهم اعترفـوا بسيادة الخليـفة فى مـؤونتهـا على ما تمدها به الإسـكندرية، وأنها أضـحـت كأنـها تابعـة لولاية مصـر. والراجح أن ثيودورا، حينما أدركت هذه الصلة، أرسلت إلى مصر سنة ٢٣٨هـ/ ٨٥٣م حملة بحرية فاقت فى الضخامـة كل ما كان معـروفا وقتذاك من القـوى الحربية. وتألفت هذه الحملة البـحرية من ثلاثة أساطيل، تشتمل على ثلثمائة سفينة، منـها أسطولان لم تعرف الجهة التى يقصدانها، والراجح أنه جرى تكليفهما بأعمال حربية فى بحر الأرخبيل، أوعلى ساحل الشام، أما الأسطول الثالث الذى

تألف من ٨٥ سفينة، وخمسة آلاف رجل وتولى قيادته، على حد ما ورد فى المصادر العربية، ابن قطونا، الذى يسميه فازيليف نكتيانس، فقدم إلى دمياط فى ٢٢ مايو سنة ٨٥٣م/ ٢٣٩هـ. ولما وصل الأسطول البيزنطى، ولم يكن بالمدينة حامية عسكرية، إذ إن عنبسة بن إسحاق آخر الولاة من العرب على مصر، استدعى الجند للاشتراك فى الاحتفال بعيد الأضحى بالفسطاط وبادر أهل المدينة بمغادرتها، بينما أنزل البيزنطيون بها النهب والحريق، وأسروا من سكانها نحو ٦٠٠ من المسلمين والقبط، وعثروا على مقادير كبيرة من الذخائر، جرى إعدادها لإرسالها إلى والى كريت، وبعد أن استمر البيزنطيون فى مهاجمة دمياط، أقلعوا بسفنهم إلى جزيرة تنيس، غير أنهم لم يلبثوا أن تحولوا بعد أن أدركوا ما تتعرض له سفنهم من الخطر بسبب ما يكتنف الجزيرة من كثبان رملية، إلى حصن أشتوم، المشهور بمناعة أسواره وأبوابه المصنوعة من الحديد. وبعد أن دمر البيزنطيون ما عثروا عليه من أدوات الحرب، عادوا إلى مواطنهم.

وفى السنوات الأخيرة من حكم ميخائيل الثالث Michael III ٢٢٨-٢٥٣هـ/ ٨٤٢-٨٦٧م، واصل المسلمون بكريت، غاراتهم على جزر بحر الأرخبيل، فتعرضت جزيرة لسبوس Lesbos للنهب والتخريب، وجرى نقل رهبان دير اثوس Athos من مواضعهم. وقام الإمبراطور ميخائيل الثالث وبارداس Bardas بمحاولة أخيرة لاسترداد جزيرة كريت، بأن أعدا حملة بحرية كبيرة، أقلعت من شواطئ ثيم تراقسيان، حيث اجتمعت سائر الأساطيل والعساكر القادمة من ثيمات آسيا الصغرى للاشتراك فى الحملة ضد كريت، على أن هذه الحملة قضى عليها أعداء الإمبراطور، وظلت كريت فى أيدى العرب نحو ثلاثين سنة أخرى.



أيقونات من إحدى كنائس رافنا



وعهدت ثيودورا إلى ثيوكتستوس بقتال المسلمين فى الشرق، غير أنه حلت به الهزيمة أيضا برا عند ماوروبوتامون Mauropota-mon، عند مدخل البوسفور ولما عاد ثيوكتستوس إلى العاصمة، أذاع بأن بارداس هو المسئول عما حل بالجيش البيزنطى من الهزائم، وأن ما ارتكبه من الأخطاء أدت إلى هروب البيزنطيين من القتال، وقد لقى التأييد من ثيودورا واضطر بارداس على أثر ذلك إلى أن يغادر العاصمة.

على أن ما حدث زمن الواثق ٢٢٨-٢٣٣هـ/ ٨٤٢ - ٨٤٧م، الذى تولى الخلافة بعد المعتصم من الفتن الداخلية فى أنحاء الخلافة العباسية، كالثورة التى شبت فى دمشق بتأييد الأمويين، وما وقع فى بلاد العرب من تمرد القبائل، وثورة الأكراد فى أعالى العراق، وفتن الخوارج، وما حدث من ازدياد السخط والكراهية للخليفة فى بغداد بسبب سوء الإدارة وفسادها، وبسبب الفتنة الدينية حول القول بخلق القرآن وقدمه، وحول رؤية الله فى الحياة الآخرة، كل ذلك جعل الخليفة يجنح إلى عقد هدنة مع البيزنطيين، ولم تكن أحوال بيزنطة وقتذاك تدعو إلى المضى فى قتال المسلمين بعد أن أصابتها الكوارث والهزائم الخطيرة فى صقلية سنة ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م.

ولذا قرر إجراء تبادل الأسرى بين الدولتين ٢٣١-٢٣٢هـ/ ٨٤٥ - ٨٤٦م، على نهر اللامس بآسيا الصغرى الذى يعتبر حدا فاصلا بين الممتلكات الإسلامية والبيزنطية، واستمر الفداء أربعة أيام، جرى فى أثنائها افتداء نحو ٤ آلاف من الأسرى المسلمين، منهم نساء وأطفال وذميون من رعايا الخليفة.

ويرتبط بالقتال بين المسلمين والبيزنطيين فى الشرق، ما جرى من اضطهاد البيالصة Pauli-cians. فالمعروف أن مذهب البيالصة ذاع وانتشر فى سائر آسيا الصغرى من فريجياPhyregia وليكاءونيا Lycaonia إلى أرمينية، وأن أتباع هذا المذهب عاشوا فى هدوء وسلام زمن الأباطرة الأيقونيين فى القرن الثامن الميلادى ولما اشتهروا به من تحريم عبادة الصور والرسوم والصلبان، واعتبار الذين يقومون بذلك عبدة أصنام، صار لهم سلطان كبيرا على الحركة اللايقونية، غير أنه أصابهم ما أصاب اللأيقونيين من الاضطهاد زمن ثيوفيل وابنه ميخائيل الثالث؛ وترتب على هذا الاضطهاد أن لجأ إلى حماية أمير ملطية الأمير عمر بن عبيد الله الأقطع، أحد القادة البيزنطيين ويدع قربياص، بشيم الأناضول بمن معه من الجند الذين يبلغون نحو ٥ آلاف رجل. والراجح أنه كان للبيالصة مناطق فى شمال ملطية وغربها، وأشهر مدنهم تفريك التى اتخذها البيالصة حاضرة لهم، وأقام بها زعيمهم.



وإذا أدرك البيالصة أن ثيودورا سوف تمضى فى سياسة زوجها؛ التى تقضى باضطهاد المذاهب المخالفة للأرثوذكسية، وأنها هددت البيالصة بالإبادة إذا لم يرجعوا إلى الدين القويم. وأعقبت ذلك بإرسال حملة ضخمة لتنفيذ رغبتها، فجرت المذابح وهلك عدد كبير من البيالصة قتلا أو حرقا؛ ومن نجا منهم هرب إلى الحدود، واستولت الدولة على ممتلكاتهم.

وما كادت ثيودورا تعزل من الحكم سنة ٢٤٢هـ/ ٨٥٦م حتى نشط البيالصة فى التعاون مع المسلمين فى قتال البيزنطيين؛ إذ إن أخاها بتروناس Petronas، الذى شغل وقتذاك وظيفة قائد ثيم التراقسيان تولى قيادة الجيش، وفى صيف سنة ٢٤٢هـ/ ٨٥٦ م؛ قام بغارات على سميساط وآمد؛ ثم تقدم لمهاجمة تفريك؛ الذى انحاز إلى أمير ملطية ووالى طرسوس فى الإغارة على أملاك البيزنطيين. وما حدث فى هذه السنة ٨٥٦م/ ٢٤٢هـ من غارات أمير ملطية وأمير طرسوس وانحياز زعيم البيالصة لهما، إنما يقابله ما قام به الإمبراطور ميخائيل الثالث، الذى بلغ وقتذاك سن الرشد، وبصحبته خاله بارداس وبتروناس، من الاستعداد لقتال المسلمين. فتوجهت الحملة الأولى لمهاجمة سميساط، وتولى قيادتها بارداس، غير أن المسلمين داهموا البيزنطيين ولم ينجح الإمبراطور ميخائيل إلا بصعوبة بالغة. ثم جرى تبادل الأسرى فى شتاء هذا العام ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م، والراجح أن الإمبراطور البيزنطى، هو الذى اقترح ذلك، بعد أن حاقت به الكوارث فى الشرق، وفى صقلية؛ على أنه ما كادت أسابيع قليلة تمضى على هذا الفداء، حتى خرج الإمبراطور ميخائيل لمهاجمة أملاك المسلمين، غير أن ما ورد من أخبار مهاجمة الروس للقسطنطينية فى يونيه عام ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م جعله يعود لمعالجة الموقف؛ فلما زال الخطر، ارتحل الإمبراطور من جديد إلى الشرق، لقتال عمر أمير ملطية، الذى استعد للأمر وخرج للحرب. اتخذ الإمبراطور الطريق الإمبراطورى المعهود الذى يؤدى إلى أعالى الفرات عن طريق أنقرة وسيواس، وأقام معسكره فى سهل دازيمان، حيث أنزل الأفشين بأبيه من قبل هزيمة ساحقة؛ وصار يرقب قدوم الأمير من سواس، من الطريق المعهود، غير أن عمر اتخذ طريقا مختلفا، وأخذ البيزنطيين على غرة، وذلك بأن قاد جيوشه صوب الشمال عبر التلال، ولما هبط إلى سهل دازيمون، اتخذ له ولجيوشه موضعا ملائما فى خوناريون Chonarion، قرب المعسكر البيزنطى، ونشبت بين الفريقين معركة حاسمة، انتهت بالهزيمة الساحقة التى حلت بالبيزنطيين، وفر الإمبراطور ميخائيل إلى قمة التلال، فحصره الجيش الإسلامى فترة من الزمن، غير أن المسلمين لم يلبثوا أن انسحبوا بسبب قلة المؤونة ونفاد الماء.

والراجح أن عمر أمير ملطية تقدم، بعد الانتصارات التى أحرزها، حتى بلغ سينوب ثم عاد بعد ثلاث سنوات عام ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م، فخرب ثيم الأرمنياق، واستمر فى سيره حتى ساحل



البحر الأسود، فاستولى على أميسوس Amisus؛ التى كانت تعتبر وقتذاك من أكبر موانى قبادوقيا، على ساحل البحر الأسود، وترتبط بقبادوقيا بطريق ممهد سهل.

ولما علم الإمبراطور ميخائيل بما أحرزه عمر أمير ملطية من الانتصارات، أعد جيشا كبيرا، جعل على رأسه بتروناس، وجعل أيضا تحت تصرفه الجيوش البيزنطية المرابطة فى تراقيا ومقدونيا. اتخذ عمر طريقه الممتد على شاطئ نهر هاليس إلى طوانة والبدندون. وجعل بتروناس خطته على أساس أن يعترض طريقه، ويوقف تقدمه، وأن يطوق عدوه فى الموضع بين بحيرة تطا Tatta ونهر الهاليس. فاجتمع إلى الشمال منه جيوش ثيمات الأرمنياق، والبقلار وبافلاجونيا، وكولونيا، بينما احتشد فى الجنوب والجنوب الشرقى جيوش ثيمات الأناضول، والابسيق وقبادوقيا، يعززها عساكر سلوقية وخرشنة، بينما اتخذ بتروناس ومن معه من عساكر ثيمات التراقسيان وتراقيا ومقدونيا مكانه إلى الغرب من طريق الجيش الإسلامى، ولم يكن يفصل بينه وبين معسكر المسلمين إلا تل، استطاع بتروناس أن يحتل قمته، وعلى الرغم من أنه جرى تطويق قوات عمر فى هذا الموضع، غير أنه شن هجوما خاطفا، كان يرمى من ورائه إلى أن يشق له طريقا، وسط الجيوش البيزنطية، التى قدرها المؤرخون المسلمون بنحو ٥٠ ألفا، ليسير نحو الشمال أو الجنوب، غير أنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا، فلقى مصرعه وهو يقاتل عدوه الذى يفوقه فى العدد وأرسلت رأسه ليطاف بها فى شوارع القسطنطينية. وآخر ما حدث من الحروب فى الشرق زمن ميخائيل الثالث Michael III، كان فى سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤ م، حيث لقى على بن يحيى مصرعه فى موقعة مارتيروبوليس Martyropolis (ميافارقين) فى أعلى الفرات.

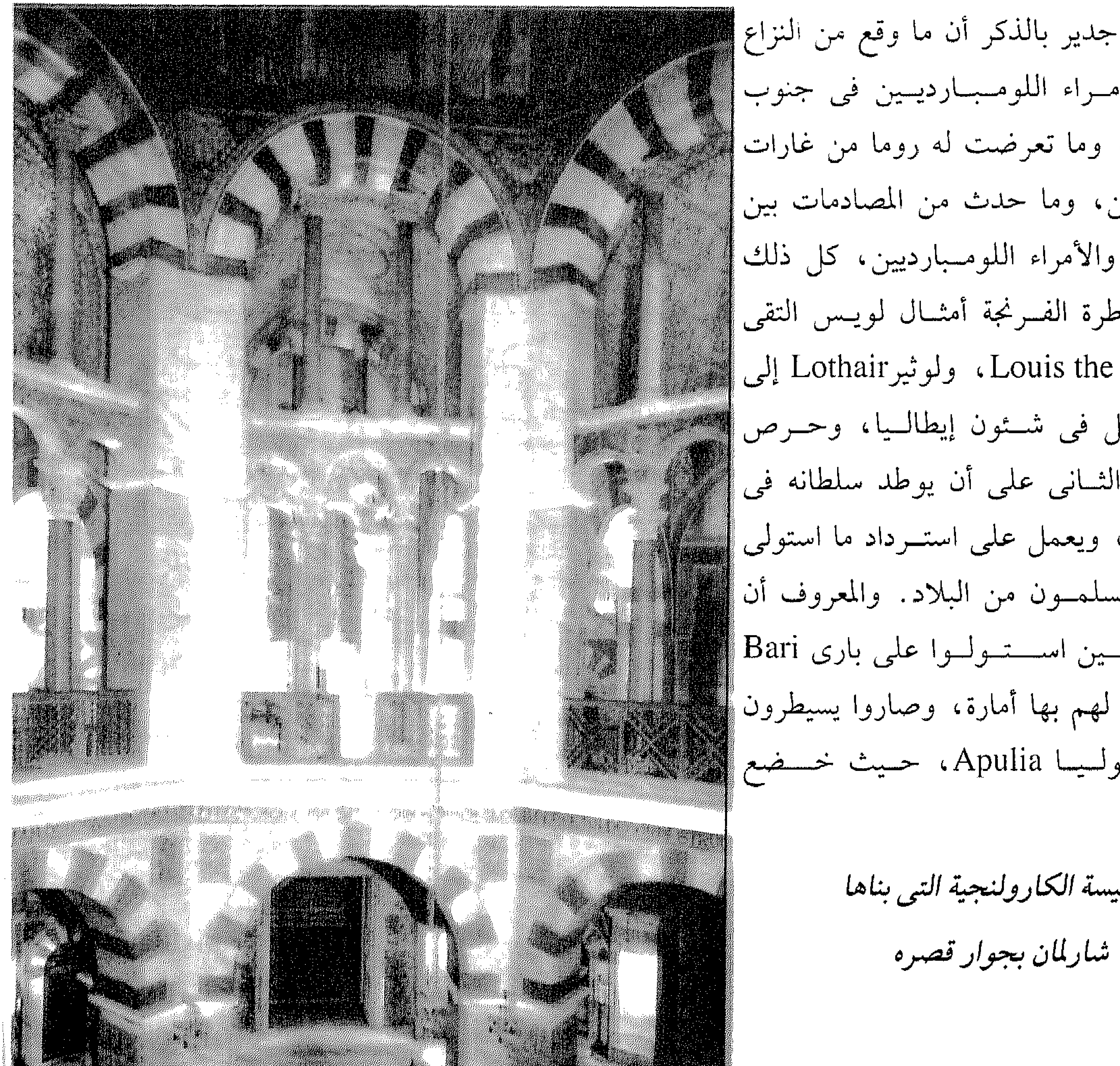
ولم تتعرض الحدود بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية فى آسيا الصغرى لتغيير كبير، غير أن المسلمين أضافوا إلى أملاكهم حصونا عديدة، وما هو أهم من ذلك أن رسخت أقدامهم فى قبادوقيا شرق نهر الهاليس.

أما سياسة ميخائيل الثالث فى البحر المتوسط، فالمعروف أن المسلمين بجزيرة كريت، أخذوا يذرعون بحر الأرخبيل كيفما شاءوا، وحصلوا على ما كانوا يبتغون من الغنائم. وتعرضت جزيرة لسبوس للتخريب والنهب. وقد قرر ميخائيل الثالث وبارداس أن يعدا حملة ضخمة لمهاجمة كريت الإسلامية، وأن تقلع هذه الحملة من شواطئ ثيم تراقسيان التى تجتمع بها سائر أساطيل الأقاليم والقوات العسكرية القادمة من الثيمات الآسيوية، وذلك سنة ٢٥٢هـ/ ٨٦٦ م، غير أن ما حدث من نجاح المؤامرة التى دبرها باسيل Basil I (الذى صار فيما بعد الإمبراطور باسيل المقدونى)، لاغتيال القيصر بارداس، أوقف سير الحملة إلى كريت. أما فى صقلية، فإن محاولة

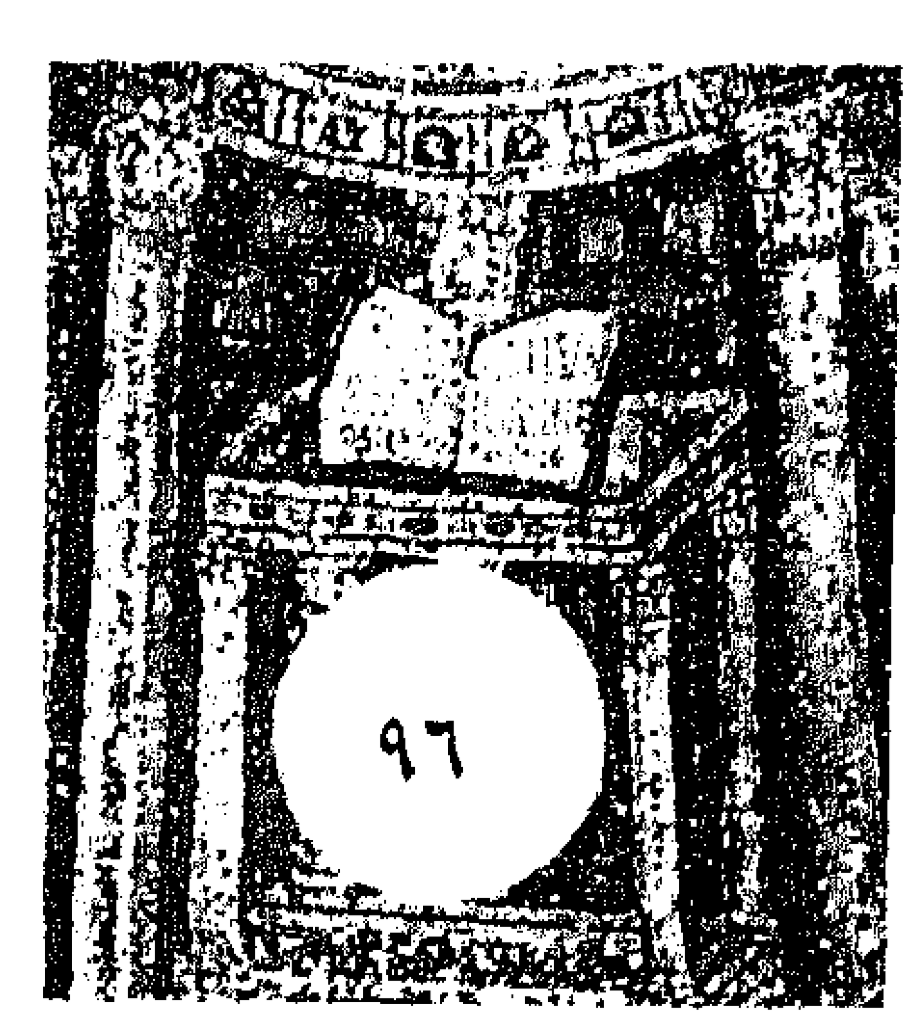
الأسرة العمـورية لاسترداد ما استولى علـيه المسلمون من المواقع باءت بالفشل، بل إن أقـدام المسلمين رسخت فى الجنوب الشـرقى للجزيرة باستـيلائهم على نوتو Noto و Sceicli، وكذا فى الشمـال الشرقى، باستيلائهم على مرتفعات تاورمينا Tauromenium، غير أن سيراكوزا عاصمة الجزيرة لم تسقط فى أيدى المسلمين إلا زمن المقدونيين.

وتجدر الإشارة إلى أنه فى أواخـر عهد ميخـائيل الثالث وقعت فتنا داخلية فى بـغداد وبلاد الخلافة العبـاسية بسبب تسلط الترك وإرغـامهم الخليفة المسـتعين على التخلى عن الخـلافة سنة ٢٥٢هـ/ ٨٦٦ م. فولى الخـلافة من بعده المعـتز، ومنذئذ دخلت الدولة العباسية فى دور التداعى والتفكك، على حين أن الدولة البيزنطية استهلت عصرا جديدا من القوة والتوسع، على أيدى أباطرة الأسرة المقدونية ٢٥٣-٤٤٨هـ/ ٨٦٧-١٠٥٦م، وذلك بعد أن اغتال باسيل الأول سـيده ميخـائيل الثالث وصار إمـبراطورا على الإمبـراطورية البيزنطيـة عام ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م.

جدير بالذكر أن ما وقع من النزاع بين الأمـراء اللومـبارديـين فى جنوب إيطاليا، وما تعرضت له روما من غارات المسلمين، وما حدث من المصادمات بين نابولى والأمراء اللومـبارديين، كل ذلك دعا أباطرة الفـرنجة أمثـال لويـس التقى Louis the Pious، ولوثيرLothair إلى التـدخل فى شـئون إيطالـيا، وحـرص لويس الثـانى على أن يوطد سلطانه فى إيطاليا، ويعمل على استـرداد ما استولى عليه المسلمـون من البلاد. والمعروف أن المسلمـين اسـتـولـوا على بارى Bari وأقاموا لهم بها أمارة، وصاروا يسيطرون على أبولـيـا Apulia، حـيث خـضع

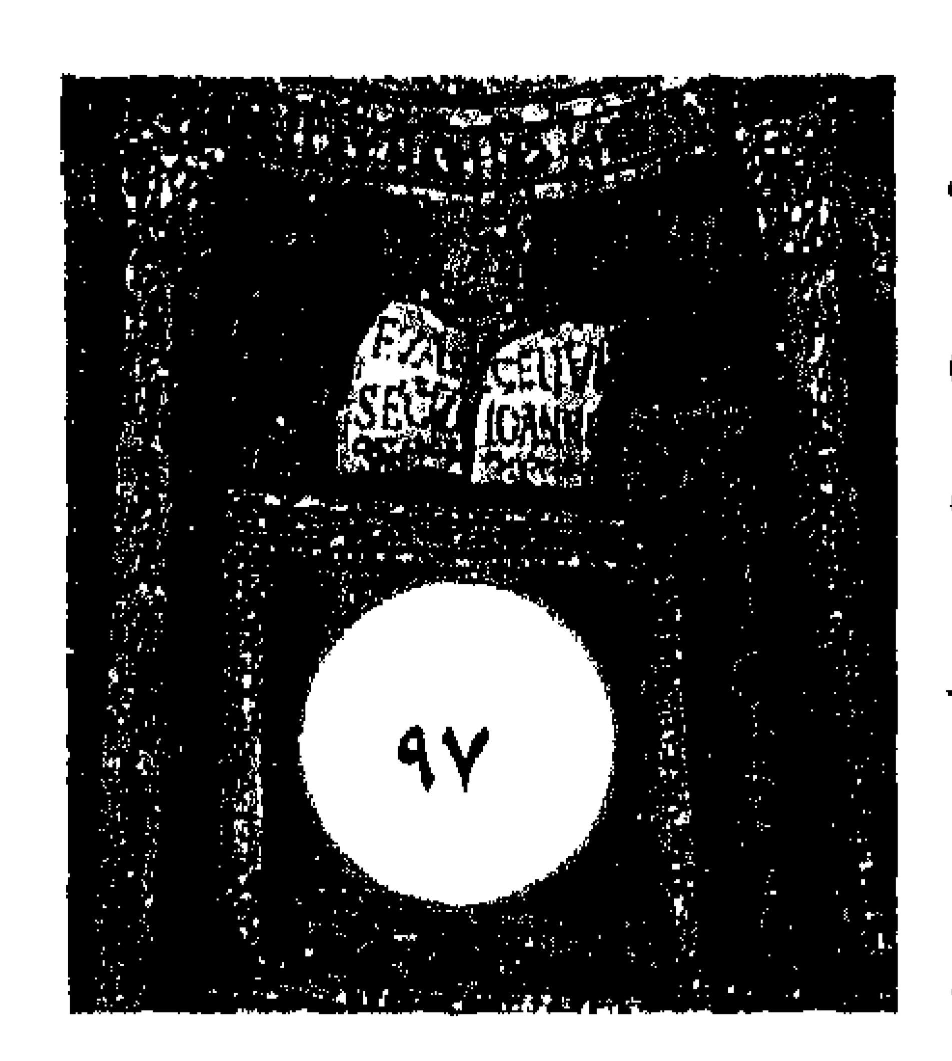


الكنيسة الكارولنجية التى بناها شارلمان بجوار قصره



لسلطانهم ٢٤ حصنا، ومن هذه الحصون صاروا يشنون الغارات على الجهات المجاورة؛ وقد اشتهرت بارى باستحكاماتها المنيعة. ولما لم يكن لديه أسطول قوى، لم يستطع لويس أن ينتزع من المسلمين معاقلهم الساحلية، فتعرض لهزيمة ساحقة حينما حاول الاستيلاء على بارى، على الرغم من طول مدة حصره لها، وذلك سنة ٢٥٣هـ/ ٨٦٧ م. وترتب على ذلك أن استعان لويس الثانى بكل من البندقية والدولة البيزنطية سنة ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م، فأحرزت القوات المتحالفة نصرا بحريا فى تارنت Tarentum التى أقلع منها أو من كريت أسطول إسلامى ليغير فى عام ٨٧٥م/ ٢٦٢هـ على البندقية، فأحرق ميناء كوماشيو Comacchio الواقع على مصب نهر البو. وتعتبر هذه هى آخر إغارات المسلمين على أعالى البحر الأدرياتى.

وعلى الرغم من أن الدولة البيزنطية بمساعدة البندقية، استطاعت أن تصد الضربات التى وجهها المسلمون إلى سواحل دالماشيا واليونان والبيلوبونيز، وأن تستولى على جزيرة قبرص وتحتلها لمدة سبع سنوات، فإنها لم تستطع أن تبسط سلطانها على الساحل الغربى لإيطاليا. إذ ازداد ضغط المسلمين على امتداد هذا الساحل الإيطالى، فأغاروا على جائيتا Gaeta وسالرنو Salerno، وتعرضت إمارة البابا لهذه الغارات التخريبية، واستنجد البابا حنا الثامن بالإمبراطور شارل الأصلع، وبالدولة البيزنطية، وبمدن أمالفى Amalfi وجائيتا ونابولى، غير أن دعوته لم تلق اهتماما محسوسا. فلم تحفل الدولة البيزنطية بمساعدته لما تبين لها من ممالأته للكارولنجيين ومناوءته لمصالحها، فضلا عن تحسن مركزها فى صقلية والشرق. ولم يكن لدى شارل الأصلع قوة بحرية يستطيع أن يبعث بها لرد المسلمين. يضاف إلى ذلك أن مدن كامبانيا حرصت على الإبقاء على صداقة المسلمين فلم يسع البابا، إزاء كل ذلك، إلا أن يدفع للمسلمين جزية قدرها ٢٥ ألف دينار حتى يستتب الأمن والسلام فى أملاك الكنيسة بوسط إيطاليا. ثم استولى المسلمون على جزيرة مالطة، التى اشتهرت بموقعها الحربى بجنوب صقلية وفى سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨ م سقطت سيراكوزا، بعد حصار استمر تسعة أشهر، تعرضت أثناءه المدينة لمجاعة شديدة ترتب عليها وباء، هلك فيه عدد كبير من السكان، فلم يبق فى يد البيزنطيين إلا تاورمينا Taormina فى شرق الجزيرة؛ على أن ضغط المسلمين لم تتوقف حدته إلا سنة ٢٦٧هـ/ ٨٨٠م حين ظهر أسطول بيزنطى قبالة صقلية، واعترض طريق التجارة بين المسلمين ومدن جنوب إيطاليا، واستولى على مقادير من الزيت بلغت من الوفرة أن انخفضت أسعار الزيت فى أسواق القسطنطينية. ومن الواضح أن هذا الأسطول اتخذ قاعدته فى ترمينى Termini. وعلى الرغم من أن نابولى عادت إلى سابق تبعيتها لبيزنطة بسبب قوة هذا الأسطول، فإن نشاط المسلمين البحرى لم يتوقف فى المياه الغربية، بل إنهم اتخذوا لهم قاعدة بحرية فى سنة ٨٨٢ أو ٨٨٣ م، فى مونت جارجليانو Monte Garigliano.



وترتب على قوة بيزنطة البحرية فى تلك الجهات، أن تقرر عقد هدنة فى سنة ٢٧٢هـ/ ٨٨٥ م بين المسلمين فى صقلية وبين البيزنطيين. وفى نفس السنة استطاعت بيزنطة أن تنزل فى جنوب إيطاليا جيشا ضخما بقيادة نقفور فوقاسNicephor Phocas. وتقرر إنشاء ثيمى كالابريا وأبوليا، بينما اعترفت بنفنتو بسلطة بيزنطة عليها، وجرت على نهجها سائر مدن كامبانيا؛ فأضحت بيزنطة بهذا، وسط الإمارات الإيطالية الصغيرة المتعادية، العامل الوحيد الذى يمثل القوة والاستقرار، وهذه الأمور تفسر ما اتخذته البابوية من اتجاه طيب نحو بيزنطة فى الأمور الكنسية آنذاك.

أما عن العلاقة بين البيزنطيين والمسلمين فى الشرق بعد ذلك، فالواقع أنه تهيأ لباسيل الأول ٢٥٣-٢٧٣هـ/ ٨٦٧-٨٨٦م من الأحوال المواتية لقتال المسلمين ما لم يتهيأ لإمبراطور قبله، فإلى جانب ما يربطه من علاقات سلمية مع جيرانه المسيحيين(أرمينية، روسيا وبلغاريا، والبندقية والإمبراطورية الغربية)، سادت الفتن الداخلية فى أنحاء العالم الإسلامى، فازداد نفوذ الترك فى دار الخلافة العباسية ببغداد، واستقل أحمد بن طولون بمصر سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م، ونشبت الحرب الداخلية فى شمال إفريقيا، واشتد الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس، ومع ذلك لم يتحقق للإمبراطورية البيزنطية كل ما تصبو إليه من آمال.

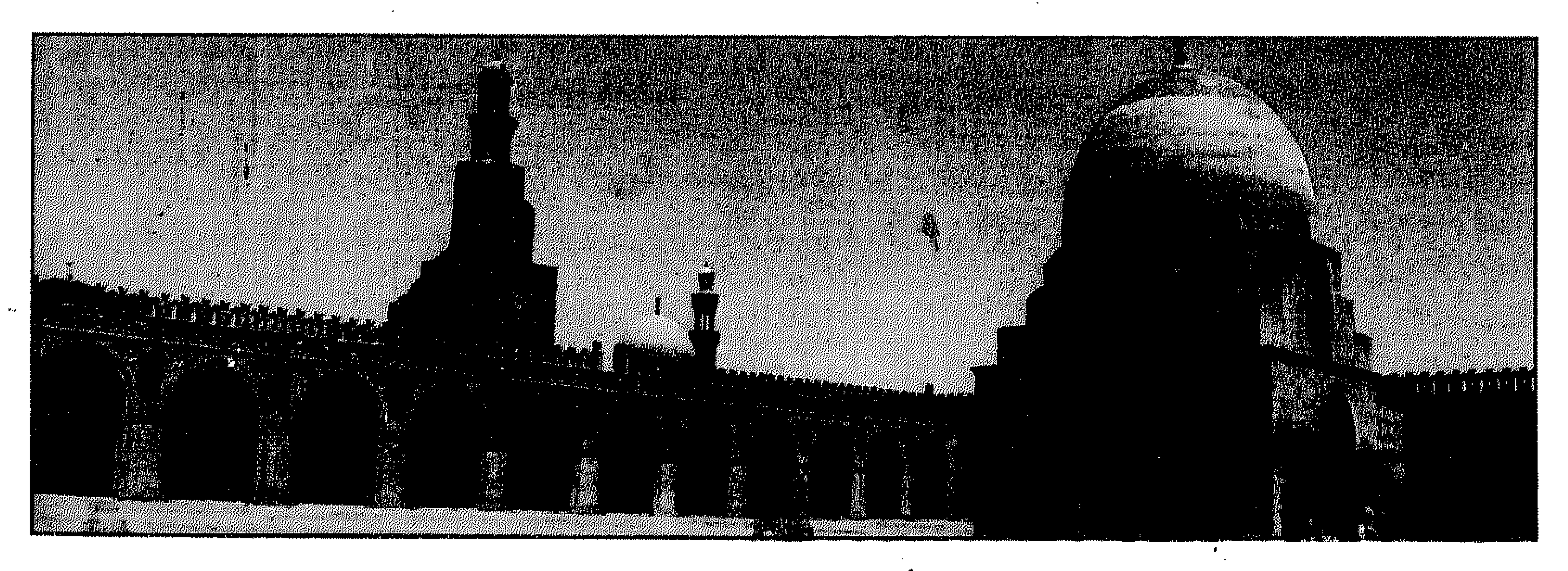
والمعروف أن البيالصة ازداد نفوذهم فى الشرق، وانتشروا فى سائر أنحاء آسيا الصغرى. وفى سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م توجهت حملة بقيادة كريستوفر، صهر الإمبراطور باسيل والقائد العام للجيش، لقتالهم، فأحرزت انتصارا حاسما على البيالصة، ودمرت معقلهم فى تفريك، وخربت ما كان لهم من استحكامات عديدة، وبددت قواتهم فى معركة حامية، هلك فيها زعيم البيالصة المدعو خريسوخير Chrysocherius. وترتب على هذا الانتصار أن واصل البيزنطيون الزحف نحو الشرق. فاندفع باسيل بجيشه، حتى بلغ إقليم الفرات، فاستولى سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م، على زبطرة وسميساط، ومع ذلك تعرض باسيل لهزيمة ساحقة، حين حاول الاستيلاء على حصن ملطية الذى يعتبر من المعاقل الهامة. وعلى الرغم من أن باسيل اكتفى بهذا الانتصار الجزئى فى هذه الحملة، وفيما تلاها من الحملات التى توجهت إلى أقاليم الفرات والى أطراف طوروس، فإن عمله يعتبر بداية مرحلة جديدة من مراحل الزحف والتقدم المنتظم، التى قامت به الإمبراطورية البيزنطية على الأطراف الشرقية. يضاف إلى ذلك أن ما أصاب الدولة الإسلامية من الضعف، أسهم فى نمو أرمينية، إذ اعترف بسلطة آشوط الأول وقرر اعتباره ملكا، كل من الخليفة، سنة ٢٧٢هـ/ ٨٨٥ م، والإمبراطور البيزنطى سنة ٢٧٤هـ/ ٨٨٧م، فكان ذلك الاعتراف بداية مرحلة من مراحل توسع أرمينية زمن الأسرة البجراطية.



لم تكن لبيزنطة من القـوة ما تستطيع بها مواجـهة المسلمين فى الشرق والغـرب. والمعروف أن بيـزنطة ارتبطت بأرمينيـة، زمن باسيل المقدونى، بنوع من التحالف والعلاقات الودية، منذ زمن ملكها أشوط الأول، وصارت أرمينيـا تعتبر دولة حاجزة ضـد المسلمين فى الشرق. غير أن أرمينيه لا زالت تعتـرف للمسلمين بالسيادة. ومن الدليل على ذلك، ما كـانت تدفعه من جزية سنويـة للخليفة العبـاسي، وضرورة الحصول على موافقة الخليفة عند تنصيب ملوكهم. وفى سبيل المحافظة على السلام، حرص أشـوط على أن يعقد محالـفات مع سائر الملوك والأمراء المجاورين. فـتوجه إلى القسطنطينيـة لمقابلة الإمبراطور ليـو الفيلسوف Leo VI (ليو السادس٢٧٣-٣٠٠هـ/ ٨٨٦-٩١٢م)، الذى قيل عنه، أنـه ينحدر من أصل أرمنيي. ووقع ليو الـسادس والملك أشوط مـعاهدة سياسية وتجارية. وأمـد الملك أشوط الإمبراطورية البيزنطية بكتيبة أرمـينية، تسانده فى الحرب ضد البلغار.

وما كاد أشوط يقضى نحبه وتولى مكانه ابنه سمبـاد الأول Sambat I (٨٩٢-٩١٤)، حتى نشبت الحرب الداخلـية فى البلاد، وانحاز كثـير من الأمراء، إلى جانب المسلمـين فى أذربيجان، الذين يكرهون أرمينية، وتطلع سمـباد إلى المساعدة الخارجية من قبل البيـزنطيين. على أن أرمينية تعرضت لمهاجمات المسلمين المستمرة، ولم يستطع الإمبراطور البيزنطى أن ينهض لمساعدة أرمينية، وحينمـا توجه ليو السادس عـلى رأس حملة لتقديم المسـاعدة للأرمن، مات قـبل أن تصل إليهم النجدة، ولم تلبث أرمينية أن خضعت لحكم المسلمين سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٤م.

وعلى الرغم مما حدث من نشـوب خلاف وشقاق بين البـيزنطيين، بسبب مـشكلة زيجات الإمبراطور ليو السادس الأربع، أصبح النضال بين البيزنطيين والمسلمين شاقا ومضنيا. ففى الأربع عشـرة سنة الأولى من حكم ليـو السادس، من سنة ٨٨٦ إلى سنة ٩٠٠م تعـرض البيـزنطيون



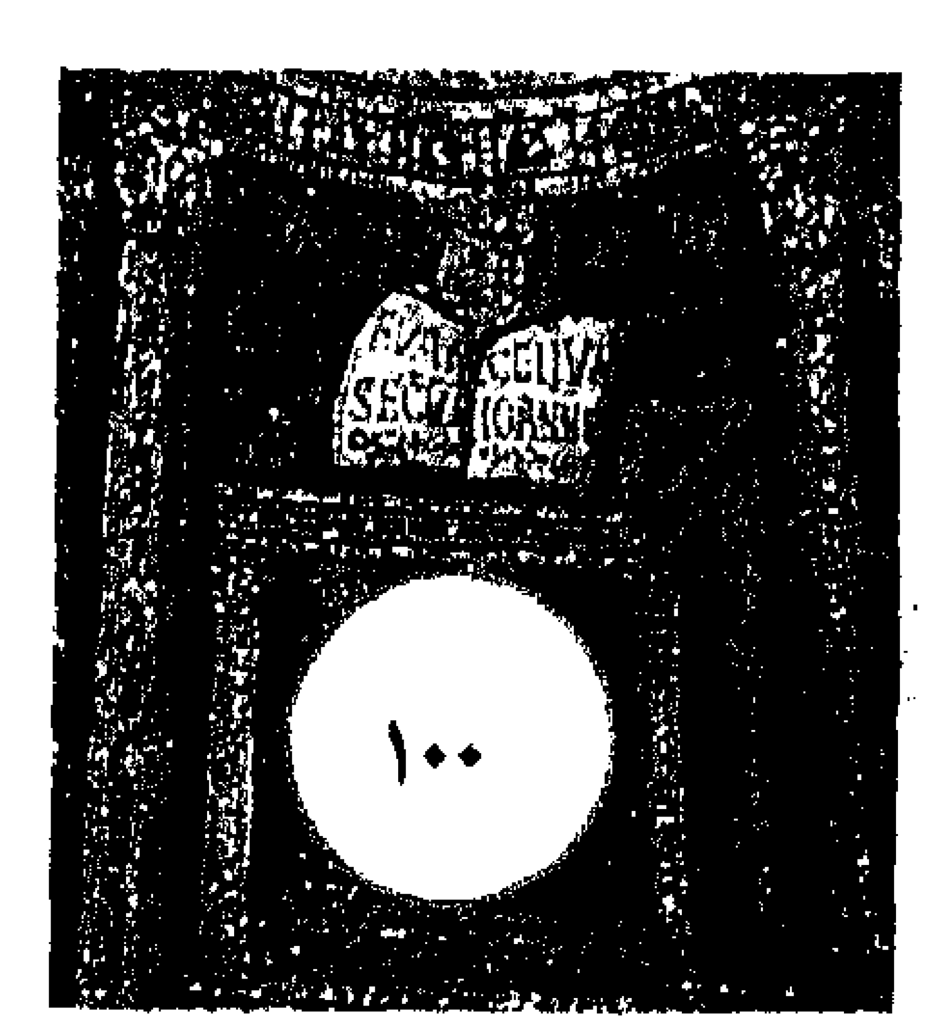
مسجد أحمد بن طولون / مصر

لهزائم عديدة فى الشرق عند أبواب قيليقية، وفى غرب قيليقية، حيث أدى انتصار المسلمين إلى أن يزحفوا على امتداد الساحل، وأن يتوغلوا فى جوف آسيا الصغرى. وما حل بالبيزنطيين من الهزيمة برا، وما تعرضوا له من الهزيمة بحرا سنة ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م عند Raghib تجاه شاطئ آسيا الصغرى، أجبر الحكومة البيزنطية على أن تستدعى من إيطاليا قائدها الشجاع نقفور فوقاس، فقدم إلى آسيا الصغرى سنة ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م. وما أحرزه نقفور من انتصار فى أذنه سنة ٩٠٠م لم يترتب عليه منع إغارات المسلمين ووقف هجماتهم.

٩٩

أما عن الوضع بين القوتين البيزنطية والإسلامية فى إيطاليا وصقلية فقد أخذت الأمور في صقلية تزداد سوءا، سنة بعد سنة، فعلى الرغم من الجهود التى بذلها باسيل الأول، لتوطيد النفوذ البيزنطى فى جنوب إيطاليا، وإفادته من التزام المسلمين بصقلية الهدوء، فى توجيه البحرية البيزنطية لمواصلة نشاطها فى البحر التيرانى، فإن هذا الهدوء لم يكن إلا ظاهريا. إذا أعقب وفاة باسيل سنة ٢٧٣هـ/ ٨٨٦ م، أن عاد المسلمون بصقلية إلى الهجوم فأغاروا فى سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م على كالابريا (قلورية) وأقلعت قوات بحرية بيزنطية، نحو الغرب إلى ريجيو(ريو)، وإلى بوغاز مسينا، وبالقرب من Milazzo، تجاه الساحل الشمالى لجزيرة صقلية، التقت بأسطول إسلامى ضخم، فحلت الهزيمة بالقوات البيزنطية، وتعرض الأسطول البيزنطى للتدمير. وتقرر سنة ٨٩٥ م/ ٢٨٢هـ، عقد هدنة بين الفريقين، وبذلك فقدت بيزنطة كل ما لها من سلطان على مياه صقلية وغرب إيطاليا.

واشتهرت السنوات الأولى من القرن العاشر الميلادى، بما أصاب الدولة البيزنطية من الهزائم، إذ استولى أبو العباس إبراهيم بن الأغلب، فى سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠١م على ريجيو في كالابريا، بينما قاد إبراهيم بن الأغلب، الذى تنازل لابنه عن حكم أفريقية، حملة ضخمة سارت برا وبحرا فى سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م، من بالرمو لمهاجمة آخر ما تبقى فى صقلية من الأملاك في يد البيزنطيين، التى لم تتعد مدينة تاورمينا(طبرمين) وما يجاورها، والتى لم تلبث إن سقطت في يد المسلمين. ثم واصل إبراهيم بن الأغلب المسير إلى كالابريا، غير أن موته المفاجئ فى كوسنزا Cosenza، أنقذ إيطاليا من المصير الذى تعرضت له تاورمينا، إذ أن الجيش الإسلامى عاد إلى صقلية، وعلى الرغم من أن بيزنطة لا زالت تملك بعض المواضع فى صقلية، فإن هذه المواضع لم يكن لها أهمية فيما بعد، فى تاريخ بيزنطة. فمنذ سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م، ما جرى من الحوادث بصقلية لم يكن لها أثر فى توجيه الأمور السياسية فى بيزنطة. وما سار عليه ليو السادس فى سياسته مع المسلمين فى الشرق، لا ترتبط مطلقا بعلاقاته مع المسلمين فى صقلية.



وقد اشتهرت أيضا السنوات الأولى من القرن العاشر الميلادى، بما وقع من حوادث كبيرة الأهمية. إذ إن المسلمين فى الشرق لم يسيطروا فحسب على البحر المتوسط، بل بسطوا سلطانهم على بحر إيجه، الذى تحيط به الممتلكات البيزنطية. فجزر بحر الأرخبيل، وساحل البيلوبونيز، وتساليا، تعرضت باستمرار لغارات المسلمين المخربة. واشترك عادة الأسطولان الإسلاميان، فى الشام وكريت، فى هذه الغارات، ففى سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢ م، أغار الأسطول الإسلامى على جزائر بحر إيجه، وأنزل الدمار بمدينة ديمتريوس Demetrius الواقعة على ساحل تساليا، والتى اشتهرت بكثرة عدد سكانها ووفرة ثروتها. وفى سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م قام أسطول إسلامى آخر بقيادة ليو الطرابلسى Leo of Tripolii أو كما يطلق عليه البعض "ليو غلام زرافة"، وهو يونانى اعتنق الإسلام، بالهجوم على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى، وفى شهر يوليه من هذه السنة استولى على مدينة أطاليا Attalia الهامة. ثم عزم ليو على أن يقصد القسطنطينية ليستولى عليها، فاجتاز فعلا الدردنيل إلى بحر مرمرة واستولى على أبيدوس، التى تعتبر الميناء الرئيسى للسفن عند مضيها إلى القسطنطينية، حيث يقع بها الديوان (الجمرك)، غير أن ليو لم يلبث أن ارتحل فجأة، واستدار مع شبه جزيرة خلقيديقا Chalcidice وانقض على مدينة سالونيك التى اشتهرت بنشاطها التجارى والثقافى، والتى تلى القسطنطينية فى الأهمية والثروة، وانحاز إلى أسطوله سفن إسلامية من كريت، واستخدم فى هذا الهجوم قاذفات اللهب، فأحرز انتصارا حاسما، ووقع فى يده من السبى نحو ٢٢ ألفا من الذكور والإناث، فباعهم فى أسواق الرقيق فى الخندق وطرابلس، فضلا عن الغنائم.

وما أصاب الدولة البيزنطية من ضربات قاصمة، ردها إلى صوابها، فعملت على إقامة استحكامات قوية فى سالونيك وأضاليا، واتخذت من التدابير الفعالة، ما يزيد فى قوة الأسطول. ولم تلبث هذه القوة الجديدة أن ظهرت آثارها، إذ استطاع الوزير هيميريوس Himerius، أن يحرز فى سنة ٢٩٤هـ/ ٩٠٦م انتصارا باهرا على المسلمين. وفى سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م، نزل بجنده فى جزيرة قبرص، ومن ثم تحول لمهاجمة ساحل الشام، فاقتحم اللاذقية.

وقاد هميريوس سنة ٢٩٩هـ/ ٩١١م أكبر حملة بحرية لمهاجمة جزيرة كريت الإسلامية، إذ تألفت من ٧ آلاف فارس، و ٣٤ ألف مقاتل بحرى، وخمسة آلاف من المردة، وسبعمائة مرتزق روسى، على أن الأسطول البيزنطى انسحب بعد قتال فاشل، استمر طويلا، دون جدوى، وفى أثناء عودته هاجمه أسطول إسلامى بقيادة ليو الطرابلسى ودميان، اليونانى المسلم، أمير صور، وقائد الأسطول الشامى، وذلك تجاه جزيرة خيوس Chios، فتعرض هيميريوس لهزيمة ساحقة،

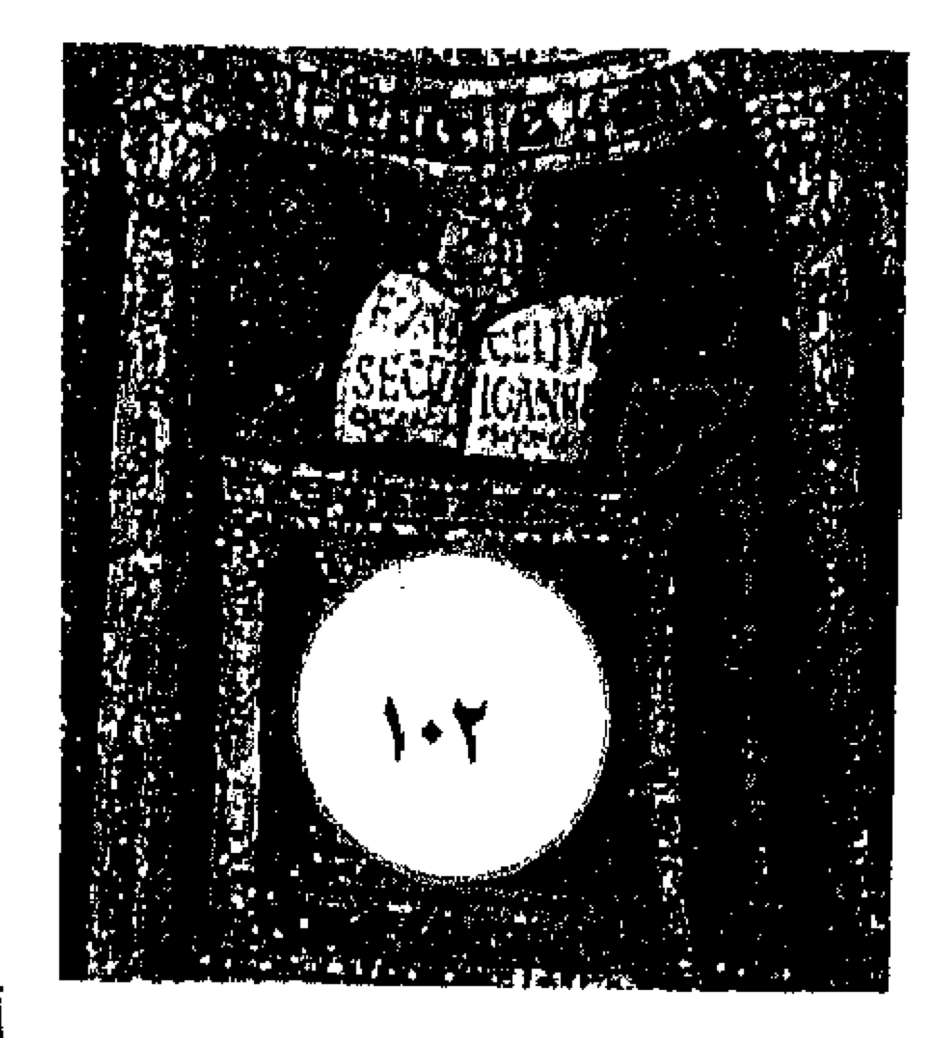


وبذلك أخفقت الحملة الكبيرة، وما بذلته الإمبراطورية من جهود حربية ومالية، تجاوزت الحدود، لم تؤد إلى نتائج إيجابية. ولما عاد هيميريوس إلى القسطنطينية بعد وفاة ليو السادس، تقرر إنزاله بالدير.

ظلت الإمبراطورية البيزنطية حتى سنة ٣١٥هـ/ ٩٢٧م منصرفة إلى النضال ضد سيميون البلغارى Symeon. أما فى الشرق، فإن ما بذلته الإمبراطورية من نشاط، اقتصر على اتخاذ تدابير دفاعية. فلجأت إلى السياسة فى الإفادة من التحالف مع أرمينيا، والمحافظة على ما بين بيزنطة والدولة الإسلامية، من السلام والهدوء. غير أن بيزنطة ما كادت تقضى على الخطر البلغارى، حتى شرعت فى أن تتخذ خطة الهجوم فى الشرق. وتولى تحقيق هذه الخطة القائد الشهير يوحنا كوركواس. وأفاد كوركواس من الأحوال السيئة التى تعرضت لها الدولة العباسية وقتذاك. إذ إن القرامطة هددوا العراق، بل بغداد ذاتها، ونشبت ثورات القادة والأمراء. وما حدث فى دار الخلافة من الفتن، منع جانبا كبيرا من الجيش الإسلامى من القيام بأى مجهود حربى.

وقد وقع عبء مقاومة الروم بدءا منذ ذلك الوقت على أكتاف الأسرة الحمدانية، التى أسست لها إمارة فى شمال بلاد الشام. ويمكن القول أنه منذ ذلك الوقت الذى سرت فيه روح الشباب فى بدن الدولة البيزنطية بفضل جهود الأباطرة المقدونيين الذين استغلوا ضعف وتفكك الخلافة العباسية فى عصرها الثانى، بل وظهور الخلافة الفاطمية بعد ذلك ومنازعتها للخلافة العباسية فى بغداد، ومدوا النفوذ البيزنطى فى أراضى الدولة الإسلامية حتى وصل أحد الأباطرة آنذاك وهو يوحنا تزيمسكس ٣٩٥هـ-٣٦٦هـ/ ٩٦٩-٩٧٦م إلى بلاد ما بين النهرين وبيت المقدس، لم يكن بمقدور الخلفاء العباسيين أن يذودوا عن أراضى الدولة الإسلامية لولا وجود سيف الدولة الحمدانى الذى دان بالسلطان للخليفة العباسى. واستطاع الحمدانيون أن يدرءوا الخطر البيزنطى عن أطراف الخلافة العباسية فى رحلة طويلة من النضال والجهاد فى سبيل الله.

وبعد أن عبثت الرياح بأركان الدولة الحمدانية وأوشكت على الرحيل من عالم العصور الوسطى حمل الأتراك السلاجقة المسلمين راية الجهاد ضد البيزنطيين حتى اضطر الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنينوس Alexius Comnenus ٤٧٤-٥١٢هـ/ ١٠٨١-١١١٨م إلى طلب العون والمدد العسكرى من الغرب الأوربى، حتى يستطيع الصمود أمام الأتراك السلاجقة. ومن هنا تبدأ رحلة جديدة فى الصراع بين المسلمين والبيزنطيين بعد دخول قوى جديدة فى الصراع، ألا وهى القوى الصليبية، بعدما وطأت أقدامهم أرض الشرق الإسلامى بمجىء الحملة الصليبية الأولى.





أولا: المراجع العربية:

* إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، القاهرة، ١٩٦٣.
* إبراهيم العدوى، الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، القاهرة، ١٩٥٨.
* أحمد رمضان، تاريخ فن القتال البحرى فى البحر المتوسط، القاهرة، د.ت.
* أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٠.
* أحمد عبد الكريم سليمان، المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط، جـ١، القاهرة، ١٩٨٢.
* أسد رستم، الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، جزءان، بيروت، ١٩٥٥.
* حامد زيان، الأسرى المسلمون فى بلاد الروم، القاهرة، ١٩٨٩.
* حسنين ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٨٥.
* سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، القاهرة، ١٩٦٧.
* السيد الباز العرينى، الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٦٠.
* طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجى، جـ١، البيزنطيون والعالم الإسلامى، القاهرة، ٢٠٠٣.
* طارق منصور، النار الإغريقية: قراءة جديدة فى ضوء المصادر البيزنطية والإسلامية»، حولية التاريخ الإسلامى والوسيط، عدد ٤ (٢٠٠٤ - ٢٠٠٥).
* عبد الرحمن أحمد سالم، المسلمون والروم فى عصر النبوة، القاهرة، ١٩٩٧.
* علية عبد السميع الجنزورى، الثغور البرية الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٩.
* علية عبد السميع الجنزورى، هجمات الروم على شواطئ مصر الإسلامية فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٨٥.
* فازيليف، أ.، العرب والروم، ترجمة/ محمد عبد الهادى شعيرة، القاهرة، د.ت.
* فتحى عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى، جـ١، القاهرة، ١٩٦٦.
* ليلى عبد الجواد إسماعيل، الدولة فى عصر الإمبراطور هرقل، القاهرة، ١٩٨٥.
* ليلى عبد الجواد إسماعيل، علاقة دولة الروم بمصر، عصرى الطولونيين والإخشيديين، القاهرة، ١٩٨٨.



* وديع فتحى عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامى ٧٤١ - ٨٢٠م/ ١٢٤ - ٢٠٥هـ، الإسكندرية، ١٩٩٠.

* وسام عبد العزيز فرج، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى، الإسكندرية، ١٩٨١.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

-Antoniadis-Bibicou, H., Études d'histoire maritime de Byzance, Paris, 1966.

-Ahrweiler, H., Byzance et la mer, Paris, 1966.

-Browning, R., Byzantium and Bulgaria, (Oxford, 1980).

-Bury, J. B., The Imperial Administrative System in the Ninth Century, (London, 1911).

-Bury, J.B., " Mutasim march through Cappadocia in A.D. 838", JHS, 29(1909), pp. 120-129.

-Canard, M., " Les expéditions arabes contre Constantinople", JA, 208(1926), pp. 61-121.

-Christides, V., " How Chinese Naval Technology Passed to the Mediterranean Via the Arabs: Once Again the Single Rudder", *ΤΡΟΠΟΣ*, 5(1993), pp. 93-100.

-Constantin Porphyrogénète, Le livre des cérémonies, trad. fran. et comm. Albert Vogt, tome I, Paris, 1935; tome II, (Paris, 1939).

-Constantine Porphyrogenitus, De Thematibus, ed. I. Bekker, CSHB, (Bonnae, 1840).

-Constantine Porphyrogenitus, Three Treatises on Imperial Military Expeditions, text, Eng. trans & Com. J. F. Haldon, CFHB, vol. XXVIII, (Wien, 1990).

-Finlay, G., History of the Byzantine Empire 716-1057 AD, (New York, 1913).

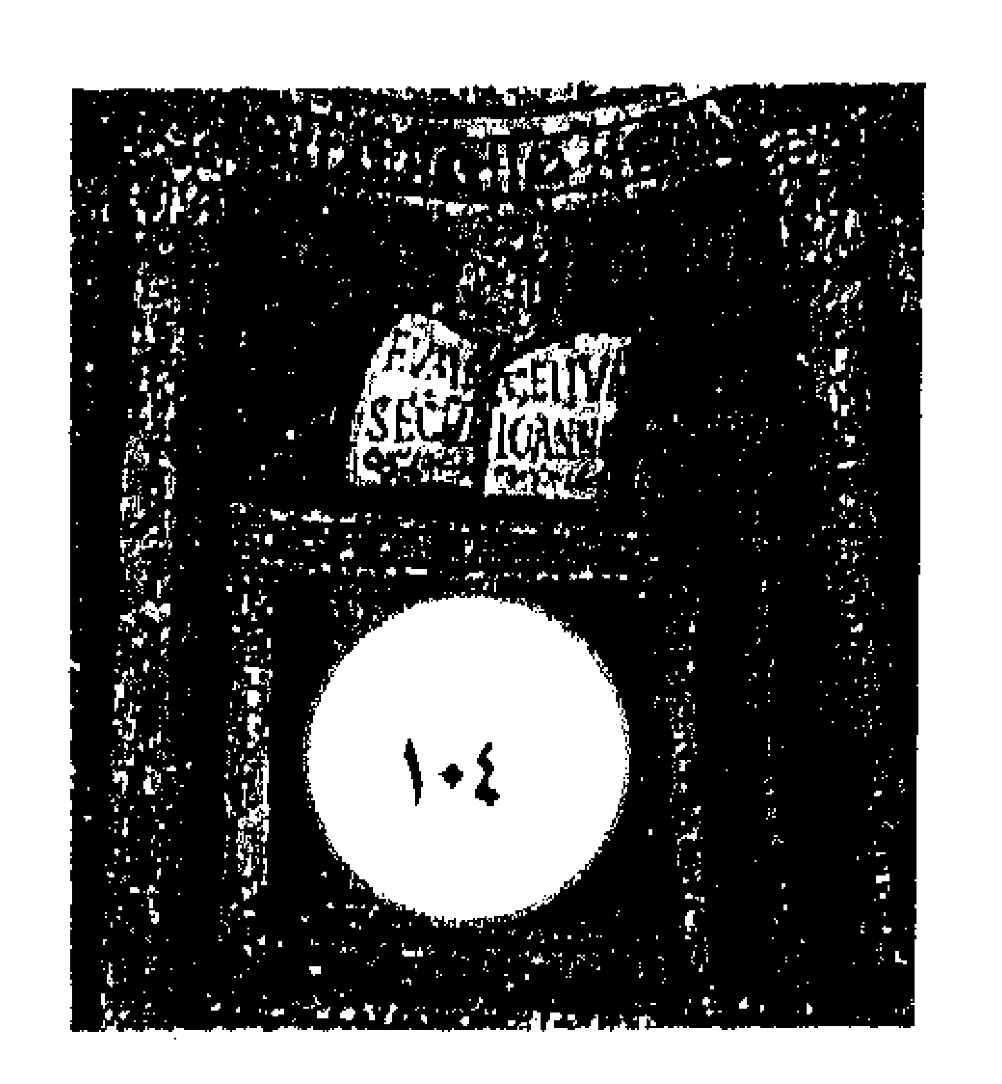
-Haldon, J., Byzantium in the Seventh Century, The transformation of culture, Cambridge, 1990.

-Incerti Scriptoris Byzantini Saeculi X. Liber de Re Militari, ed. R. Vari, (Lipsiae, 1901).

Kaegi, W. E., Byzantine Military Unrest 471-843, Amsterdam, 1981.

–Nicephor Phocas, De Velitatione Bellica, ed.B.G.Niebuhrii, CSHB, (Bonnae, 1828).

-Whittow, M., The Making of Orthodox Byzantium 600-1025, (Lonon, 1996).



١٠٤



المحتويات

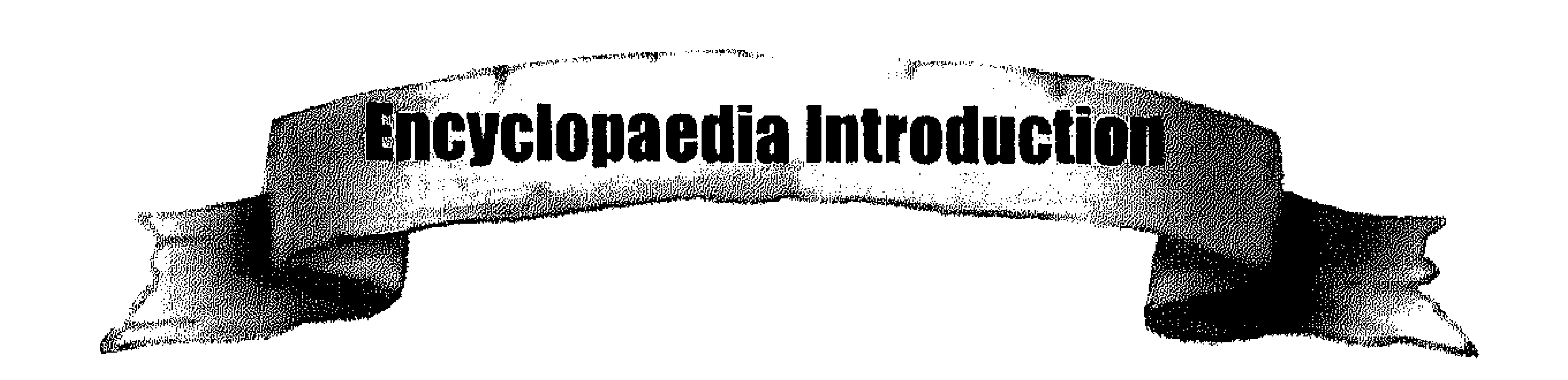


The Byzantine State lasted for about eleven thousand years, during which it had been confronted by various elements especially the Persians. However, Emperor Heracules succeeded in devastating the Persian Empire.

Later on, the "Muslim Umma" appeared on the stage and ultimately put an end to the Byzantine State, and replaced it as an international power, that was feared and respected in the Four Corners of the world throughout the Middle Ages.

The author of this book highlights the major events of the conflicts between the Muslims and the Byzantine State, from the age of the Prophet of God "Peace be Upon Him", to the end of the Abbasid Caliphate.

Dr. Tareq Mansour



History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Correspondence & Communications:

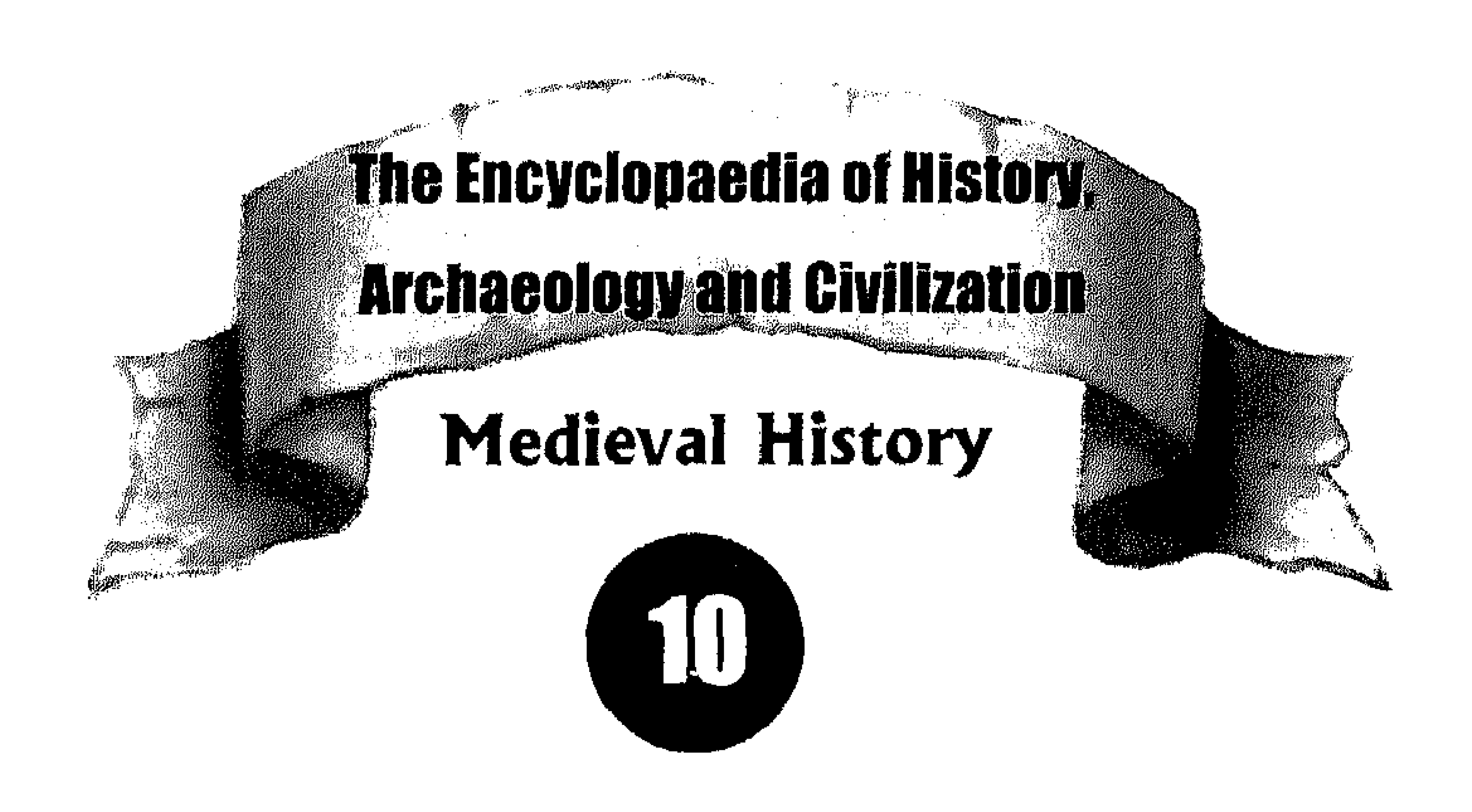
Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

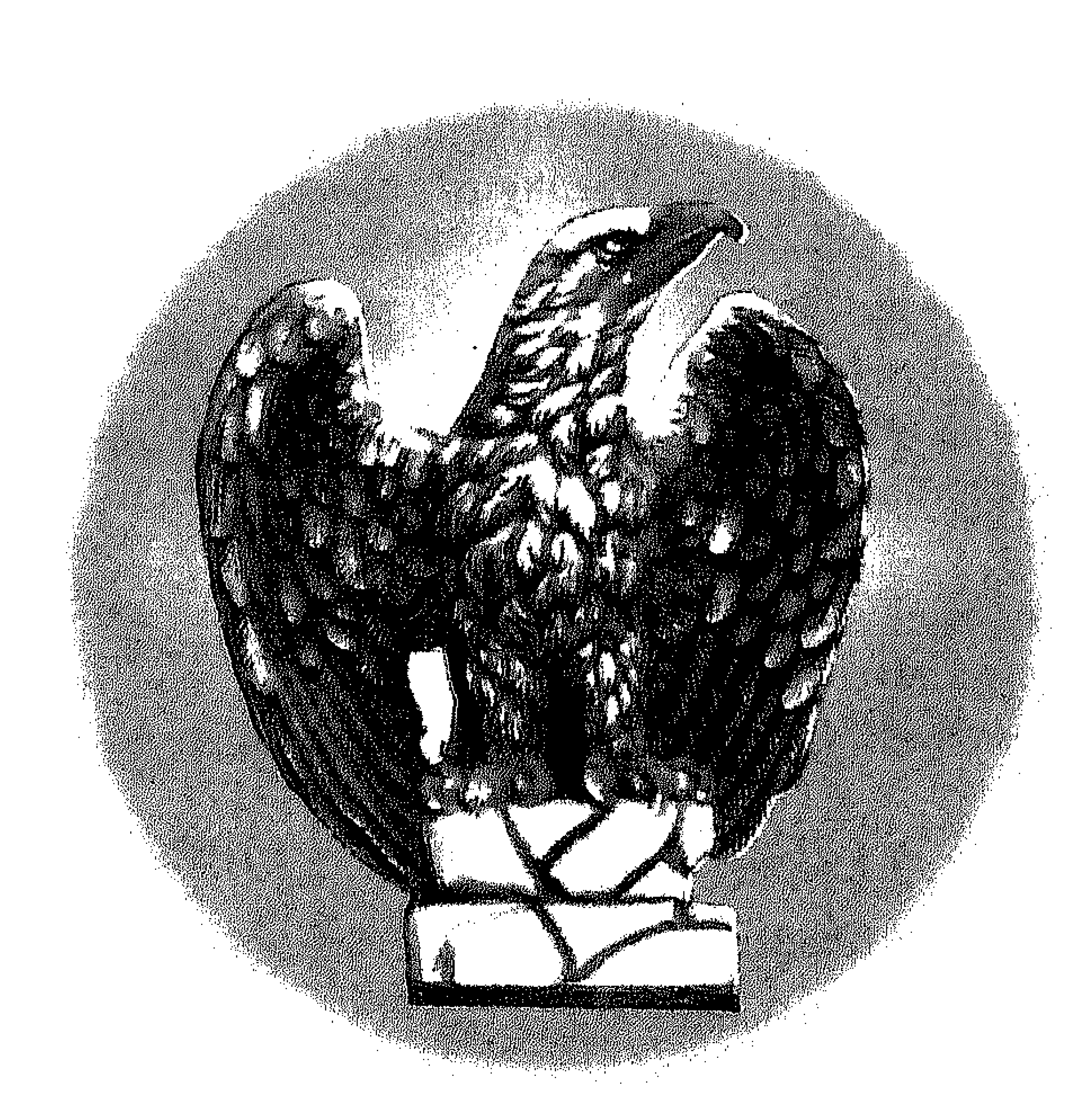
94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 22752984 Fax: 22752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



The Islamic World and the Byzantine State "The Rum"



Dr. Tareq Mansour

Publisher
Dar Al-Fikr Al-Arabi
94 Abbas El - Akkad St. Nasr City - Cairo
tel : 22752794 . Fax : 22752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

The Encyclopedia of History, Archaeology and Civilization



The Islamic World and the Byzantine State "The Rome"



Dr. Tareq Mansour

